وَليد السَّابق

وَليد السَّابق

رواية

أُصْل العالَم

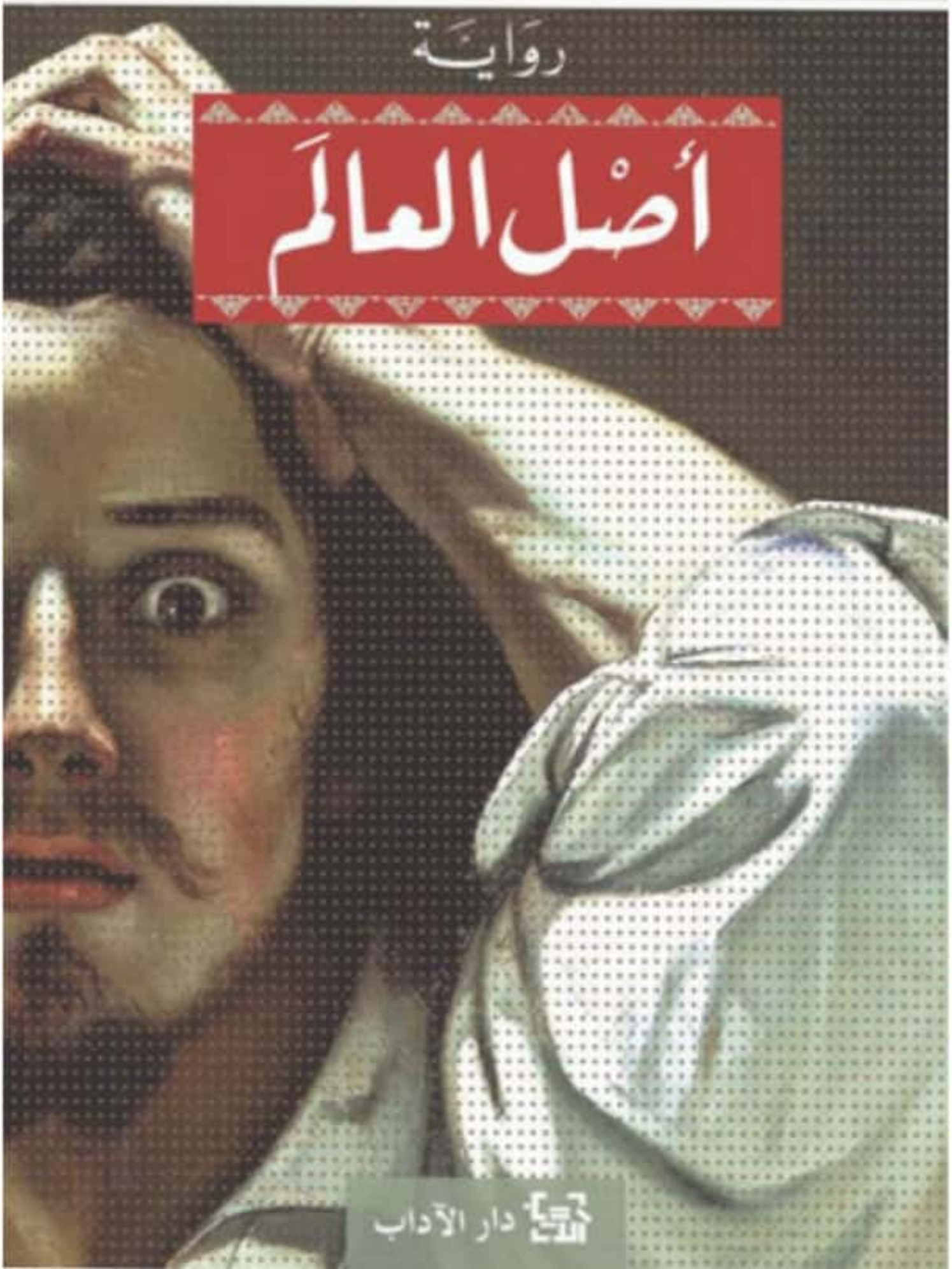

دار الآداب

وليد السابق

أصل العالم

رواية

دار الآداب

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تحزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

جميع الحقوق محفوظة

©دار الآداب

بناية بيهم، ساقية الجنزير، بيروت. ص.ب.:4123-11.

هاتف: 961 1 861633 - 961 3 861632،

فاكس:9611 861633

e-mail: info@daraladab.com

www.daraladab.com

تابعونا على

DarAlAdab@

دار الآداب

DarAlAdab

فأمطر الرب على سدوم وعمورا كبريتا ونارا من عند الرب من السماء،

وقلب تلك المدن، وكلّ الدوائر، وجميع سكّان المدن، ونبات الأرض.

ونظرت امرأتُه من ورائه، فصارت عمود ملح.

«سفر التكوين»

١

لقد قتلت رجلًا، غادر المكان بسرعة.

يقف على مفترق الطرق، خلفهُ البلدة القديمة تميل شمسها نحو الغرب، والطريق الجنوبيّ ما زال خاليًا من المارّة.

هيّا بسرعة، ماذا تنتظر؟ اهرب قبل أن يمرّ أحدهم ويرى الجريمة، وعندها إن لم تفقد حياتك فستفقد حرّيّتك إلى الأبد. لكنْ ماذا لو أنّ الرجل لم يمت بعد، كيف أتركه يموت هنا وحيدًا، ربّما استطاع الأطبّاء إنقاذه. لا بدّ أنّك فقدت عقلك. حسنًا، تريد أن تحمله إلى المشفى، فإنْ مات هناك سيتّهمونك بالجريمة التي ارتكبتها، وإن عاد الرجل حيًا سيتّهمك هو بمحاولة قتله. لكنْ كيف سأتركهُ هنا وحيدًا غارقًا في دمه. سأخبرهم بالحقيقة يا سيّدي القاضي. أنا لم أقتلهُ، هو من ظهر لي فجأة وأنا متّجه إلى السوق، لأصلح حذائي القديم قبل الذهاب إلى عملي. طلب مني نقودًا، فأخبرتهُ أني لا أحمل نقودًا، وأني فقير الحال مثله بل ربما أكثر. هاجمني وحاول أن يسلبني ما أملك، لا شكّ أنّهُ أراد سرقة معطفي الجديد. يا سيّدي القاضي، أنا لم أؤذ أحدًا في حياتي كلها، لم أسرق ولم أقتل. لم أخالف وصيّة واحدة من وصايا السماء. والسماء ليست تدري بوجودي. كنتُ يا سيّدي القاضي دائمًا أحيا على طرف الهاوية، أحيا فقط، لأنّني لم أمت بعد. لا تحاول استعطاف المحكمة بقصصك هذه. أنت قتلت رجلًا،

ويجب أن يحكم عليك بالإعدام.

هيّا، قم وانفض الغبار عن ملابسك، واذهب إلى أيّ مكان. لم يرَ أحد الجريمة، فأنت لست القاتل، ولن يستطيع أحد أن يوقع بك ما لم توقع أنت بنفسك. تصرّف وكأنّ شيئًا لم يكن، تابع حياتك ببساطة. انسَ أنّك في هذا اليوم كنت متّجهًا إلى سوق البلدة القديمة لتصلح حذاءك القديم. انسَ أنّك كنت هنا، انسَ أنّك رأيت وجه القتيل، هيّا غادر المكان. نظر الرجل نظرة أخيرة في وجه القتيل، كان وجه القتيل عابسًا كنائم يرى كابوسًا. اقترب من القتيل قليلًا وانحنى على وجهه. لقد مات لا شكّ، قال الرجلُ ومضى.

٢

ذهب يوسف نحو سوق البلدة القديمة. كان يلتفت للخلف كلما سمع صوتًا. سيحلّ المساء قريبًا ولن يكتشفوا الجثّة حتى صباح الغد، أو ربّما يمرّ أحدهم ويُخبر الأمن. كانت الأفكار تتزاحم في رأسه بسرعة. أيهرب من البلدة ويتّجه شمالا؟ تلك المدينة في الشمال لا يعرفه أحد فيها! هناك سيجد عملًا في مزارع البرتقال ويمضي بقيّة حياته. هل فقدت عقلك؟ تريد أن تهرب ولا دليل ضدّك. بل إنّ هروبك سيكون الدليل الذي تقدّمه للسلطات حتى تقبض عليك، سيربط المحققون بين هربك والجريمة. هذه بلدةٌ صغيرة لا يقتل فيها رجل كلّ يوم. ستهرب. وفي الصباح يكتشفون الجثّة، ويكتشفون غيابك عن عملك وعن منزلك وعن البلدة، ستقدّم لهم الدليل أنّك أنت القاتل.

كان السوق مزدحمًا. باعة في كلّ مكان يصرخون على بضاعتهم، ونساء ورجال يساومون ليحصلوا على السعر الأقلّ.

البلدة في الظهيرة تبدو وكأنها في يوم العيد، الأطفال يتراكضون ويسرقون بعض الفاكهة، فيعلو صوت الباعة يشتمونّ السارقين الصغار. يقترب يوسف من باعة اللحم الذين صفوا رؤوس الذبائح على طاولات فوق الرصيف، وعلى أحد الطاولات وضِع رأس عجل، كان يبدو أنّهُ قد ذبِح هذا الصباح. خيطٌ من الدم كان يسيل من الجزء المتبقي من الرقبة المقطوعة ويصل حافّة

الطاولة، ثم يقطر على الأرض الترابيّة التي شكّل الدمُ فيها مع التراب بركة صغيرة لزجة. لم يستطع يوسف أن يشيح ببصره عن الرأس، كان يرى أنّ الذباب يجتمعُ تارة فوق بركة الدم وتارة فوق شفاه العجل. وجه العجل كان عابسًا كوجه الرجل القتيل، والفارق الوحيد بينهما هو هذا العزي الكامل لرأس العجل عن باقي جسده. السوق يموج بالحركة، ويوسف متجمّدٌ في مكانه كحجر. لم يعد يحسّ بالوقت، كم وقف ينظرُ في الرأس المقطوع! أهي لحظة أم ساعة أم نهار كامل؟ هل أعجبك الرأس يا سيّدي؟ إن شئت أن تشتري أعطيتك إيّاه بأفضل سعر في السوق. حديث البائع أعاد يوسف إلى الواقع وجعلهُ ينتفضُ. بدأ يحسّ أنّ في قلبه خليّة نحل تنبض. ينظرُ تارة إلى صاحب المتجر وتارة إلى رأس العجل المُدمّى الموضوع على الطاولة، ثم يستديرُ ويبدأ يركضُ. يوسف يختفي في الزحام، والبائع مذهول من تصرّفه الغريب. لا بدّ أنّ الرجل فقدَ عقله يقول البائع، ويعودُ إلى دكّانه يطردُ الذباب عن الجثث المُعلقة.

يركض يوسف وقد أفلتت فردة حذائه، فيعود يلتقطُها ويعاود الركض. توقف. ماذا دهاك؟ لماذا تركض هكذا كحيوان أفلت من الأسر؟ سيعتقد الجمعُ أنّك سرقت شيئًا، ويمسكون بك وسيدفعونك إلى الشرطة، وهناك ستعترف بجريمتك قبل أن يكتشفها أحد. لكنْ ألم ترَ الرأس المقطوع كيف كان عابسًا، إنّهُ يشبهُ وجه الرجل

الميّت. لقد انتهيت. لا أستطيع أن أجلو صورة القتيل عن خيالي. فما الحلّ إذًا؟ اذهب واعترف أنّك قاتل، ودعهم يدخلوك السجن ثم ينفذوا فيك حكم الإعدام. لست أخاف من الموت. صدّقني. وقد فكّرتُ في هذا، لكنّي أخشى تلك المسافة الزمنيّة بين باب الزنزانة وحبل المشنقة. لطالما فكّرت بماذا يحسّ الإنسان وهو يدرك أنّهُ سيموت بعد دقائق. يُحكى أنّه في الثورة الشيوعيّة في روسيا، عندما كان الحمر الشيوعيّون يأسرون أعدادًا كبيرة من البيض (الملكيّين)، كانوا يحفرون قبرًا كبيرًا، ويدفعون الأسرى في جماعات تضمّ الواحدة منها عددًا معيّنًا. يطلبون منهم المسير حتى حافّة الحفرة الكبيرة، وهناك يطلقون النار عليهم، فيسقطون من تلقاء أنفسهم في قبرهم الكبير. لقد كان الشيوعيّون يفعلون هذا ليختصروا الوقت والجهد في حمل الجثث. تخيّل اختصار الوقت والسرعة حتى في القتل. لكنْ في بعض الحالات، كان الأسرى بالمئات. أي أنّ المجموعة الأخيرة من المسافرين في رحلة الموت كانت تنتظر دورها لساعات. تخيّل نفسك تنتظرُ دورك في الموت لساعات، وكلّما قتل أمامك بعض من رفاقك، ترى الموت ولا تحصل عليه، بل تنتظرهُ. إنّ هذا الإحسّاس في انتظار الموت يعادِل كلّ شيء عرفتهُ البشريّة. ثم هل يتألم الإنسان كثيرًا عند لحظة الموت شنقا، هل يتألم بين سقوط جسده وذاك القطع القاتل في الحبل الشوكيّ وفي الحنجرة؟ لا تخشَ هذا، فإنّ

السلطات لا تخبر المحكومين بالإعدام بمواعيد التنفيذ حتى يعيشوا حياةً طبيعيّة حتى تلك اللحظة، لكنّ عندما يقتادونك في الفجر، تلك المسافة وأنت ذاهب إلى منصّة الإعدام ما أطولها وما أقصرها! ما أقبح البشريّة! اقتل نفسكَ إذًا، وهكذا تتجنّب الكثير من الألم، بطلق ناريّ مثلًا وستموتُ في ثوانٍ. لكنّي لا أمتلك الشجاعة لأقتل نفسي، مع أنّ حياتي كلها لا تستحقّ أن تستمرّ. فلا حلّ لديك سوى أن تتحكّم بتصرّفاتك وقد غدوت أشبه بمجنون، تماسك وتصرّف بطبيعيّة، فلا خيار آخر أمامك.

وقف يوسف يلهثُ تحت شجرة الجوز الكبيرة في منتصف الطريق بين السوق والبلدة. كان كلّ جسده ينتفضُ، وركبتاه ما عادتا قادرتين على حمله، فجلس في ظلّ الشجرة. لا بدّ أنّ الساعة قد تجاوزت الرابعة، وأمامي ساعتان لأبدأ عملي، كان ينظرُ جهة النهر عندما مرّ رجلٌ وامرأة من أمامه وجلسا على الصخرة القريبة. كانت المرأة الجميلة لا تكترثُ لوجود الرجل قربها، وكأنّهما قد تخاصما للتوّ. ربّما لم يقدّم لها الرجل هديّة في عيد ميلادها، أو أنّهُ نسي أن يبدي إعجابهُ بتسريحتها الجديدة. أحداث يوميّة تصنع الوجه الحقيقيّ للحياة. نظرت المرأة جهة يوسف، فقام يوسف من فوره وتابع سيره. كان يتجنّب أيّ احتمال للحديث مع الآخرين. مشى قليلًا وجلس على ضفة النهر. لم يفض النهر بعدُ، ولا شكّ أنّهُ سيفيض غزيرًا هذا الربيع،

فهناك من أخبره أن الثلج في الجبال يصل لقامة إنسان.

لكني ربما لن أرى فيضان النهر هذا العام، ربما أكون خلف القضبان، أو معلقًا بحبل مشنقة. نعم، لن ترى فيضان النهر إن أنت بقيت أحمق هكذا. أنّى اتّجهت تجذب الأنظار نحوك. اسمع، لمَ لا تصرخ هنا وتقول إنك القاتل، وتأخذ السلطات لثريهم الجثّة حتى قبل أن يكتشفوها. تماسك يا رجل. ثم ما بالك تتسكّعُ هنا وهناك كالمشرّدين، وتنظر إلى النساء الجميلات. قم واذهب إلى عملك، وإن سألك الحارس عن سبب قدومك باكرًا، قل لهُ إنّ متجر الأحذية كان مغلقًا، وإنّك لن تذهب إلى بيتك، فالطريق طويل. هيّا قم واذهب إلى عملك.

لكنّ يوسف بقي جالسًا ينظرُ إلى المياه الأزليّة، كان تيّار الماء يشكّل دوّامات على امتداد الضفّة التي تدور فيها الأغصان والأوراق في رقصة عشوائيّة. التقطَ يوسف غصنًا ونظر إليه، كان الغصن أخضر، ولا بدّ أنه انفصل عن الشجرة الأمّ منذ فترة قريبة. غرز الغُصن في التراب، وقال يخاطبهُ: أيّها الغُصنُ، إنّك تستحقّ الحياة التي لا أستحقّها أنا، فهل من العدل أن تموتَ أنت وأنجو أنا؟! التفت يوسف حولهُ؛ وعندما تأكّد أنْ لا أحد ينظرُ إليه، قام ومشى على ضفّة النهر. كانت قوارب الصيد تستعدّ لرحلتها الليليّة. يذكرُ أنّهُ حين كان صغيرًا، أخذه أحد أقاربهُ في رحلة صيد ليليّة كهذه. وقال لهُ، وهم في عرض النهر، إنّه على الضفّة الأخرى

تقع الطريق إلى مدن الشمال. هناك حيث كلّ شيء جميل. وبعد تلك المدن، يأتي البحرُ الكبير، ثم يأتي خلفة دولٌ يحيا فيها الإنسان كتلك القصص التي ترويها الجدات عن مدن مسحورة. حين عاد يوسف إلى بيته، نام ليلتهُ وهو يحلم بتلك المدن. وأصبح هاجسهُ أن يترك كلّ شيء خلفهُ ويسافر، أن يترك خلفهُ اسمهُ وماضيه وكلّ انتماء يربطهُ بهذه الأرض. حاول كثيرًا، لكنّه كان دائمًا يفشل. كان صباه خليطًا من العمل والغبار والخبز الأسود.

٣

دار يوسف حول المدرسة، واتّجه غربًا على الطريق الترابيّة. سار لفترة قبل أن تظهر ظلال القبور في الشمس المائلة نحو الغرب. كان غروبًا شتائيًا باردًا والغيم يملأ نصف السماء. حين نظر يوسفُ نحو مزارع الذرة على يمين الطريق، واشتمّ رائحتها الذكيّة، تذكّر أنّهُ لم يأكل شيئًا منذ مساء الأمس. سيأكل شيئًا يسدّ رمقه، فقد ترك رغيف خبز وبعض حبّات من الزيتون هنا بالأمس.

ظهرت البوّابة أمامهُ. كانتْ تحجبُ خلفها أشجار الكينا، التي تطاول بعض أغصانها وتدلى إلى الجهة الأخرى. لطالما اعتقد يوسف أنّ هذه البوّابة تصلحُ لقصر كبير، أو ربّما معبد، أكثر من كونها بوّابة لمقبرة. الزخارف البيزنطيّة التي تتوسّط القوس، وهذان الأسدان الرابضان على الجانبين تصبغُ عليها مسحة ملكيّة. ثم التصاقها بهذا السور المتهالك، الذي فقد في غير موضع أجزاء كبيرة منه، كان يكمل المشهد العبثي المتناقض.

دفع البوّابة، فأحدثت صريرًا عاليًا كافيًا ليوقظ مدينة نائمة. كان كلّما دفع البوّابة، يشعرُ بالذنب. يشعرُ أنّهُ يقضّ مضجع الموتى في استراحتهم الأبديّة، وينتهكُ هدوءهم السرمدي. سيعتذر منهم ليلًا على طريقته، كما اعتاد دائمًا، وسيغفرون لهُ.

دخل ممرًا بين صفّين من أشجار الكينا، ينتهي بثلاث

درجات حجريّة يمينًا، ويتابعُ نحو القبور منبسطًا في الجهة اليسرى. صعد الدرجات ودفع الباب. كان الحارس جالسًا خلف طاولتهُ يشرب كأسًا من الشاي. جئت باكرًا هذا المساء، والساعة لُم تتجاوز الخامسة بعدُ. مررتُ بسوق البلدة، كنت أريد أن أصلح حذائي، لكنّ المتجر كان مغلقًا. قال يوسف، وجلس على الكرسيّ جانب الطاولة الخشبيّة التي تغيّر لونها مع الزمن فأضحت سوداء. تلك الطاولة القديمة التي كانوا يستخدمونها كمكتب. فيما كانوايحفظون الوثائق من شهادات وفاة وتصاريح دفن في خزانة تلتصق بالجدار المقابل. النافذة الوحيدة في الغرفة كانت تنفتحُ على فناء القبور مباشرة. إن كنت تريدُ أن تقتصّ من أجري الشهريّ بعض النقود لقدومك باكرًا، فلن يكون لك هذا. فزوجتّي تريدُ ثوبًا جديدًا هذا الشتاء، وأنت أعلم الناس بزوجتي. لم أفكر بهذا مطلقًا، يجيبه يوسف وهو غائب تمامًا.

بقي الحارس يثرثر ويوسف في عالم آخَر. أراد أن يسأل الحارس إن كان هناك أيّ دفن هذا اليوم، عله يعرف شيئًا عن جريمتهُ التي ارتكبها قبل ساعات.

ماذا ستفعل؟ أتسأله إن كان أحدهم قد مات اليوم؟ بقي أن تسأله إن كانت السلطات قد اكتشفت جريمة وقعت اليوم على الطريق بين البلدة والسوق. لكنّ كيف سأعرف إن تمّ اكتشاف الجريمة! ليس مهمًا أن تعرف، المهمّ الآن أن تغلق فمك ولا تفتحهُ إلّا للضرورة القصوى.

الحارس يثرثر ويوسف غارقٌ في صمته. هناك من يطرق البوّابة - يقول الحارس - هل أغلقتها خلفك؟ يوسف لا يبدي أيّ حركة، وهو متجمّد في مكانه كحجر. اذهب لترى من يأتي في هذه الساعة، يتابع الحارس.

لكنّ يوسف في عالم آخر، لم يعد لديه أدنى شكّ أنّهم قادمون ليقتادوه إلى سجن البلدة. لا بدّ أنّ أحدهم رآه وهو يقتل الرجل، وأخبر السلطات عنه. كان قد سمع الكثير عن سجن البلدة. غرفة لا تتجاوز مساحتها العشرة أمتار، يحشرون فيها أحيانًا أكثر من خمسين رجلًا. ناهيك عن التعذيب. يقول من زار السجن، إنّ المرحاض فيه عبارة عن امتداد داخل الجدار بمساحة متر واحد لا باب له. أي أنّ من سيدخل المرحاض، وهو أمر طبيعيّ لمن سيمكث هناك يومًا في الحدّ الأدنى سيشارك الجميع عريَهُ، وسيرى الجميع عراةً. لا لن يدعهم يقتادونه إلى السجن. سيهرب من الباب الخلفيّ الملتصق بالمستودع الصغير، ويستدير يمينًا ثم يدخل في حقل الذرة. وحتى وإن طاردوه ستكون فرصتهم صغيرة في القبض عليه. سيركضُ حتى النهر، ومن هناك سيقطعُ المياه عند النقطة التي يكون فيها النهر في عرضه الأصغر. ثم سيتابع راكضًا جهة الشمال، فإن أطلقوا النار عليه وقتلوه، فهذه النهاية تبقى أفضل بمراحل من أيام في سجن البلدة. كان الحارس ما زال يوجّه حديثه إلى يوسف، وقد استقام وذهب ليفتح البوّابة. بدأ يوسف يقدّر الخطواتَ حتى الباب الخلفيّ

وقد همّ واقفا. عد إلى مكانك أيّها المغفل قبل أن تهرب وتشي بنفسك مرّة واحدة، انظر من النافذة لترى من القادم. يتراجع يوسف، يفكر قليلًا ثم يعود ينظرُ من النافذة جهة البوّابة.

القادمون كانوا كثرًا، تتقدّمهم ثلاث نساء. لم يسمع يوسف من قبل أنّ في شرطة البلدة نساء. ثم إنّ القادمين في الخلف يحملون شيئًا. أمعن النظر في القادمين وفَهِم كلّ شيء، الرجال يحملون تابوتًا والنسوة متشحات بالسواد، إنّها جنازة. لكنْ من يدفن موتاه في هذه الساعة. وما علاقتك أنت فيمن يدفن موتاه الساعة؟ اذهب واجلس مكانك، وتصرّف كأنّك غَير منتبه. لكنْ ماذا لو كان الميّت هو ذاك القتيل، وأن عليّ أن أدقق في الأوراق وشهادة الوفاة ثم أنظرُ في وجه الميّت، لأطابق الصورة في الشهادة مع صورة الميّت في الحقيقة، صورتهُ فيّ التابوت. ستطابق كلّ شيء كما فعلت مئات المرّات، وستدقق الأوراق ككلّ مرّة وستصمت. نسيت أن أخبرك بأمر الجنازة المتأخّرة اليوم، لا بدّ أنّك رأيت القبر المحفور حديثًا عند دخولك. يا إلهي! لا بدّ أني تقدّمت في السنّ وبدأت أنسى الأشياء، يقول الحارس عائدًا إلى الغرفة. لكنّ يوسف لم ينتبه للقبر المحفور حديثًا. فقد صعد الدرجات الثلاث عند قدومه دون أن يلقي أيّة نظرة جهة القبور. لا عليك، يجيبهُ يوسف.

يضع الحارس شهادة الوفاة على الطاولة الخشبيّة،

ويلتفت نحو الخزانة ليخرج السجل كي يعطي الشهادة رقما ويسجلها. يكفي يوسف التفاتة صغيرة نحو اليمين ليرى الورقة، وكلما التفت قليلًا كان ثمّة ما يمنعهُ، يقذفه نحو الجهة الأخرى. ماذا لو كان الميّت المُعدّ للدفن هو ذاك القتيل. لا، هذا مستحيل. فالرجل مات منذ ثلاث ساعات على الأكثر، وهو وقت قصير لتحضير كلّ شيء للدفن. ثم ذاك القتيل التعس كان فقيرًا، وهذا الميّت يبدو عليه يسر الحال من هيئة مشيّعيه.

أخيرًا، التفت يوسَف نحو الورقة ورآها، ذهب نظره مباشرة إلى صورة الميّت، وكلما أطال النظر في الصورة انفتحت عيناهُ على اتساعهما. لا بدّ أنّ عقلي بدأ يصوّر ليّ أشياءً غير حقيقيّة. يفكر، ونظره معلقٌ في الصورة، وحياته كلها معلقة بالصورة. ويُدرك يوسف في لحظات أنّ قدرهُ الآن كيفما كان وكيفما سيغدو، فهو معلقٌ بخيط خفيّ بتلك الصورة.

الميّت من بلدتنا، لكنّهُ يعيش في المدينة الكبيرة منذ زمن بعيد، هو تاجرٌ ثريّ. مات هذا الصباح في المشفى إثر أزمة قلبيّة، يقول الحارس، ويعودُ بالسجلّ ويبدأ ينقلُ البيانات. ينظرُ في الشهادة وفي الصورة ولا شيء آخر. يثرثر كعادته، ويقصّ على يوسف كيف أنّ جارهم البارحة ضرب زوجتهُ فتركت المنزل. الحارس لا ينتبه للصورة، يفكر يوسف، فإمّا أني فقدت عقلي ولم أعد قادرًا على التمييز والرؤيا، وإمّا هي يدُ السماء من فعلت هذا.

انتهى الحارس من توضيب الأوراق، وقال مخاطبًا يوسف: تعال معي. الآن سنفتح النعش للتأكّد. اعذرني، فإني متعبٌ بعض الشيء. اذهب أنت، وأنا سأسجل تصريح الدفن.

يخرجُ الحارس، ويوسف غارق في عالمهِ، يريد أن يرى الجثّة. لكنّهُ إن كان يخشى هنا عيني الحارس فقط، ففي الخارج أعين المشيّعين الكثيرة. يدنو من النافذة وينظر: كانوا يفتحون التابوت. أدرك من مكانه هذا أنّه لن يرى شيئًا، عليه أن يرى وجه الميّت بأيّ ثمن. عاد يوسف وجلس على الكرسيّ للحظات، ثم فتح الباب وخرج.

كان أهل الميّت مشغولين بمواساة امرأة يبدو أنّها الزوجة. حاول يوسف أن ينظر نحو الأرض، فلا يراه أحد بشكل كامل، ثم تقدّم وأدار ظهره للمشيّعين ونظر إلى الجثّة. نظرة واحدة، وعرف أنّ عينيه لم تخوناه بل هي يد السماء. سمع يوسف أحدهم يقول للمرأة الباكية، ستنامين عندنا الليلة، لن ندعك تعودين إلى المدينة هذا المساء. تمانعُ المرأة في البداية، ثم تقبل عرض الرجلوعندما التفت يوسف ليعود إلى الداخل، التقت عيناه بعيني المرأة.

عاد بسرعة إلى الغرفة وجلس على الكرسيّ. عائلة الميّت ستبيت ليلتها في البلدة، يفكر يوسف، ويتصبّبُ عرقًا، فيفتح قميصهُ قليلًا. يتناول كأس الماء الموجود على الطاولة، ويشرب. كان طعم الماء حامضًا. لا بدّ أنّهُ

هناك منذ زمن طويل. وضع الكأس في مكانه، وضغط بيده الأخرى فوق معدتهِ، كان لطعم الماء السيّئ في معدته الفارغة أثر النار في كوم قشّ. جاهد يوسف كثيرًا كي يخفي اضطرابه، والأفْكارَ تمرّ برأسه مسرعة كشهبٍ تعبرُ سماء المجرّة. كان يدرك أن ما هو مقدم عليه مختلف جدا، وخطير جدا، ولكنه كان يدرك أكثر أن لا خيار آخر لديه.

سيدفنون الميّت الآن، وسيأتي ظهر الغد بعض العمّال ليبنُوا صرحًا رخاميًا فوق القبر. حتى في الموت هناك غنيّ وفقير، علق الحارسُ وهو يعود للغرفة. يوسف بقي صامتًا. مدّ الحارس يده، والتقط شهادة الوفاة وهمّ بالخروج مجدّدًا. أحسّ يوسف بالرعب، ثم سأل الحارس عن السبب الذي دفعهُ ليأخذ الورقة مرّة أخرى.

نظر الحارس في عيني يوسف مستغربًا. إنّها المرّة الأولى التي يحسّ بها يوسف بعيني الحارس تعرّيانه. كانا قد عملا سويّة لأكثر من عشر سنين، وطالت أحاديثهما فيها كلّ شيء: الله والتاريخ والنساء. كان الحارس طيّب القلب، تعس الحظ كيوسف.

ألن نحتفظ بهذه الشهادة، كعادتنا، ثم نرسلها بعد ذلك إلى دار المحفوظات في البلديّة؟ يضيفُ يوسف. يقولون إنّهم في دوّامة الحزن والمفاجأة، قد فاتهم استخراج صورة طبق الأصل عنها، وهي الأهمّ من أجل حصر الإرث فيما بعد. سيعودون بها مع العمّال.

فالورقة لن تبقى مع يوسف هذه الليلة. يكادُ يوسفُ

يخرج عن طوره، يريد أن يصرخ في وجه الحارس، قل لهم إني أحتاج الورقة هذه الليلة، وبدونها أنا هالك لا محالة. قل لهم أن يستخرجوا نسخة أخرى عنها، أو فليأخذوها في الصباح إن شاؤوا. قل لهم أي شيء، لكن دع الورقة معي هذه الليلة. كانت الورقة كقارب نجاة، ثم ثقبَ في العمق.

كان يوسف يحتاجُ فقط أن ينظر إلى خانة واحدة في الورقة. كانت الورقة أمامه عندما كان الحارس في الخارج. كيف لم ينظر إليها! والآن إن تفحّص الورقة لربّما أثار الشكّ في نفس الحارس، فيتفحصّها هو الآخر ويرى الصورة.

لم يعد أمام يوسف إلّا المغامرة، أن يقامر بكلّ شيء دفعة واحدة. فإمّا ينجو أو يلفت انتباه الحارس للورقة فيرى الصورة. يرى ما لم ينتبه إليه حتى اللحظة. لكنْ كيف سيأخذون شهادة دفَن معهم بعد أن دفنوا ميّتهم. لم نسمع بهذا أبدًا من قبل، لم أرَ شيئًا كهذا كلّ فترة عملي هنا، يدفع يوسف بورقته الأخيرة. هذا صحيح، لكن لا ضير في ذلك، يعيدونها في الصباح بعد أن يستخرجوا عنها نسخة، يقول الحارس مستغربًا قلق يوسف غير المبرّر. لكنْ، ما أدراك أنّهم يعيدون الشهادة عينها. أنت تقول إنّ الرجل ثريّ، من يضمن أنّهم لن يغيّروا شيئًا في البيانات من أجل الميراث.

ينظرُ الحارس في عيني يوسف مباشرة وللمرّة الثانية. يصمتُ قليلًا ثم يقول، معك حقّ. يبدو أنّه قد اقتنع

أخيرًا بضرورة الاحتفاظ بشهادة الوفاة. يعيد الحارس الورقة إلى الطاولة. سأخبرهم أنّ عليهم أن يستخرجوا صورةً جديدة عن شهادة الوفاة، فهذه الشهادة ستبقى هنا لتُرسل إلى دائرة المحفوظات في البلديّة فيما بعد.

يوسف يمسح العرق عن جبينه، وقد باتت أجزاء من قميصه مُبللة، ثم يشربُ قليلًا من الماء الحامضيّ. أأنت بخير؟ أراك تتصبّبُ عرقا وهذا شتاء.. أتحسّ بأيّ توعّك؟ يمكنني أن أسأل أحدهم أن يعمل بدلا عنك الليلة، يسألهُ الحارس. لا، أبدًا. إني بخير، لكنّي أكلتُ وجبة دسمة في السوق، لذا تراني أتصبّبُ عرقًا، يكذبُ يوسف. انتبه لطعام السوق. الغشّ يطالُ كلّ شيء.

يخرجُ الحارس من جديد، ويخبر المشيّعين بأمر شهادة الوفاة ويعود. حسنًا، سأغادر الآن، الساعة تجاوزت السادسة. وعندما ينتهون من الدفن سيخبرونك بتفاصيل العمل غدًا، الصرح الرخامي، يقول الحارس ساخرًا.

يوسف لا يريد أن يرى أهل الميّت، ليس عدلًا أن يخرّب أحد منهم كلّ شيء بكلمة.

قد بدأت تملّ صاحبك القديم يا رجل! يقول يوسف. ويأمل أن يستبقي الحارس معه حتى يصحب المشيّعين إلى البوّابة عند خُروجهم. الحارس لا يحتاج لأكثر من كلمة حتى يبقى، وهو يعلم أنّ ما ينتظرهُ في منزله من شكوى الفقر والهموم كثيرٌ جدًا. يسّحب كرسيّه ويجلس من جديد، ويبدأ يحدّث صديقه في أنّهُ

يفكرُ جديًا بإيجاد عمل آخر، متطلبات عائلتهُ لا تنتهي، وابنهُ البكر لم يبلغ بعدُ العمر الذي يدفع بهِ إلى العمل. لمَ لا تفكر بالسفر للعمل في الشمال. سترسل لعائلتكَ النقود تباعًا وتراهم كلّ عام. في الشمال، يا صديقي، يحيا الجسدُ وتموت الروح. يكفيني هنا أن أستيقظ صباحًا لأرى الشمس تمسخ مزارع القمح، وأرى الياسمينة في حديقة المنزل الفقير تمنحُ عطرها للريح دون مقابل. يكفيني كل صباح أن أشرب كأس شاي من يد زوجتي، وأبنائي ما زالوا في فراشهم نائمين، أرى وجوههم تحلم بغد أجمل. يكفيني يا يوسف كلّ صباح في السادسة والنصف أن أراك هنا وأجلس معك لنصف ساعة، أشرب فنجانا من القهوة، تعدّه أنتَ. ذاك يا يوسف لا يمكن أن تشتريه. هذه الأرضُ يا يوسفُ علمت الإنسان كيف يبذر القمح البرّي، فشكّل أوّل قرية زراعيّة في التاريخ. هذه الأرضُ علمت العالم، وأعطته كلّ شيء، حتى أفرغت كلّ ما في داخلها مع الزمن، غدت فارغة، فارغة من كلّ شيء.

تسقُط دمعة على خدّ يوسف. وهو يرغب أن يخبر صديقه الكثير الكثير ممّا يدور في نفسهِ الآن، لكنّهُ يصمت.

نادى الرجال على الحارس. خرج الحارس وعاد بعد قليل. لقد ذهبوا، سيأتي العمّال عند الظهر. لا تنسَ أن تحفظ الورقة في المصنّف بعد أن تسجّلها برقم في السجلّ، لنرسلها بعد أسبوع إلى دائرة المحفوظات.

سأذهب الآن، ليلة هادئة يا يوسف، أراك غدًا. ليلةٌ هادئة يا صديقي، سلامي للزوجة والأولاد، يجيبهُ يوسف.

كان يوسف يودّ أن يعانق صديقهُ، وقد أيقن أنّهُ لن يراهُ مرّة أخرى.

٤

وقف يوسف على المصطبة الإسمنتيّة، أمام غرفة الحارس، ونظر صوب المقبرة. كان قرص الشمس يختفي تدريجيًا خلف الجبل، وأسراب الطير تعود نحو أعشاشها في السهل. الشمس ترسمُ ظلالا خلف شواهد القبور، فتتلوّن التربة الحمراء بلون برتقاليّ شفّاف. إنّها ليليّة باردة.

تجري الأفكار في رأس يوسف كشلّال مياه، تتجمّع في حيّز ضيّق ثم تنفجرُ وتعودُ للانتشار. لا بدّ من الذهاب إلى المدينة الكبيرة والعودة الليلة، المسافة بين البلدة والمدينة تقارب الأربعين كيلومترًا. لا يمكنُ قطعها بدرّاجتهِ الهوائيّة القديمة، هذا مستحيل. ولا يمكنهُ أن يأخذ الدرّاجة الناريّة التي تعود لصديقه الحارس. لا يمكنهُ أن يطلبها منهُ، كيف يبرّر للحارس غيابه عن العمل، وكيف يبرّر الذهاب إلى المدينة بحدّ ذاته.

بدأ يوسف يفقد الأمل فيما سيقدم عليه. حسنًا، سأبقى هنا وسأتصرف بطبيعية. ربما لم يرني أحد أرتكب الجريمة، وربما لن تصل السلطات إليّ. لن يشكّ أحد بأنّ يوسف يقتل رجلًا، وإن اكتشفوا، فذاك قدري. أيّها الأموات، أشيروا عليّ بما أنا فاعل. ألستُ صديقكم القديم الذي يحرسكم ليلا، ويسقي الورد بين جنباتكم؟ ماذا أفعل؟

القبور صامتة كعادتها. تغيب الشمس تمامًا، ويهبّ النسيم البارد، فيشعر يوسف بالقشعريرة. كان قد علّق

معطفه في الداخل حين كان يتصبّب عرقًا، والآن يرتجف. دخل ليرتدي معطفه وأغلق الباب خلفه. ذهب وملأ الإبريق ببعض الماء ووضعهُ على السخّان. سأشرب بعض الشاي وآكل رغيف الخبز. اقترب يوسف من الخزانة ليخرج طعام الليلة الماضية. كانت شهادة الوفاة ما زالت في مكانها على الطاولة، التقطها وأطال النظر في صورة الميّت. لكنّهُ لا يستطيع أن يجزم بالأمر تمامًا، الصورة غير واضحة بما يكفي، وتلك النظرة السريعة على وجه الميّت وهو ممدّد في التابوت لم تكن كافية. ما زال لدى يوسف شكّ. وضع الورقة على الطاولة، واستدار ليفتح الخِزانة.

أيّتها السماء المُباركة، يصرخ يوسف، وقد رأى سلسلة مفاتيح صديقه معلقة في قفل الخزانة. لا بد أنّهُ حين فتح الخزانة صباحًا تركها هناك، ثم كان قدوم يوسف باكرًا إلى العمل قد أخلّ بنظام الحارس، فنسي مفاتيحه.

تناول يوسف سلسلة المفاتيح، وذهب نظره إلى ذاك المفتاح الصغير ذي الغطاء البلاستيكيّ الأسود. إنّهُ هناك، مفتاح الدرّاجة الناريّة. قلب يوسف يقرع كطبل. هي السماء من جعلت الحارس ينسى مفاتيحه، إنها المرة الأولى التي يفعلها.

يوسف ينتظر، ويتمنّى ألّا يعود صديقه ليأخذ المفاتيح. فكّر قليلًا ثم أخرج مفتاح الدرّاجة وفصله عن باقي المفاتيح، ووضعهُ في جيبه. الآن، لن تستطيع قوّةٌ

في الأرض أن توقف يوسف. فإن عاد صديقه سيأخذ المفاتيح، ولن ينتبه للمفتاح الصغير المفقود، فهو لن يستخدم الدرّاجة في مثل هذا الوقت.

إنّها السابعة والنصف مساءً. شرب يوسف كأسًا من الشاي وكسر الرغيف، الخبز بات قاسيًا ويوسف لا يبالي الآن. أكل نصف الرغيف بعد غمسه في الشاي مع بعض الزيتون. علّيه أن ينتظر قليلًا، سيحلّ الليل كاملًا في الثامنة، وستنامُ البلدة كلها ما بين الثامنة والنصف والتاسعة. الطريق بين البلدة القديمة والمدينة - على الدرّاجة الناريّة - لن يستغرق أكثر من ساعة للذهاب، ومثلها للإياب، وسيبقى في المدينة حوالى الساعتين. أي أنّهُ لو غادر البلدة في التاسعة، فلن يعود قبل الواحدة. الفلّاحون سيخرجون إلى حقولهم قرابة السادسة صباحًا أو أقلّ قليلًا، لديه فقط خمس ساعات ليغيّر قدره.

أخرج يوسف ورقة بيضاء ونسخ كلّ خانات شهادة الوفاة عليها، ووضعها في جيب معطفه. ثم أخذ الشهادة ووضعها في المصنّف الأسود وأقفل الخزانة. أخذ مفاتيح الحارس ووضعها على الطاولة. مهلًا، ماذا تفعل؟ ضع سلسلة المفاتيح في جيبك. وما حاجتي إليها، لقد أخذت مفتاح الدرّاجة الناريّة، وهذا كافٍ. وكيف ستُخرج الدرّاجّة الناريّة من باحة المنزل. يوسف لم يفكر في هذا. كان يعتقد أنه سيأخذ الدرّاجة لبضع ساعات، ويُعيدها.

لم يفكر في أنه ينتهك حرمة بيت الحارس. هذه جريمة أخرى. وما ستفعلهُ في النصف الأخير من الليل، أليس جريمة؟ لا تتحامق، ضع المفاتيح في جيبك. لكنْ، ربّما ترك الحارس درّاجته الناريّة أمام باب المنزل، فهو اعتاد على ذلك. وماذا إن غيّر عادتهُ الليلة، وأدخلها إلى باحة المنزل، عندها ستضطر أن تعود إلى هنا مرّة أخرى لتأخذ المفتاح، وتخسر وقتًا ثمينًا، وقتًا ربّما يكون هو الفصل بين النجاة والغرق. يجد يوسف أنّلا خيار أمامهُ. يأخذ سلسلة المفاتيح ويضعها في جيب معطفه.

يحسّ يوسف بثقل في صدره، كانت حياتهُ فيما مضى هادئة بسيطة، لا شيء مميّزٌ فيها. والآن بات قاتلًا. يوسف يشعر أنّ الهواء فُي الغرفة أصبح خانقًا، فيخرج نحو المصطبة مرّة أخرى. كان لون السماء قد تحوّل كليًا إلى الأزرق القاتم. نزل الدرجات الثلاث، وانعطف يسارًا نحو القبور. مشى حتى أصبح في منتصف المقبرة، وجلس على حافّة قبر.

أصدقائي الأموات، اعذروني إن أهملتُ في واجبي، أو إن سهوت عن سقاية الورود والأشجار بين جنباتكم يومًا. كنت أؤمن دومًا أنّ في هذه الأغصان بعضًا منكم، من أرواحكم وأطيافكم، فجذورها تلامسُ ترابًا كان في يوم من الأيّام أجسادكم. كنت أحبّكم دائمًا، فأنتم كالأطفال عند الولادة لا تستطيعون الكلام، لا تستطيعون التعبير عمّا يدور في أنفسكم. لكنْ، أخبروني أهناك حياة بعد الموت أم هو الفناء المُطلق؟ لطالمًا كان

هذا السؤال الذي أرّق البشريّة منذ طفولتها الأولى، يؤرّقني. أحقًا أنتم في نعيم وفي جحيم، أم أنّكم عدتم إلى الحياة في أرواح جديدة،

مختلفة ومتشابهة في الوقت نفسه، كأوراق الشجر في الخريف، تموت وتسقُط ثم تنحل وتمتصّها التربة.. ثم إذا حلّ الربيع مجدّدًا يدفعها النسغ في الأغصان، فتكون أوراقا من جديد، أوراقا تشبهُ الأوراق القديمة، لكنّها ليست هي، هي وليست هي في الوقت نفسه؟ سامحوني يا أصدقائي إن لم آتيكم بعد اليوم لأخبركم بقصصي الصغيرة، بأحلامي الصغيرة التي إن كانت قد تحقّقت يومًا لما اهتزّ عرش في السماء. لكنّي ربّما أعود إليكم يومًا، كعضو جديد في جوقة المنتظرين.

الدمعُ يبلّل وجه يوسف. فيمسح الدمع بيديه الخشنتين، ويودّع المكان الذي ربّما لن يراه بعد هذه الليلة. يعودُ يوسف إلى الغرفة. إنّها الثامنة مساءً، وعليه أن يغادر المكان قريبًا. أمامه ليلة بيضاء لن ينام فيها.

عليه أن يمرّ سريعًا إلى منزله. سيأخذ النقود القليلة التي كان يدّخرها ليشتري درّاجة ناريّة. كان يريد أن يشتري درّاجة ناريّة منذ زمن بعيد، لكنّهُ لم ينجح أبدًا في جمع المبلغ المطلوب. وسيأخذ شيئًا آخر أهمّ بكثير من النقود.

فتح الخزانَة مرّة أخرى، وأخرج المصباح الصغير الذي يعمل بالبطّاريّة، وسكينًا ومفكًا للبراغي. تأكّد أنّ بطّاريّة المصباح ما زالت في حال جيّد. وضع الأشياء كلها في

جيب معطفه. ترك المصباح الكهربائي مضاءً في الغرفة وخرج. ذهب إلى البوّابة وأغلقها، كما اعتاد كلّ ليلة، بالمفتاح. عاد في الممرّ المؤدّي إلى الغرفة، انعطف يسارًا وتابع طريقه بين القبور، حتى وصل إلى المكان الذي تهدم فيه السور منذ زمن بعيد. نظر خلفه، ثم خرج من المقبرة.

كانت رائحة حقول الذرة في الليل منعشة. خليطٌ من روائح التراب الرطب والنهر والذرة. مشى يوسف ملتفًا حول المقبرة، ثم انعطف يمينًا باتّجاه البلدة. كان يمشي بمحاذاة الحقول ليتجنّب أيّ عابر في هذا الليل. وصل إلى مفترق طرق، فإن ينعطف يمينًا سيصل إلى السوق، ويكمل طريقهُ إلى البلدة، في هذه الحالة، عليه أن يقطع البلدة تمامًا في منتصفها حتى يصل إلى منزله في الطرف الآخر. وتلك هي الطريق الأقصر. أو ينعطف يسارًا بمحاذاة النهر، ويدور حول البلّدة نصف دورة، وهي الطريق الأطول. لكنّهُ سيكون شبه متأكد أنّه لن يصادف أيّ إنسان. نظر في ساعته، وكانت الثامنة والربع، فانعطف يسارًا في محاذاة النهر.

ما أجمل النهر في الليل! يفكّر يوسف. ويرى قوارب الصيد بدأت رحلتها الليليّة. كان أحد القوارب يميل بزاوية على محوره بفعل ثقل الشبكة، شبكة الصيد العملاقة كانت تتدلى بدءًا من الساري والأشرعة حتى سطح الماء. لقد أضاؤوا في قمّة الساري فانوسًا ضخمًا ينيرُ دائرة كبيرة حول القارب. طيور الماء تدور حول

القارب وتنتظرُ هي الأخرى حظّها الذي قد يأتي متأخّرًا. ابتعد يوسف عن الضفّة قليلًا، فقد كانت بعض الأضواء قويّة لدرجة بات يخشى فيها أن يراه أحدهم. تابع يوسف طريقه وقد انفصل عن مسار النهر، وبدأ يلتفّ أكثر نحو اليسار. بدأت حقول الذرة تظهر من جديد في الظلمة الجزئيّة. وهو يتوقف ويبتعد عن الطريق كلما سمع صوتا.

حثّ يوسف الخُطى حتى يصل بسرعة. أخيرًا، بدأت بيوت البلدة تظهر وادعة في هذا الليل. كان القمر يعكس ضوءه الأبيض على جدران المنازل، فيخلق مساحات من الظلّ وأخرى من النور. وصل يوسف إلى شارع صغير فانعطف يمينًا. مرّ بعدّة بيوت صغيرة، ثم وصل إلى منزله.

أدار المفتاح في قفل الباب بهدوء، ودفع الباب قليلًا، فأصدر الباب صوتًا. توقّف قليلًا ثم دفعه دفعة أخرى حتى فتِحَ بزاوية حادّة تكفي أن يحشر يوسف نفسه وينزلق. دار حول باحة المنزل على رؤوس أصابعه. كان لا يريد لأحد أن يحسّ بعودته، فالتصق بجدار المطبخ لبعض الوقت حتى تأكّد أنّ السكون مطلق. دفع نافذة المطبخ التي تعطّل قفلها منذ زمن بعيد ولم يصلحها بعد، ثم قفز إلى المطبخأشعل مصباح البطّاريّة وتوجّه إلى خزانة المؤونة. رفع طرف الجريدة التي كانت تغطّي الرفّ وسحب من تحتها النقود، ثم أغلق الخزانة وذهب باتجاه باب المطبخ. عليه الآن أن يصل إلى

الحمّام، وهي المهمّة الصعبة. كان باب المطبخ مفتوحًا قليلًا فدفعه بهدوء وانسلّ خارجًا. مشى في الممرّ قليلًا، ووصل الحمّام. كان باب الحمّام مغلقًا، فدفعه برفق، لكنّ الباب أصدر صوتًا، فتوقّف يوسف عن الحركة. انتظر قليلًا حتى تأكّد أنّ المنزل ما زال غارقًا في الصمت، فدفع الباب ودخل. تناول من على المغسلة الصغيرة ماكينة الحلاقة، بعد أن حرّرها من شاحنها الكهربائي، ومن على الرفّ فوق المغسلة أخذ المقصّ.

عاد يوسف إلى المطبخ، ثم خرج من النافذة وأغلقها. وعندما وصل إلى الباب الخارجي، تجاوزه ثم أغلقهُ بهدوء. أحسّ يوسف في تلك اللحظة بشيء يمسّ أسفل قدميه، فتجمّد من الرعب. لم يقوَ للحظات على الالتفات ورؤية من هو خلفه، وعندما استجمع قواه والتفت، كانت قطّة تتمسّح في قدميه، فعرفها. انحنى وحملها. لا تصدري أيّ صوت، قال يوسف للقطّة، فلعقت القطّة يده.. لا طعام لديّ الآن ويجب أن أرحل. اذهبي الآن. ووضعها على الأرض من جديد. نظرت القطّة في عيني يوسف، وعندما رأت إصراره التفتت وذهبت. وداعًا يا صديقتي، لا وقت لديّ لأحضر لك من المطبخ شيئًا كعادتي، ستجدين ربّما شخصًا آخر يطعمكِ هذا الشتاء. فإنّ شتائي قد حان.

عاد يوسف باتّجاه الطريق خارج البلدة. عليه الآن أن يسير نحو الشرق قليلًا، ثم يدخل البلدة من جديد ليصل إلى منزل الحارس. نظر يوسف في ساعته

فوجدها الثامنة وخمسين دقيقة، سيصل في التاسعة إن سار كلّ شيء كما رسم لهُ. كانت المساحة على يسار الطريق جرداء مكشوفة تمامًا، فلا أشجار ولا مزروعات. مساحة اعتاد أطفال البلدة اللعب فيها. سار يوسف بسرعة حتى وصل إلى النقطة التي سينعطف فيها يمينًا، فانعطف ومرّ بعدّة بيوت ريفيّة حتى وصل إلى بيت الحارس. لقد عرف حتى قبل أن يصل أنّ الدرّاجة موجودة خارج سور المنزل، فتنفّس الصعداء. وقف في زاوية السور قليلًا، ونظر. كان الظلام يلفّ البيت، فانتظر قليلًا، وعندما تأكّد أن لا حركة في هذا الليل البهيم تقدم نحو الدراجة وحررها من مسندها. بدأ يدفع الدراجة بالاتجاه نفسه الذي جاء منه. إن ركب الدرّاجة وانطلق فسيختصر الكثير من الوقت، لكنّ صوت محرّك الدرّاجة سيكون كطلقة مدفع في هذا السكون. وصل يوسف إلى المنطقة الجرداء، فدخلها وهو يدفع الدرّاجة دفعًا، ويفكر إن هو توغّل قليلًا فيها، فسيصل إلى طريق محاذ لطريق النهر وهناك يمكنه ركوب الدرّاجة. وصل الطريق المحاذي فأخرج المفتاح، وشغّل الدرّاجة. يوسفلا يصدّق ما يجري، الدرّاجةُ لا تعمل.

أيّتها السماء، ما العمل الآن. يوسف وحيد في هذه البرّيّة كخارج عن القانون، قتل رجلًا هذا المساء وسرق درّاجة. ينظرُ حوله، فلا شيء إلا الخواء، أرضٌ ترابيّة جرداء وظلّ للقمر وجريمتان! كانت بعضُ أصوات الطيور تأتي من البعيد خافتةً، فتزيدُ المَشهد وحشة.

أسند يوسف الدرّاجة وجلس على الأرض. كان يفكر أنّهُ لو لم يخرج اليوم ليصلح حذاءه القديم، وانتظر حتى السادسة ليذهب إلى عمله لما حدث شيء. كان سيكون في غرفة الحراسة الآن يشرب الشاي، ويقرأ جريدة أو كتابًا. لكنّهُ هنا الآن معلقٌ كناقوس بين ضفّتين، تائهٌ شريد.

تمدّد يوسف على الأرض، فانكشفت قبّة السماء. السماء حبلى بالنجوم الليلة، وكلّ نجم يروي قصّتهُ. عندما كان يوسف صغيرًا، كان يحمل فراشه وينام على سطح المنزل. يقضي ساعات يراقب النجوم ويسأل نفسهُ السؤال الأصعب، السؤال الذي لم تجب عنه البشريّة ولن تجيب يومًا. ماذا يوجد بعد أن ينتهي الكون؟ ماذا هناك خلف الكون، وهل حقًا أن الزمن خطّيّ؟

هل يتبع الزمن طريقا مستقيما؟ بعض النجوم تبعد عنا مليارات السنين الضوئيّة. هذا فوق إدراكنا البشريّ، هذا ما بعد العقل، هذا مستحيل. لم تتمكّن البشريّة بعدُ من دراسة ظاهرة الزمن دراسة مقنعة. فما معنى أن عمر الأرض مليارات السنين، وعمر الإنسان بضع عشرات من السنين؟ لا بدّ أنّ الزمن دائريّ، أو حتى حلزونيّ، يسير في حلقات تصغر أو تكبر.

يدفع يوسف الدرّاجة عائدًا ليضعها أمام باب الحارس. لقد انهار كلّ شيء، وتلاشى ما خطّط له كفقّاعة صابون. سيعود إلى الغرفة في المقبرة، وينتظر ما سيأتي به

الغد. أراك تستسلم عند العقبة الأولى وتهدمُ كلّ شيء. وماذا في وسعي أن أفعل؟ افعل أيّ شيء، لكنْ لا تستسلم. قضيت حياتك كلها مشاهدًا للأحداث لا تشارك في صنعها، وحتى مصيرك أنت لم تقرّره بنفسك. اذهب عني هذه الساعة، فلست أريد أن أذكر شيئًا.

في منتصف الأرض الجرداء، بدأ يذكر ما قالهُ الحارس منذ فترة. فبعد أن أمسك الحارس ابنه البكر وهو يحاول أخذ الدرّاجة ليلًا، بدأ الحارس يحرّر سلك البطّاريّة حتى لا تعمل، وبالتاليلا يستطيع ابنه أخذها دون علمه. توقّف يوسف، وأسند الدرّاجة إلى مسندها، وبدأ يبحث عن البطّاريّة حتى وجدها. وجد السلك الأحمر منفصلًا عن قطب البطّاريّة، فحشرهُ يوسف وشدّهُ بيده الحرّة. ركب الدرّاجة، وقد أصبح كلّ كيانهِ في المفتاح. وعندما أدار المفتاح، أصدرت الدرّاجة صوتًا جعل يوسف ينتفض. نظر حوله، فلم يجد أيّ كائن حيّ في هذا الجزء من العالم. أيّتها السماء المباركة - صرخ يوسف - كوني معي ما بقي من الليل.

يوسف يقود الدراجة بسرعة جنونية. ينعطف عند مفترق الطرق، ويجتاز المقبرة، وفي نهاية الطريق، تظهر الطرّيق الإسفلتيّة المتّجهة نحو الغرب، طريق المدينة. يجب أن أخفف سرعتي، فأسوأ ما قد يحدث هو أن تستوقفني السلطات بداعي تجاوز السرعة المسموحة. الساعة تتجاوز التاسعة والنصف بدقائق.

الطريق شبه خالية، بعض الشاحنات فقط تمرّ بقرب

الدرّاجة وتتجاوزها مسرعة. أمّا في الاتّجاه العكسي المؤدّي إلى البلدة، فقد كانت الطريق خالية تمامًا. يوسف يعرف المدينة جيّدًا، ذهب إليها كثيرًا في الماضي. زار أطبّاء ومؤسّسات حكوميّة، وبحث عن عمل، بل وقد حاول الانتقال ليعيش فيها.

كانت السماء الصافية مزروعة بالنجوم، كسهل ربيعيّ انتشر فيه الزهر الأصفر. على جانبي الطريق، كانت مزارع البرتقال تلمع بثمارها تحت ضوء القمر. يقودُ يوسف الدرّاجة، ويفكر في الغد. الغدُ الذي عندما يأتي، سيكونُ يوسف بلا هويّة. سيحيا وهو غير موجود.

لاحت أضواء المدينة أمامهُ، وكلّما اقترب من المدينة أكثر أيقن أنّ المهمّة لن تكون سهلة. المدينة ما زالت مستيقظة عن آخرها، وحركة السير فيها لا تهدأ. هذه هي المدينة يا يوسف، وليست بلدة تنام في الثامنة والنصف وتستيقظ في الخامسة. يدخلُ يوسف شارعًا فرعيًا ويتوقّف تحت أحد المصابيح الصفراء. يخرج الورقة من جيب معطفه ويقرأ العنوانَ. المكان ليس بعيدًا يقول لنفسه، يعرفهُ جيّدًا، فقد دخله خطأً في إحدى زياراته للمدينة.

استدار مرة أخرى، وخرج من المدينة. المنزل يقع عند أطراف المدينة، في تلك المنطقة التي ينفصلُ فيها الفقر عن الغنى الفاحش.

دَخل شارعًا تحيطه الأشجار من الجانبين، وتوغّل فيه ثم توقف قليلًا. قرأ عن الورقة في جيبه، المنزل رقمَ

سبعة. تابع قليلًا، حتى التفت الطريق طبيعيًا فيما يشبهُ التلة، ثم عادت وانبسطت. المساحات على يسار الطريق تشبه الغابة، أو ربّما حقولًا من أشجار مثمرة. يدقق يوسف النظر، لكنّهُ في هذا الليل ليس متأكّدًا تمامًا. إنّهُ متأكّدٌ من شيء واحد هنا، وهو أنّه خلف الطريق يوجد ذاك الجبل الذي سمع عنهُ الكثير من القصص، قصص رواها كبار السنّ عن مزار في قمّة الجبل وقدراته العجائبيّة. سمع الكثير، لكنّهُ لم يصدّق شيئًا. يصل يوسف أمام المنزل رقم سبعة. كان يعتقدُ أنّ ما سيدخُله اللّيلة كاللصوص منزل عاديّ، لكنّهُ يقف الآن أمام قصرٍ، قصر بكل معنى الكلمة. كان أقرب منزل إلى القصر يبعدُ بضعة عشرات من الأمتار. المنازل هنا متباعدة عن بعضها بعض، لا تشبهُ في شيء أحياء الفقراء، حيث يلتصق البيت بالبيت.

أوقف محرّك الدرّاجة، ثم دار بها حول القصر حتى أصبح خلفهُ تمامًا، وضع الدرّاجة مستندة إلى سور القصر العالي. ابتعد متوغلًا جهة الجبل، ثم عاد ودار حول القصر مرّتين ينظرُ في السور وفي البوّابة.

هذا مستحيل. لا يمكنني الدخول، هذا ليس قصرًا بل قلعة منيعة.

كيف كانت الجيوش في القديم تحاصر المدن، فتخضعها؟! بعضُ الأبطال في قصص التاريخ كانوا يجدون ثغرًا أو طريقًا في السور، فيدخلون ويَفتحون الأبواب للجيش. لكنّ هذه المدينة القصر خالية من

السكان، وهو وحدهُ من يحاصرها. ما زال يذكر تلك القصّة المثيرة التي تصف حصار الجيش العثمانيّ لمدينة في أوروبا الشرقيّة ودخولها. حاصر الجيش المدينة لمدّة طويلة، فاستبسلت المدينة ولم تستسلم. حاول الجيش - كعادة الجيوش المُحاصرة - الوصول إلى الأقنية التيّ تغذي المدينة بمياه الشرب، ومجدّدًا لم يفلحوا في إيجادها. ظلوا يحاولون حتى جاء أحدهم وطرح الفكرة العبقريّة، وحقًا كانت عبقريّة. جاؤوا بحصان وبدأوا يطعمونهُ، لكنّ طعام الحصان لم يكن طبيعيًا. لقد أضافوا إلى الشوفان الذي كانوا يقدّمونهُ لهُ الكثير من الملح، ربّما نصف الكمّيّة أو أكثر. حين انتهى الحصان من الطعام وأراد الشرب، وهو أمر طبيعيّ، منعوا عنه الماء. ثم كرّروا العمليّة ليومين أو ثلاثة، حتى وصل ظمأ الحصانّ إلى السماء السابعة، فأطلقوهُ قرب أسوار المدينة. بدأ المعذبُ عطشًا يشتَمّ التراب في كل مكان حول القصر، في بحثه عن مياه جوفيّة، حتى وصل مكانًا بدأ يضرب فيها الأرض بحوافره. عرف قادة الجيش أنّ قناة الماء الداخلة إلى المدينة تمرّ من هناك، فحفروا وخرّبوها. استسلمت المدينة بعدها بأيّام. الحصان الذي قدّسه الجيش بعدها كان خرابًا على المدينة.

والآن، كيف السبيل إلى الداخل؟ السور يعلو أكثر من ثلّاثة أمتار، ومحاولة الدخول من البوّابة كمحاولة ثقب إسمنت مسلح بيد عارية. لا بد من طريقة، لا بد من

مكان يستطيع القفز فيه عن السور. وكلاب الحراسة هل نسيتها؟ قصرٌ كهذا لا بدّ أنّ فيه كلابًا بحجم الأسوَد. لم يفكر يوسف بهذا أيضًا، فالكلاب والسور والقصر بحد ذاتها أسئلة يحتاج الإجابة عليها بسرعة. ينظر في ساعتِه. إنّها العاشرة وأربعين دقيقة.

يلتقط يوسف حجرًا ويرميه بين السور والقصر، فلا يسمع أيّ صوت سوى صدى ارتطام الحجر بالأرضّ، لا كلاب هنا ثم يأخذ حجرًا آخر ويرميه، لا كلاب هنا، إلا إذا كانت الكلاب تقرأ ما يدور في فكري وتنتظرني حتى أقفز من فوق السور، ستتّفق الكلاب فيما بينها، ربّما! لا تصدروا أصواتًا حتى يقفز، وعندها سنمزّقهُ إربًا، سنلقنهُ درسًا حتى لا يتجرّأ على ممتلكات الآخرين مرّة أخرى.. كلّ شيء ممكن، فاعتقادنا أنّنا المخلوقات الوحيدة التي تحمل الذكاء فوق هذا الكوكب لهو الغباء عينه. حجر ثالث ولا شيء، القصرُ لا كلاب فيه، يقول يوسف متأمّلًا وما زال في نفسه شكّ.

يعودُ مجدّدًا خلف السور، ويلاحظ أنّ إحدى الأشجار العملاقة التي لم ينتبه لوجودها حتى اللحظة تكادُ نهاياتها تلامس قمّة السور. سيتسلق الشجرة وينحني نحو السور انطلاقًا من أحد الأغصان. الشيء الوحيد الذي لم يتأكّد منه هو هل سيحملهُ ذاك الغصن، أم سينكسر. لم يتردّد كثيرًا، وبدأ يتسلق الشجَرة. هي مهارة اكتسبها من طفولته في البلدة. عليه أن يحرص ألا يمزّق أيّ قطعة من ملابسه. فأيّ جرح في جسده لن

يكون مهمًا، ولكنّ تمزّقا في معطفهِ مثلًا سيكون كارثة. ببساطة، كان عليه أن يحافظ على ملابسه كما رآها الحارس عندما غادره في السابعة. وصل إلى الغصن المطلوب، فوقف عليه من جهة اتصاله بالشجرة وهي الجهة الآمنة. المسافة بين يوسف وقمّة السور الآن تقارب الثلاثة أمتار. سيتقدّم قليلا حتى النقطة التي تسبق منتصف الغصن بقليل ويقفز، ففي تلك النقطة سيكون احتمال انكسار الغصن عظيمًا. قفز يوسف وأمسك بيديه قمّة السور. كان السور مبنيًا من الآجر الخشن، ممّا جعل يوسَف يحسّ ألمًا عظيمًا في يديه، فكتم صرختهُ. ثقل يوسف كله معلق الآن بيديه. يجاهدُ لكي يجذب ثقل جسده نحو الأعلى، ثم يثني قدمهُ اليسرى حتى تصل القمّة، فيتّخذ منها نقطة استناد ثالثة ويسحب باقي جسده. يوازي بجسده أفق السور من الأعلى، ثم يدفع يديه فيصبح جالسًا على قمّة السور. خدوش فقط في يديه ولا دم يسيل.

كان ضوء القمر يكشف أجزاءً كبيرة من أرض الحديقة المحيطة بالقصر، أضاء مصباح البطّاريّة ليكتشف الأماكن المظلمة، كلّ شيء يبدو طبيعيًا ولا أثر للكلاب، استدار يوسف بجسدَه وبدأ ينزل السور ببطء. وقف في النقطة التي كانت يداه المعلقتان بحافّة السور تحملان جسده، قدّر المسافة بين قدميه وأرض الحديقة بنحو مترين، وقفز.

وجد نفسه حين وطِأت قدماه الأرض فوق مساحات

عشبيّة. التصق بالسور وأرهف السمع. بقي ساكنًا بلا حراك لأكثر من دقيقتين حتى تأكّد أنْ لا صوت ولا حركة، فجلس على العشب ونظر في ساعته. إنّها الحادية عشرة تمامًا. استقام وقد بدأت عيناه تعتادان ظلمة المكان، وبدأ بالسير جهة البوّابة الرئيسة للقصر، البوابة محكمة الإغلاق والدخول منها مستحيل. عاد إلى المكان نفسه. كانت النوافُذ عالية، حتى وإنْ قرّر كسر زجاج إحداها للدخول، فربّما تمزّق بقايا الزجاج العالق بالإطار ثيابه. ما العمل الآن يا يوسف؟ عليك أن تجد حلا بسرعة، فيجب أن تكون خارج القصر عند منتصف الليل، وهذا يعني أنّ أمامك ساعة واحدة لتدخل وتجد ما جئت من أجله ثم تخرج. يوسف يستدرك الآن أنّهُ لم يحسب خطّا للعودة، فإن كانت الشجرة ساعَدتهُ في القفز فوق السور، فكيف سيغادر القصر. حسنًا، سأفكر في هذا حين أنتهي.

يمرّ يوسف أمام درج خشبيّ في مؤخّرة القصر، يصعد الدرج، فتنبسط شرفة خشبيّة ملتصقة بجدار القصر الخلفيّ. يفصل بين الجدار والشرفة باب زجاجيّ بإطار من معدن. يقترب يوسف ويحاول فتحه فيجده مغلقًا. جلس على إحدى الكراسي الخشبيّة في الشرفة، ونظر حوله، فلم يجد أيّ ثغر في هذه القلعة الحصينة. فوق الطاولة الخشبيّة التي تتوسّط الشرفة، كان هناك صحن من الفاكهة، فانحنى يلتقطُ عنقود عنب، ورأى عندها أنّهُ في الجدار تحت الشرفة يوجد باب صغير. قفز يوسف،

ورمى العنقود ونزل الدرج الخشبيّ.

عليه أن ينحني حتى يمرّ تحت الشرفة الخشبيّة ليصل إلى الباب. تقدّم وأمسك بالباب ليفتحه، فوجده مغلقًا، لكنّهُ يتحرّك قليلًا، وأدرك أنّهُ مغلق من الداخل بما يشبه الظِفر، حين رأى أن لا قفل للباب بل ما يشبه البرغي. تناول من معطفه المفكّ وأدار البرغي، فانفتح الباب.

أيتها السماء المباركة، يتمتم يوسف ويدفع الباب، فتنقشع في الداخل ظلمة مطلقة. شغّل المصباح ودخل زاحفًا. وجد غرفة واطئة السقف، فيها شيء يشبه المرجل بشكل أسطوانة دائريّة، وجهاز عملاق لا بدّ أنهُ جهاز التدفئة المركزيّة أو ربّما التبريد. تقدّم يوسف أكثر، فأصبح السقف عاليًا ويمكنهُ معه الانتصاب واقفًا. مشى حتى وصل بابًا آخر، ففتحه، ووقف يسترق السمع لدقائق ثم دخل.

وجد نفسه في مساحة واسعة، فيها كراسٍ جلُديّة فاخرة، وبار صفّت فيه زجاجات كثيرة، وطاولة وكراسٍ أخرى دائريّة صغيرة. يوسف في قبو القصر. أحسّ يوسف بالخجل، فخلع حذاءه البالي حتى لا يترك أيّ أثر فوق تلك الأرض المرمريّة. كان يشغل المصباح ويطفئهُ تباعًا، فتغرق المساحة حوله بظلمة كثيفة. يسترق السمع للحظات، فلا أثر لصوت. السكون مطبق.. فيتابع مسيره.

ذهب باتّجاه الزجاجات المصفوفة، تناول واحدة

وفتحها. هل فقدت عقلك، تريد أن تتذوّق شراب الأغنياء الآن؟ دع الزجاجة واذهب إلى الطابق الأخير بسرعة. إنّها الحادية عشرة وعشر دقائق. خمسُ دقائق فقط، أشرب من هذا، وأتذوّق هذا الخبز ذا الرائحة الملائكيّة. بل لن تلمس شيئًا. أنسيت أنّك تحتاج وقتًا إضافيًا لتفكر في الخروج من هنا. يترك يوسف الزجاجة، ويتّجهُ نحو الدرج الرخاميّ اللامع.

صعد الدرج حتى وصل إلى باب، فدفعهُ. لم يصدر الباب أيّ صوت، بل انساب كمياه في جدول. هذه أبواب بيوت الأغنياء يا يوسف، أكنت تعتقد أن الباب سيصدر صريرا كباب بيتك القديم. هذا الباب يا يوسف ربّما تساوي قيمته كلّ ما أنفقت في حياتك، وما ستنفق.

الصالةُ هنا هائلة الحجم، هائلة بحيث لا يرى يوسف نهايتها، ربّما أكبر من دار البلديّة، ودار المحفوظات، بل ربّما أكبر من المقبرة عينها. صفّ من أرائك الجلد الفاخر من جهة اليمين؛ وتحف خشبيّة وعاجيّة ومعدنيّة فوق رفوف صغيرة؛ وسجّادٌ ملوّن، ذكّره بلوحات رآها في كتاب مصوّر عن حياة السويسريّ پول كلي؛ ثم مصابيح تتدلى من ثريّات طعّمت لا شكّ بالذهب. كلّ شيء يشي بالبذخ والثراء الفاحش. وفي مواجهة الأرائك شاشة عرضٍ عملاقة تشبه تلك السينما في المدينة، حيث شاهد مرّة وحيدة فيلمًا تاريخيًا. يذكرُ يوسف أنّهُ في نهاية الفيلم بكى، في تلك اللحظة التي تمرّ المرأة بزوجها وهو معلق على صليب في الطريق إلى روما.

بكى يوسف سبارتكوس المصلوب.

الجدار الذي يحمل شاشة العرض يتابع منعطفًا بزاوية قائمة نحو الخارج، ثم يعود يوازي الجدار المقابل، فتنفتح الصالة عن آخرها. كان يوسف يلمس الأرض بأطراف أصابعه، يمشي كمن يمشي على الشوك هادئًا حذرًا. يلمحُ في الجدار الأبعد عن الباب الذي دخلهُ صورة فوتوغرافيّة كبيرة، بإطار من الخشب الفاتح أو ربّما العاج. يقترب ويسلطُ ضوء المصباح تمامًا على الصورة. التاجرُ الميّت يجلس على كرسيّ من كراسي الشاطئ، وخلفه ينفتحُ البحر على المشهد كله. على الجهة اليسرى، تقفُ امرأةٌ هيفاء بضّة في لباس البحر، تنظرُ في العدسة مبتسمة. في الزاوية الأعمق لالتقاء شفتيها ببعضهما، يظهر ما يشبه الشامة الصغيرة، تزيدُ في سحر المرأة الحسناء وسطوتها. يقترب يوسف من الصورة أكثر، حتى تكاد تصبح المسافة بين عينيه وزجاج اللوحة معدومة. يمكن أن تكون تلك البقعة أسفل شفة المرأة نقطة لون زائدة، تعود لنوعيّة الصورة السيّئة، يفكر يوسف. أو أنّ انعكاس المصباح فوق الزجاج هو من رسمها، ويمكن أنّ تكون حقًا موجودة. يوسفّ ينظرُ في وجه المرأة طويلًا. كان كلما أراد أن يمسحَ الصورة كلها بنظره تذهبُ عيناه لاإراديًا نحو النقطة السوداء أسفل الشفتين.

ماذا تفعل بحقّ السماء؟ لقد سرقت درّاجة الحارس، ودخلت القصر كاللصوص، فقط لترى صورة الميّت غير

واضحة المعالم في شهادة الوفاة! أتيت ترى صوره التي قد تجدها هنا، وإذ بك تُطيل النظر في صورة زوجته، وتتحرّى إن كانت النقطة تحت شفتها شامة حقًا أم ظلّ لون. انظر في صورة الرجل الميّت، صورتك. الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف يا يوسف.

ينظرُ إلى التاجر المسترخي على كرسيّ بحر. الميّت هنا بلحية كما الميّت في التابوت، ويوسفُ يريد أن يرى وجه الميّت حليقًا. لكن ربّما الرجلُ قضى عمره كله بلحية هكذا، أو أنّهُ حين كان يحلقها لم يلتقط لهُ أحدٌ أيّ صورة. لكن هذا مثيرٌ، نعم هذا مثير جدًا. كان يوسف يجلس على الكرسيّ وخلفهُ المرأة. ينتبهُ يوسف أيضًا أنّ الرجل الجالس لا يظهر بطوله الكامل وهي مشكلة جديدة. يمكن تقدير طوله، لكنّ الخطأ وارد جدًا بعشرة سنتيمترات، أكثر أو أقلّ. المرأة لا بدّ هي عينها التي كانت متشحة بالسواد في المقبرة هذا المساء، حين رآها بنظرة عابرة. يمكنهُ أن يقدر طولها، فهي تقصره بعشرة سنتيمترات أو أكثر. لكنّ الرجل في التابوت كان يبدو أطول منهُ، أطول من يوسف أو هكذا تراءى لهُ. اصعد يا هذا إلى الطابق الأخير، هناك ستجد غُرف النوم والخزائن، هناك يحتفظ البشر بصورهم فوق الجدران، وفي مصنّفات فاخرة.

الدرجُ الصاعد نحو الطابق الأخير كان عريضًا جدًا، تتوسّط درجاته سجّادة فاخرة ويستقيمُ على الجانبين درابزين معدنيّ فاخر. يصعد يوسف ببطء حتى يصل

نهاية الدرج، فينفتح ممرّان على الجانبين، وآخر باتجاه العمق يسلكُهُ يوسف. كان الممرّ مزدانًا بشمعدانات نحاسيّة تشبهُ تلك التي تزيّن المعابد، تلك التي يحرقُ فيها الشمع للإله. وصل نهاية الممرّ، حيث انتصبَ باب خشبيّ زيّنتهُ نقوشٌ ملِئ بعضها على ما يبدو بالنحاس. البابُ يصرخُ في الظلام، يشي بنفسهِ الملكيّة. هذا لا بدّ باب غرفة النوم الكبرى للزوجين. يدير قبضة الباب، ويدفعهُ قليلًا، الغرفةُ مضاءةٌ جزئيًا بضوء القمر الذي عبر زجاج النافذة. يخطو يوسف خطوتين، ويقف ليغلق الباب. الغرفةُ الملكيّة ملكيّةٌ حقًا، والسرير الوثير الذي يتوسّط الغرفة يشبهُ الأسرّة في قصص ألف ليلة وليلة. ترتفع عوارض السرير الخشبيّ عاليًا، ثم تنحني لتلتقي في دائرة كبيرة يعلّوها كرة زجاجيّة لمّاعة. لقد دخلت مخدع هارون الرشيد، يفكر يوسف. تهبّ ريحٌ فتتمايل الستائر البيضاء الشفّافة. لقد نسي أحدهم النافذة مفتوحة.. سأترك كلّ شيء كما كان حتى لا ينتبه أحد لمروري من هنا، قال يوسف وترك النافذة مفتوحة.

ذهب يوسف مباشرة إلى الخزائن يفتحها تباعا، ثياب فاخرة وحليّ ومعاطف من كلّ الأنواع. الحياة ليست عادلة، فما في هذه الخزانة وحدها كافٍ لإطعام آلاف الجياع! توقف عن التفكير بمثاليّة أشبه ما تكون بالحمق، وتابع البحث. يستدير ليذهب نحو الخزانة في الطرف الآخر، فتستوقفهُ صورة على الجدار.

هذه الصورة.. يبدو أنّها أحدث من مثيلتها على البحر.

الزوج الميّت يقف بجانب زوجته في ساحة مكشوفة، لا بدّ أنّها في إحدى مدن الشمال. تصطفّ خلفهُما طيور الحمام بالمئات. الزوجُ يضع يدهُ حول خصر الزوجة، وهي تنظرُ جانبيًا نحو الطيور. النقطة السوداء أسفل التقاء شفتيها موجودة هنا أيضًا، فلا بدّ أنّها حقيقيّة.

سحرتهُ المرأة وتلك البقعة السوداء الصغيرة تحت شفتها، حتى إنّهُ يكاد ينسى سبب دخوله القصر، فيبدأ في البحث عن المرأة.

الرجلُ أطول من زوجته بما يقارب الخمسة عشر سنتيمترًا، فالرجل أطول من يوسف ربّما بخمسة سنتيمترات، وربّما أقلّ. ينظر في الصورة بعد أن اقترب منها كثيرًا، يرى أنّ الميّت هنا حليقًا لا لحية لهُ. تأمّل الصورة طويلًا، ثم قال هذا يكفي، لقد انقضى الأمر. همّ بالخروج، لكنّه تراجع وفتح الخزانة في الطرف الآخر، وكما في الخزانة الأولى وجد هنا، الملابس والحليّ والمعاطف.. لكنّهُ انتبه إلّى بعض الدفاتر على الرفّ العلويّ، فسحب أحدها. واكتشف أنها ليست دفاتر بل ألبومات صور.

بدأ يوسف يقلب الصفحات، فيرى صورا من كل مكان وبأزمنة مختلفة، ثم مرّ بالصورة الكبيرة نفسها في غرفة النوم، الزوجين وخلفهّما الحمام في الساحة. وانتبه يوسف من التاريخ أسفل الصورة أنها حديثة نسبيًا، فقد مرّ عليها أكثر من عام بقليل. أعاد الألبوم إلى مكانه، وأغلق الخزانة وهمّ بالخروج. مرّ بقرب السرير

الملكيّ، فوجد أنّ أغطية السرير والوسائد كانت تغرق في فوضى عارمة. لا بدّ أنّهم قضوا ليلة حمراء قبل أن تنهي الأزمة القلبيّة حياة الثريّ. اقترب يوسف وحاول أن يحدّد مكان المرأة في السرير، أين كانت تنام في لياليها. ثم قرّر أنّها كانت تنام من جهة نافذة القمر، فوجهها الجميل يشي بأنّها كانت تحبّ القمر والليل، وربّما الوحدة.

اقترب يوسف من السرير، وتمدّد في مكان نوم المرأة المفترض، ثم دفن وجهه في وسادتها وأغمض عينيه. أحسّ بألم في معدتهِ، شيء يشبه رمحًا معدنيًا سخن حتى الدرجة الحمراء يخترق جنبه من الحافّة إلى الحافّة، رمحًا كذاك الذي طعنوا به الأنبياء وهم يحتضرون. يوسف يشتمّ رائحة عطر نسائيّ خفيف. هذه رائحتها، يقول يوسف، ويغمض عينيه مجدّدًا، فيزداد الألّم، حتى غدا غير قادر على الحركة. هذا الألم كان يعاوده كلما أحسّ أنّه سيرحل عن هذه الحياة، من دون أن يترك أيّ أثر. ما رأيك أن تنام هنا حتى الصباح، أو ربّما حتى الظهيرة حين يعود المشيّعون ويجدونك هنا. بل ربّما تأخذ حمّامًا ساخنًا قبل أن تنام. قم يا رجل. لقد بدأت تفقد عقلك حقًا. لكني لن أرى كلّ يوم شيئًا كهذا، أفلا أمتلكهُ للحظات؟ نعم، لكنّك تقبض على السراب الذي سيختفي ما إن تفتح يديك. قم يا يوسف، احمل قدَرَك وامشِ. إنّها الحادية عشرة وخمسين دقيقة، فعليك أن تغادر المدينة في عشر دقائق. نهض

يوسف، واتّجه نحو الباب. رأى ثوب المرأة الأحمر الفاقع مرميًا قرب خزانة مستطيلة تعلوها مرآة بيضويّة، فتناولهُ. أمسكهُ بيديه من الشريطين المخمليّين اللذين كانا يلامسان كتفيها بالأمس، ورفعه عن الأرض فانتصب الثوب واقفًا، لا ينقُصهُ إلّا جسد المرأة لتعود إليه الحياة. أدار الثوب وكأنّ المرأة تهمّ بالخروج من الغرفة، ثم أعادها تقفُ أمامه وتنظر في عينيه. فقال لها، لا تخشي شيئًا، فحتى في محاولاتي أن أكون شرّيرًا كنتُ أفشل. دعَكَ الثوب بيديهِ واشتمّ الرائحة، رائحة العطر الخفيف ذهبت نحو معدته مرّة أخرى، فانحنى يضغطُ معدته بيديه ويتصبّب عرقًا. هذا الألم تطهيرٌ ذاتيّ لحياتي، غسلٌ للطين العالق في جسدي منذ اللحظة الأولى للتكوين. لا يا يوسف. هذا ليس تطهيرًا بل ندمًا. هذا الألم يا يوسف تكفير عن خطايا لم ترتكبها، تكفيرٌ عن حيوات لم تقطفها، تكفيرٌ هذا يا يوسفُ عن حياتك المرسومة منذ بدايتها ولم تغتصبها.

رمى ثوب المَرأة، وقد أحسّ بخيط من حمضٍ حارق يطفو في معدته، ثم يتسلق حتى فمه وعينيه. كانت ثياب الرجل مرميّة، ليست بعيدة عن فستان الزوجة. مدّ يده وتناول القميص الأزرق الفاتح، قميص فاخر لا بدّ أنّهُ يساوي ثروة، ثم رماه وتناول سترة البدلة الرسميّة. مدّ يده في الجيب الأوّل، فوجد مبلغًا ضخمًا من المال. يوسف لم يرَ أو يلمس مبلغًا كهذا في حياته، فإن أخذه فلن يعلم أحد إن كان الميّت يحمل النقود أم

لا. يوسف ينظرُ في النقود. خذها ستكون ذات نفع عظيم في صباح الغد. لا، لن آخذها. لقد دخلت القصر لأرى صورة الميّت، ولم أدخل لأسرق. وما ستفعله عندما تعود إلى البلدة، أليست سرقة. لا، الأمر مختلف، أنا لستُ لصًا، لكنّ قدري هو ما دفعني لكلّ هذا. يعيد يوسف المبلغ كاملًا، ويحشر يده في الجيب الآخر، فيخرج سلسلة مفاتيح، ينظر فيها ثم يعيدها إلى مكانها. ماذا تفعل؟ لماذا أعدت المفاتيح؟ خذها. وما حاجتي للمفاتيح. من المؤكّد أنّ مفتاح بوّابة القصر، وبوّابة السور موجود هنا، فبدل أن تقفز السور ستفتح البوّابة وتخرج. حسنًا، وكيف سأعيدها بعد أن أصبح في الخارج. لا حاجة بك أن تعيدها، سيعتقدون أنّها ضاعت في فوضى الحزن والمفاجأة، خذها واخرج، ثم ارمها في النهر إن شئت. يأخذ يوسف المفاتيح ويضعها في جيب المعطف، مع مفاتيح بيت الحارس ودرّاجته.

فتح باب غرفة النوم، وخرج بهدوء حتى وصل الدرج العريض، فنزلهُ. قرب الأرائك الجلديّة، سمع صوتًا قادمًا من الجهة البعيدة للصالة، تلك التي تقع إلى يسار الباب المؤدّي لقبو القصر، تلك التي لم يمرّ بها عند دخوله. توقّف في مكانه. لا، إنّه لا يتخيّل، هناك حقًا صوت خطوات قادمة.

أطفأ المصباح ووقف في مكانه. المفاجأة شلّت أطرافه. كيف لم يحسب حسابًا لوجود شخص ما في القصر، لا يدري يوسف ماذا يفعل الآن. قرّر بسرعة يا

هذا، أمامك خياران لا ثالث لهما، فإمّا أن تقطع المسافة بين الأرائك وباب القبو الذي بقي مفتوحا بسرعة، وتنزل درجتين وتنتظر ما سيحدث، فمن هناك يسهل الهرب.. وإمّا أن تختبئ خلف إحدى الأرائك وتنتظر. عندما قرّر أن يخطو نحو باب القبو، كان الوقت قد فات، والخطوات باتت قريبة جدًا، فاختبأ خلف إحدى الأرائك راكعًا على ركبتيه متأهّبًا.

تُنارُ الصالة عن آخرها. شيء يبهر النظر كمن تعصب عيناه بعصبة سوداء، ثم تفتَحُ في قرص الشمس. تتوقّف الخطوات قليلًا ثم يسمع صوتٌ لفتح باب، وتبدأ الخطوات تبتعد. لا بدّ أنّ الشخص القادم دخل غرفة أو ما شابه. ينحني يوسف قليلًا على مُتّكأ الأريكة ليرى، لكنّ الجدار الذي حمل شاشة العرض العملاقة يغطّي الممرّ خلفه. زحف خلف الأريكة قليلًا فتجاوز الأولى، وأصبح خلف الثانية. انحنى ليرى، ما لم يرهُ في ضوء مصباح البطّاريّة. ممرّ عريض في الجهة اليسرى لباب القبو يغرق في ظلمة جزئيّة، وفي منتصفه بابٌ نصف مفتوح إلى الداخل لغرفة مُضاءة. نظر إلى السقف، وفهم ما جرى. القادم في الممرّ أنار المساحة في الصالة الرئيسة، وترك الممرّ في ظلمة جزئيّة لسبب ما. تفصلُ يوسف أمتار قليلة عن باب القبو المفتوح. إن استقام، وخطا بضع خطوات، لنزل القبو ثم خرج من المكان نفسه.

صوت يغنّي، صوتٌ نسائي يدندنُ لحنًا يأتي من عمق

الممرّ، صوتٌ بعيدٌ كمن ينادي في بئر. ثم صوت مياه جارية. القادم دخل الحمّام وهو الآن يغسل يديه، يفكر يوسف؛ وتبدأ الخطوات تقترب، فيرى امرأة تتّجهُ نحو باب القبو.

لو أن المرأة نصف العارية رأته لاقتربت منه. مساء الخير أيّها الغريب. مساء الخير أيّتها المرأة نصف العارية. من أنت. أنا يوسف من البلدة القديمة في الشرق، البلدة التي تنام في التاسعة وتستيقظ في الخامسة صباحًا، البلدة التي لا يقتلُ فيها رجلٌ كلّ يوم.. وماذا تفعلُ هنا؟ جئت فقط لأرى صور الميّت. كلّ اللصوّص يقولوُن هذا. لكنّي لست لصًا. ومن تكونُ إذًا، أتعتقد أني لستُ ألاحظ عينيك تجولان في عري جسدي، تمسحانه كما تمسحُ الريح جناح طائر. يخجلُ يوسف وينظر في الأرض السوداء المرمريّة. لا عليك، فأنا من ظهرت عليك شبه عارية كما تظهر الجنّيات للصيّادين. ماذا ستفعل الآن؟ سأعودُ إلى البلدة، فما ينتظرني هناك كثير. دع عنك البلدة والأموات، وتعال نقضِ ليلتنا سويّة. وسينتبهُ يوسف عندما تقترب المرأة أنّ علامة سوداء زرعت أسفل شفتيها، أو ربّما لن ينتبه. وسيصعد بالمرأة نحو غرفة النوم الملكيّة، وسيقدّم لها كهديّة الفستان الأحمر الفاقع. سيشتمّ في جسدها القريب وهو يلبسها الفستان رائحة العطر الخفيف نفسه. وسيقول لها بأنّ النحل في المملكة الأرقى بين المخلوقات يتعرّف خليّتهُ من رائحة الملكة. وعندها

ستبتسم المرأة نصف ابتسامة، وستظهر البقعة السوداء واضحة تحت شفتيها.

قبل أن تصل المرأة باب القبو، تطفئ الأنوار في الصالة، وتعودُ تغيب في عمق الممرّ، وتترك الضوء في الحمّام على حاله. لا بدّ أنّها نسيت أن تطفئهُ، أو أنّهُ كان هكّذا عند دخولك ولم تنتبه. لا لم يكن مضاءً. كيف يمكنني ألا أرى ضوءًا في ذاك العتم الكثيف. عذرا أيتها المرأة نصف العارية، نسيت أن أسألك سؤالا. تفضّل. الضوء في الحمّام أكان مضاءً كلّ الليل، أم أنّك أضأته عند دخولك؟ بل كان مضاءً كلّ الليل. فكيف لم أنتبه لهُ عند صعودي! نحنُ نرى الأشياء فقط عندما نريد رؤيتها.

تغيبُ الخطوات تمامًا ويعود الصمت. لا رغبة ليوسف أن يغادر، شيء ما يدفعه للبقاء هكذا راكعًا خلف الأريكة، ناظرًا جهة الممرّ نصف المعتم. لا بدّ أنّ المرأة دخلت إحدى الغرف هناك في عمق الممرّ، أو ربّما تابعت طريقها نحو الطابق الثاني صاعدة درجًا آخر، لم ينتبه له يوسف حتى الآن. لكنّهُ يرى ضوءًا آخر في عمق الممرّ يستمرّ لأقلّ من دقيقة، ثم يطفئ. تعود المساحة في العمق غارقة في شبه ظلام كليّ. المرأة أضاءت غرفة نومها لتهتدي إلى السرير، يقول يوسف، ثم أطفأتهُ لتعود إلى النوم. لكن، هل تركت ضوءًا صغيرًا بجانب سريرها لأنّها تخشى العتم، ربّما وربّما لا. ينام معظم البشر بغرف نوم فيها بعض الضوء، فيما ينام يوسف في غرفته المظلمة في البلدة القديمة. عذرًا مرّة

أخرى أيّتها المرأة نصف العارية. ماذا تريدُ الآن؟ لا شيء يستحقّ. فقط أردت أن أسألكِ، لماذا تتركين ضوءًا صغيرًا في غرفتك وأنت نائمة. المرأة مستلقية فوق سريرها بثياب داخليّة سوداء، وقد حشرت الملاءة الخفيفة التي اتّخذتها كغطاء بشكل طوليّ تحتضنها، فغطّت الملاءة كامل رجلها اليُمنى وبطنها، فيما بقيت رجلها اليسرى حرّةً. لا يحبّ البشر النوم في غرف مظلمة تمامًا، لأنّهم لا يحبّون عتمة القبر. تضغطُ الملاءة أكثر على صدرها فتتباعد المسافة بين نهديها، ويكادان يبرزان خارج حمالتهما. ينظر يوسف، ويرى أن بشرتها البيضاء المائلة إلى الورديّ تشبهُ كثيرًا ثمار الخوخ عندما تقطع لنصّفين، تلك المساحة القريبة من قشرة الثمرة الحمراء. أتعلمين أن لون جسدك يشبهُ ثمار الخوخ التي كنت أسرقها من مزارع القرية؟ حين تقسمُ الثمرة نصفين، تفوحُ منها رائحة الأرض العطِرة. ما زلت تنظرُ في جسدي كقدّيس يصلي لأيقونة. ينظرُ يوسف في الأرض خجلًا، ويهمّ بالخروج. انتظر، تقول المرأة نصف العارية. يقف يوسف في منتصف المسافة بين الضوء الصغير والمرأة نصف العارية، فيرتسمُ لهُ ظلّ فوق جسد المرأة الورديّ، ويتركُ مساحة صغيرة للضوء فوق شعرها المنثور على الوسادة. ماذا تريدين؟ نحن البشر عمومًا تعساء لأنّنا لا نمتلك الجرأة لنتبع أحلامنا، قالت المرأة واستدارت نحو الجهة الأخرى لتنام، جهة القمر كما قدّر لها يوسف. ظهرُ المرأة عارٍ حتى منتصفه.

يقترب يوسف، ويتناول كأس ماء وضِعَ على طاولة صغيرة. يشرب منهُ قليلًا من الجهة التي تركت شفاه المرأة عليه آثارًا حمراء خفيفة، ويعيده.

الثانية عشرة والربع، وأنت ما زلت في أحلامك الحمقاء. فإن تصل البلدة بعد الواحدة، فأنت في مأزق حقيقيّ. يوسف يحسّ الآن تصلبًا في ركبتيه بعد الركوع طويلًا خلف الأريكة. يقف وينظرُ جهة الممرّ، حيث الغرفة التي تنام فيها المرأة نصف العارية. يتقدّم بعدها نحو باب القبو ويجتازه، ثم ينزل الدرج. عليه الآن أن يلتفَ يسارًا ليصل الغرفة ذات السقف الواطئ، لكنّه يتّجهُ يمينًا نحو البار والزجاجات الملوّنة. يأخذ قطعة خبز تدلّ رائحتها بأنّها شهيّة، فيرفعها نحو فمه، لكنّهُ في اللحظة التي تسبق دخولها يعيدها إلى الطبق. لم آت هنا لأسرق، يقول ويذهب نحو الغرفة الواطئة السقف ومنها نحو الحديقة. يعيد بمفكّ البراغي إغلاق الباب الصغير، ويلتفَ في باحة القصر جهة البوّابة. يجب أن أكون حذرًا، فالمرأة نصف العارية ربّما ما زالت مستيقظة. يُخرج مفاتيح التاجر الميّت، ويبدأ يجرّبها بهدوء في قفل البوّابة، فتنفتحُ البوّابة عند المفتاح الثالث. يخرج يوسف بهدوء، ويغلق البوّابة خلفه.

٥

يقود يوسف الدرّاجة عائدًا إلى البلدة، ويفكّر في أنّ المرأة نصف العارية قد تمدّدت على ظهرها، ونحت الملاءة جانبًا حتى انكشفَ بطنها العاجيّ. وأنّ الضوء الصغير الساقط فوق جسدها الورديّ يرسمُ لها ظلًا تحت النافذة التي يدخل منها ضوء القمر. يدٌ ترتاح في المسافة تحت صدرها البضّ قليلًا، في حين تغيب الأخرى في عتمة شعرها الأسود. ربّما سيراها في الشارع مصادفة يوم ينتقل للعيش في المدينة. مساء الخير أيّتها المرأة نصف العارية. مساء الخير يا يوسف، ماذا تفعل في المدينة؟ انتقلت للعيش هنا، والآن أبحث عن عمل. انتقلت، أم أنّك هربت من جريمتكَ بعد أن قتلت رجلين حيًا وميّتًا؟! يصحو يوسف من خيالاته، وتعودُ صورة الرجل القتيل حيّة أمامه. ينظرُ في جانب من الطريق حيث مزارع البرتقال تنتشر على المدى في هذه الليلة القمراء، ويفكر: لو أنّهُ خلِقَ شجرة برتقال لعاش في سلام! وربّما لعاش بلا ذاكرة! لكن للأشجار ذاكرة يا يوسف، إذ كيف تكرر ذاتها كلّ ربيع وتمنح الثمر عينه دون مقابل. نعم، هذا صحيح.. لكن ذواكر الأشجار بيضاء لا تتجدّد. لا تتجدّد، لأنّها حيّة بذاتها ولذاتها، لا تنتظرُ إلّا الماء والتراب. يوسف يشغل نفسهُ عن صورة المرأة نصف العارية، ويشغلُ نفسهُ بصورتها عن صورة الرجل القتيل. إنّهَا الثانية عشرة والنصف. الطريق إلى البلدة خال، تمامًا في الاتجاهين. سيصل البلدة في

نصف ساعة، وعليه أن يكون حذرًا جدًا، فالصيّادون الليليّون الذين لم يبتسم لهم الحظّ سيعودون في هذا الوقت. يدخلون البلدة عند أطرافها من الأماكن نفسها التي سيدخلها يوسف هذه الليلة. يوسف يأمل أنّهم قد عادوا الآن. سيدخلون بيوتهم بشباكٍ شبه فارغة. سيفتحون الأبواب بهدوء حتى لا يوقظوا أطفالهم، وسيندسّون في الفراش الدافئ جانب زوجاتهم. ستستدلّ الزوجات من عودتهم في أوّل الليل أنّ الحظّ لم يحالفهم. ستستدير الزوجات جهة الأزواج. تضع المرأة يدها فوق وجه زوجها لتهمس في أذنه حتى لا توقظ الأطفال: لا عليك، في الغد سيحالفكَ الحظّ. لكنّهُ اليوم الثاني الذي أعود فيه فارغ اليدين، وربّما في الغد، سيكون الشيء نفسه. وعندها ستقول الزوجة وهي تخفي دمعة الفقر وقلّة الحيلة، دع الغد يأتي بالغد. ثم ستحتضن الزوج، وينامان في صمت، لا يتخلّلهُ إلّا تنفّس الأطفال وأصوات الأمعاء تقرقع خلف بطون خاوية. وأمّا من سيحالفهم الحظّ، فسيتأخّرون حتى الخامسة صباحًا. سيدخلون بيوتهم ويجدون الزوجات بانتظارهم في أفنية المنازل. سيفرزون السمك صحبة زوجاتهم، لينقلوا جلّهُ بعد ذلك إلى سوق المدينة، والقلة منه إلى سوق البلدة. ثم عندما ينتهون سيتمدّد الأزواج على أرائك بالية. عندها ستقول الزوجات، اذهب يا عزيزي لتستحمّ، فقد سخّنت لك الماء. اشتريت البارحة بعض الكاز ولوحًا من الصابون من جارنا البقّال. سنسدد

ثمنهُ عندما تبيع السمك في سوق المدينة، اذهب لتستحمّ، وسأحضر لك الشاي وبعض الزيتون قبل ذهابك إلى السوق.

يدخلُ يوسف البلدة من جهة المقبرة ويتوقّف أمام البوّابة، يبدو لهُ كلّ شيء طبيعيًا في الداخل. ينظرُ في ساعته. إنّها الثانية عشرة وخمسين دقيقة. هل يحتفظ بالدرّاجة حتى الخامسة والنصف، ثم يعيدها إلى مكانها أمام بيت الحارس؟ في هذه الحالة، سيختصر الوقت في الذهاب الآن والعودة ماشيًا، سيختصر عشرين دقيقة أو ربّما أكثر. لكنّ صوت الدرّاجة في الخامسة والنصف سيكون مثيرًا للانتباه، في ساعة يكون فيها نصف سكّان البلدة يتناولون كأس الشاي مع قطعة من خبز الليلة الماضية، قبل الذهاب إلى الحقول. وحتى الذين ما زالوا ينعمون بدفء الفراش، فإنّ زوجاتهم ستكونّ قد بدأت حديث الصباح، حديث الفقراء الذين لا يملكون إلا الكلمات. قم يا رجل، فالشمس ستشرق وأنت ما زلت في فراشك. دعيني لنصف ساعة أخرى، فنهار الأمس كان متعِبًا جدًا. لقد حرثنا الأرض كلها، حتى إنّي أحسّ بيديّ لا تنتميان إلى جسدي.. لو أنّني أستطيع شراء جرّار زراعي لحرثت الأرض في ساعتين. لن تشتري جرّارًا وأنت تنام حتى طلوع الشمس. قم إلى الأرض، علها تكون أكثر كرمًا من السماء. وعندها سيفارق الزوج مكرهًا دفء الفراش.

لا لن يستبقي الدراجة معه، سيعيدها أمام بيت

الحارس. مرّت عليه خمس دقائق وهو واقف أمام بوّابة المقبرة، هذا يكفي، يقول يوسفُ، وينطلق باتجاه بيت الحارس. يمرّ من الطريق نفسه المتّجه شرقا، ويلتفّ في مفترق الطرق حول البلدة محاذيًا النهر، ثم عندما يصل إلى المنطقة الجرداء، يوقف محرّك الدرّاجة ويفصل سلك البطّاريّة، ويبدأ يدفعها. السكونُ يلفّ المكان، لكنّ ظهور أحد الصيّادين التعسّ الحظّ وارد جدًا. يجتازُ يوسف المنطقة المجاورة لبيته، ويفكرُ أنّ القطّة التي اعتاد أن يعطيها بعض الفتات قد نامت ليلتها جائعة. تلك القطّة كانت صديقًا وفيًا، تأكل ما يعطيها ولا تتذمّر أبدًا. بل إنّهُ رأى في عينيها أحيانًا نظرات شكر وامتنان، وأحيانًا كان يرى، أو ربّما هيّئ لهُ أنّهُ يرى، في عينيها شيئًا يشبه الدمع.

يصل أمام بيت الحارس، فيترك الدرّاجة في مكانها وينظرُ إلى نوافذ البيت، الجميعُ نائمون. ربّما يكون الحارس مستلقيًا على ظهره الآن، وبجانبه زوجتهُ الطيّبة. يحلُمُ أنّهُ قد وجد عملًا آخر. مساء الخير يا سيّدي التاجر.. هل أجد لديكم عملًا؟ ماذا تُجيدُ من الأعمال؟ يمكنني أن أعملّ أيّ شيء من السابعة مسَاءً حتى الثالثة صباحًا. ولماذا لا تفكر في العمل صباحًا؟ لأني أعمل في مقبرة البلدة من السابعة صباحًا حتى السابعة مساءً. لكنّك لن تنام لأكثر من ثلاث ساعات يوميًا. الفقراء لا ينامون يا سيّدي. حسنًا، ستعملُ في نقل أكياس القمح المُعَدّة للتصدير إلى الشاحنات. شكرًا

لك يا سيّدي.

يعودُ يوسف من الطريق نفسه مسرعًا، وساعتهُ تشير إلى الواحدة وعشر دقائق. لقد تأخرت قليلا. يبدأ بالهرولة بداية ثم الركض، يقف لثوانٍ عند مفترق الطرق ليرتاح، ويتابع غربًا نحو المقبرة. يلتفّ حول المقبرة ويدخلها من جهة السور المتهالك. يمرّ بين القبور، وعندما يصل قبر التاجر الميّت، يتوقف وينظر نحوهُ، ثم ينحني ويمرّر يديه فوق تراب القبر ليتفحّصهُ. يتابع طريقه نحو الغرفة، يدخلها ويغلق الباب. يجلس على الكرسيّ الجانبيّ، ويستجمع أنفاسهُ. لقد ركض اليوم مرّتين اثنتين، وهو ما لم يفعله منذ سنين طويلة.

٦

إنّها الواحدة وعشرون دقيقة صباحًا. أمامكَ حتى السادسة أو قبلها بقليل أربعُ ساعاتٍ ونصف الساعة في أفضل تقدير. عليكَ أن تنتهي فيها من كلّ شيء، وأن تعيدَ كلّ شيء إلى ما كان عليه قبلها، تمامًا كما كان عند السابعة مساءً. يا يوسف، إن بدأت فإنّ الاستدارة والتراجع سيكوُنان انتحارًا. لا يمكنك أن تقول عند الثالثة مثلًا، هذا يكفي، وسأعيد كلّ شيء إلى مكانه. لا يمكنك أن تجبن في منتصف الطريق. جريمتك الأولى كانت غير مقصودة، وحتى لو لم يصدّقك أحد يكفيك أنّك تصدَق نفسك، وأمّا هذا الذي أنت مقدمٌ عليّه، فمختلف جدًا. هذه جريمة كاملة، جريمة خطّطت لها بكل كيانك كمجرم محترف، وقطعت عشرات الكيلومترات لتتأكّد من كلّ شيء قبل أن تبدأ. يمكنكَ التراجعُ الآن، الآن فقط، وأمّا بعدها فذاك مستحيل.

ما زال يوسف جالسًا على الكرسيّ الجانبيّ. أخرج من جيب معطفه مفتاح الدراجة وأعاده إلى سلسلة مفاتيح الحارس، ثم ترك السلسلة حيث وجدها قبلًا. هناك شيء ما زال يثقل جيبه، فيُخرجهُ، إنّها مفاتيح القصر. كيف لم أرمها في النهر، يقول يوسف ويُعيدها إلى جيبه. وسعادة مسروقة تمرّ في كيانه كنور خاطف، كالبرق حين يلمع للحظات معدودات ثم يتلاشى. سعادة كتلك

التي يحسّ بها الأطفال عندما يسرقون ببراءة بعض الحلوى من البائع على طريق المدرسة، أو كتلك التي يحسّ بها الجنود عندما يسقط صاروخٌ في مكان كانوا قد غادروه قبل دقائق. سيحتفظُ بمفاتيح القصر لفترة إضافيّة. سيحتفظُ بصورة المرأة نصف العارية لفترة إضافيّة. كان يحسّ بامتلاكه لمفاتيح القصر امتلاكًا خفيًا للمرأة نصف العارية، امتلاكًا لتلك اللحظات التي ما زالت تتكرّر مسرعة. المرأة تقطع المسافة القصيرة بين الحمّام وباب القبو لتطفئ المصابيح الكهربائيّة، ثم تستدير نصف عارية وتتابع طريقها مرورًا بالحمّام، في شبه عتم كثيف، فيكشف ضوء الحمّام من بعيد كتفها اليمنى وربلة ساقها وجانبًا من مؤخّرتها البيضاء البضّة. لو أنّ يوسف يعمل جنائنيًا في القصر مثلًا.. صباح الخير سيّدتي. صباح الخير يا يوسف. قطفتُ لك بعض الورود الحمراء من حديقة القصر. شكرًا لك يا يوسف، هذا لطف منك. هل تتفضّلين وتضعين واحدة في موج شعرك الأسود. نعم لك ذلك. كم جميلٌ أن يجد الورد وطنًا آخر غير وطنه الأرض، كم جميل أن ينتمي إليكِ. كفاك تزّهات يا يوسف! اذهب.. واسقِ أشجار الحديقة.

لكنّ يوسف ليس جنائنيًا. والمرأة ما زالت نائمة هناك، على مسافة أربعين دقيقة بدراجة الحارس. يوسف هنا في الغرفة جانب القبور. يؤخّر ساعة البداية ما استطاع، كمن يجبرُ على عمل يكرهه فيدفعهُ حتى

اللحظة الأخيرة، اللحظة الفصل. يبدو أنّك قد أحسست بالخوف، فغيّرت رأيك وعدلت عمّا خطّطت. لا، لم أغيّر رأيي. ففيمَ إذًا هيامك الأخرق وخيالاتك الحمقاء؟ أنت تحاول أن تطرد صورة الميّت بصورة المرأة نصف العارية، فيمرّ الوقت قاطعًا كالسيف. انظر إنّها الواحدة والنصف.

يقفز يوسف من مكانه كمن لسعته أفعى. ينظر في ساعتهِ، نعم إنّها الواحدة والنصف. السباق مع الزمن قد ابتدأ الآن. يفتح الخزانة ويأخذ منها مفتاحًا مربوطًا إلى لوحة خشبيّة صغيرة، ويتقدّم نحو الباب يفتحه. يخرج ليجتاز المصطبة والدرج، ثم يلتفّ يمينًا نحو القبور، وقبل أن يصلها، يعود يلتفّ يمينًا مرّة أخرى حتى يصبح خلف غرفة الحارس تمامًا. يفتحُ مستودعًا صغيرًا، ويُخرجُ منهُ مجرفة يستخدمها حفّار القبور، وقفّة سوداء صُنعت من البلاستيك القاسي. يأخذهما وينطلق نحو القبور، فيلاحظ عند عبوره بجانب الغرفة أنّه ترك الباب مفتوحًا، فيعود يغلقه، وينطلق حتى يصل قبر التاجر الثريّ. يرمي المجرفة والقفّة أرضًا.

ضوء القمر يكشف المساحة عن آخرها، لكنّهُ يشغلُ مصباح البطّاريّة ليتأكّد من حدود القبر. حدود القبر واضحة جدًا، فمستوى التراب هناك كان منخفضًا. لا بدّ أنّهم تركوا ذاك العمق القليل فارغًا تحضيرًا للصرح الرخاميّ الذي سيقومون ببنائه ظهر اليوم. يمرّر يوسف

يده في التراب من جديد، ويفكرُ في الزمن الذي يحتاجه. يوسف يذكر الآن أن الحفار كان يحفر قبرا في ساعتين، أو أقلّ. وبما أنّهُ لن يحفر التراب القاسي الذي حفِر هذا الصباح وفقد الكثير من تماسكهُ وصلابته، بل سيكتفي بإزاحة التراب جانبًا، فهو يحتاج لساعة ونصف الساعة. حدّد الجهة التي سيزيح التراب إليها وهي الجهة نفسها التي أزاحوه إليها هذا الصباح، ثم بدأ الحفر.

كومة صغيرة من التراب تكوّمت جانب القبر، وما زال العمل طويلًا. يوسف الذي لم يعتّد أعمالا كهذهَ بدأ الخدر يتسرّب إلى يديه بسرعة. إنّهُ عمل شاق وطويل. لعلهُ لن ينتهي في الوقت المناسب. كانت رائحة التراب تزدادُ كثافة، خليط من رائحة الذرة الناضجة والنهر والتراب الرطب، شيء يشبهُ رائحة السمك القويّة.

عاد سهم الألم يخترق معدة يوسف، فترك المجرفة وانحنى يضغطها. هذا ليس الوقت المناسب، أيّها الألم. هل لك في العودة فيما بعد. أنا آتي في اللحظة التي تطلبني فيها، شيء في عقلك يطلب الألم، فأصل سريعًا. ركع يوسف وزاد الضغط على معدته. ثم وقف بسرعة ونظر نحو القبر. الرجلُ مات في العاشرة صباحًا، كما هو مسجّل في شهادة الوفاة، أي أنّهُ عندَ الرابعة سيكون ميّتًا قبل ثمانية عشر ساعة. ربّما بدأ جسده بالتصلب. لقد قرأ في مكان ما أنّ الميّت تبدأ أطرافه بالتصلب بعد

مدّة معيّنة، لكنّ يوسف لا يذكر كم هي المدّة بالتحديد، هل هي اثنتا عشْرة ساعة أم أربع وعشرون أم أكثر؟ ماذا لو كان الميّت الآن متصلبًا بالكامل. توقف يا يوسف، وأعد كلّ شيء إلى مكانه، وتابع حياتك وكأن الليلة كانت حلما. لا، هذا مستحيل. فربما عضلات الرجل ما زالت مرنة. نظر يوسف في الأفق، ثم قال: الحرارة، نعم الحرارة، ربّما ستساعد في إعادة بعض المرونة لجسد الميّت. ركض نحو غرفة الحارس. شغّل المدفأة الكهربائيّة على طاقتها القصوى، وكذلك شغّل المصباح الكحوليّ. أحكم إغلاق النافذة، ثم خرج وأغلق الباب جيّدًا، وركض مجدّدًا نحو قبر الميّت.

أزال يوسف أكثر من نصف التراب عن القبر، ثم توقّف قليلًا عن العمل. ونظر في ساعته، إنّها الثانية وعشرين دقيقة. يجب أن أنتهي من هذا قبل الثالثة، فما بعد إزالة التراب هو الأصعب، يقول يوسف ويتابع إزاحة التراب. كان كلما ذهب في العمق باتت المهمّة أصعب، فقد انخفض مستوى التراب، وعليه أن يبذل جهدًا إضافيًا لإزاحتهِ. عندما غطّت الحفرة نصف الفارغة يوسف حتى الخصر، بدأت المهمّة تقترب من المستحيلة. يوسف فقد تمامًا الإحساس بيديه، خدر يبدأ من لوح الكتف وينتهي بأطراف أصابعهِ. لم يبقَ إلّا القليل، لكنّ هذا القليل سيذهب بطاقتي المتبقّية قبل أن ينتهي. لو أنّهُ اشترى شيئًا ليأكلهُ في المدينة،

فالمدينة تبقى صاحية حتى ما بعد منتصف الليل، أو لو أنّهُ أكل عنقود العنب على الشرفة الخشبيّة. يحسّ بمعدتهِ تتمزّق جوعًا، كانت ثيابهُ قد غطّاها العرق البارد.

الآن، بعد أن انّخفضَ مستوى التراب أكثر، بدأ يوسف يجمع التراب في القفة السوداء، ثم يحملهُ ويرمّيه خارج القبر. لقد انخفض مستوى الحفرة كثيرًا، ويوسف يتوقع أن يظهر كنزهُ في أي لحظة. حرص يوسف على إزالة أجزاء إضافية من الجهات الأربع، ليسهل معهُ التحرّك في الحفرة حيث سيُخرِجُ الجثّة.

سيرتاحُ قليلًا.. لقد انتشر الخدر في كامل جذعه الأعلى. يتمدّد يوسفُ في القبر شبه الفارغ، الفارغ إلّا منهُ ومن الجثّة الأخرى، يفصل بينهما طبقة من التراب، ربّما رقيقة جدًا تمامًا كما في ثلّاجات حفظ الموتى في المشارح. يوسف يذكرُ أنّهُ شاهد برنامجًا عن قتلى الحروب، وكيف يحفظونهم في ثلّاجات كبيرة تشبهُ الرفوف في برّادات المنازل. عذرًا، سيّدي القيّم على المشرحة، هل لك أن تأخذني إلى الثلّاجة رقم تسعة، فزوجي يرقد هناك. بكل سرور. لكنّ بقايا الجثّة هذه ليست لزوجي يا سيّدي. عذرًا، فقد فتحتُ خطأ الثلّاجة رقم عشرة. لا عليك يا سيّدي، فالبشر كثيرًا ما يتشابهون عند الموت. هذه هي الثلّاجة رقم تسعة. نعم هذه بقايا زوجي.. شكرًا لك. لا شكرَ على واجب. هل لي أن أدعوك لتناول العشاء الليلة، يا سيّدي؟ نحنُ في

مشرحة، وأنت تدعوني لقضاء ليلة معك. تبتسم المرأة نصف ابتسامه لتحافظ على حزنها الرصين قبل أن يخرجا سويّةً.

ينظرُ يوسف في ضوء القمر الذي يتوسّط السماء الآن، وينشرُ نوره فوق شواهد القبور، فتترك الأخيرة ظلّا شفّافًا على الورد الذابل الذي أحضره الزوّار. بعضُ باقات الورد كانت ذابلة تمامًا، تستندُ إلى الشوّاهد، وبعضها ما زال يقاوم انفصالهُ القسريّ عن الأغصان. يفكر يوسف لو أنّه كان يجمع باقات الورد الذابل، ويتركها حتى تجفّ، فقد كان سيحصل على شاي الأعشاب مجّانًا في ليالي الشتاء.

يغمض عينيه قليلا، ثم يفتحهما.. لا لن أنام، فالنوم هنا كمن ينام قرب فوهة بركان. كان يقاوم النعاس، فبعد أن تمدّد فوق التراب الرطب بدا لا يقوى على النهوض. أصوات الطير التي تأتي من بعيد في عمق السهل ومزارع الذرة، يسمعها يوسف، وكأنّها قادمة من عالم آخر. أحسّ أنّهُ غفا للحظات، فهبّ واقفًا، تسلق الحفرة، وركض باتجاه الغرفة، فدخلها.. وذهب نحو صنبور الماء البارد ففتحهُ، غسل وجهه بداية، ثم وضع كامل رأسهُ تحت الماء البارد. تناول من على مسمار في الجدار قطعة قماش بالية، وجفّف شعره، فأحسّ أنّ بعض النشاط عاد إليه. ينظر في ساعته، فيجدها الثانية وأربعين دقيقة. يركضُ مُسرعًا إلى الخارج، ويغلق الباب

خلفه. درجة حرارة الغرفة قد ارتفعت كثيرًا، يفكر يوسف أنّ هذا جيّد جدًا، وأنّ المدفأة والسخّان قد شاركاه مهمّتهُ. يقفز في الحفرة ويتابع نقل التراب بالقفّة.

وميضٌ مرّ في فكره مسرعًا فجعلهُ يتجمّدُ رعبًا، ماذا لو أنّهم - على عادة البعض - وضعوا فوقَ التابوت عوارض حجريّة. أيّتها السماء، إن كان هذا ما فعلوا فإني هالك لا محالة، كيف يمكنني أن أزيح تلك العوارض التي ينزلها بواسطة الحبال ثلاثة أو أربعة أشخاص مجتمعين. ينظرُ يوسف في التراب ولا يدري ماذا يفعل! تابع عملك، فإنْ وجدت عوارض حجريّة فلا حيلة لك، ستردم التراب، وتعود يوسف ما قبل السابعة مساءً، ثم تنتظر ما يحملهُ لك القدر. لكنْ، ربّما يمكنني أن أحاول زحزحة العوارض. أنت تخدع نفسك، فبحالتك هذه، وأنت في قمّة التعب والإنهاك،

ستحتاج ربما يوما كاملا لتزحزح واحدة فقط، فكيف بحملها أو أقلهُ تنحيتها جانبًا!؟

يوسف الآن ينقلُ التراب كالمجنون، لا يتوقّف إلّا ليزيح بعض التراب الذي سقط فوق وجهه. يمرّر المجرفة ويملأ القفّة السوداء، ثم يرمي التراب خارجًا. مرّ بعض الوقت قبل أن تصدر المجرفة صوتًا يشير إلى اصطدامها بشي صلب، لقد وصلت إليهِ. فإمّا العوارض الحجريّة وإمّا التابوتُ حرًا. ركع يوسف وبدأ يزيح

التراب بيديه، فلامس شيئًا صلبًا، مرّر يده من جديد ليتأكّد من الملمس، فإن كان ناعمًا، فهو التابوت الحرّ. كان قد نسي أنّ مصباح البطّاريّة سيجيب عن السؤال ببساطة، الملمس ناعم جدًا ولا يمكنهُ أنّ يكون لحجر، هذا خشب من النوع الباهظ الثمن. ويستدرك أن المصباح على حافّة الحفرة فيضيئهُ، ويرى الملمس الخشبيّ الفاخر للتابوت الملكيّ. لقد أدرك سبب عدم وضع أيّ عارضة حجريّة. إنّ المهمّة الأساس للعوارض الحجريّة هي حماية التابوت من بعض الحيوانات المفترسة، كالضِباع، التي يمكنها أن تنبش القبر طمعًا في وجبة دسمة، كما كان يقول العجائز في البلدة، تلك القصص التي تتداولها البلدة منذ قرون طويلة. لكنّ الصرح الرخاميّ الذي سيشكّل قلعة فوق التابوت، سيفي بالغرض بل أكثر، ولهذا أهملوها. فليتبارك الصرح الرخاميّ، يتمتم يوسف.

لّقد كشف السطح العلويّ اللامع عن آخره، سحبَ التراب كله ونقلهُ للأعلى. يوسف يقف الآن فوق التابوت تمامًا، ويلاحظ أنّهم حفروا لمساحة أكبر من المعتاد حوله، لا بدّ أنّهم فعلوا ذلك من أجل راحة الميت الفاحش الثراء. عليه أن يزيل بعض التراب الإضافي حول التابوت ليتمكّن من فتحه، والأهمّ هو المساحة خلف الخطّ العرضيّ، حيث سيقف. أزاح التراب حتى برزت جوانب التابوت، وبدا الخطّ الفاصل واضحًا بين

جسم الصندوق وغطائه. مشى فوق التابوت، وفكّ الأقفال النحاسيّة الفاخرة على طوله، ثم عاد ليقف عند الخطّ العرضي. هل يكون الرأس في هذه الجهة، أم الأقدام، يفكرُ يوسف، ويمسكُ بالحافّة البارزة للغطاء ليسحبها للأعلى، فيصدِرُ التابوتُ صوتًا.

٧

وجهُ الميّت كان أوّل ما وقعت عليّه عيناه. ارتفع الغطاء قليلًا، فانكشفت مساحة خلف المثلث المرسوم من حافّة الصندوق مع الغطاء وخطّ العمق. وجه التاجر الميّت تحت نور القمر لم يكُن عابسًا كوجه الرجل القتيل، بل متعَبًا كمن ركض لماراثون طويل، ثم توقّف يلتقط أنفاسه فمات. شيء يشبه تلك الصور التي تلتقطها العدسات للرياضيّين لحظة انتهاء السباق، وهم ما زالوا يركضون، ويحاولون تغيير الحالة الحركيّة لأجسادهم المسرعة. يحاولون إيقافها، فترى قسماتهم في تلك اللحظات حقيقيّة، شبه مشوّهةً قليلًا لكنّها حقيقيّة، تعكسُ رسائل تأتي من العضلات المرهقة حدّ الإنهاك، رسائل تصل شاشة عرض بشريّة تسكُنُ في الوجه. لا بدّ أنّه قد مات في اللحظة التي انتهت تلك الليلة الحمراء مع المرأة ذات البقعة السوداء أسفل شفتيها. الصور تتداعى في خياله كشريط سينمائيّ يمرّ تباعًا في غرفة النوم الملكية الكبرى، ثياب الزوجين المرمية، والسرير الذي يشي بأنّه احتضن معركة فاصلة.

انفتح الغطاء عن جثّة التاجر، فأزاحهُ خارج الحفرة، الجثّة الآن في طولها الكامل، ومصباح البطّاريّة الذي يستكشفها يضيء الوجه المُتعب، ويتَنقّل في باقي الجسد. بدلة سوداء من الجوخ الفاخر، وقميص رمادي، وربطة عنق سوداء، ثم حذاء لمّاع، حتى في الموت أيّتها السماء هناك غنيّ وفقير. يوسف يأخذ وضع

القرفصاء خلف رأس الميّت، ويستندُ إلى جدار القبر. ينظرُ في ساعته، الثالثة صباحًا. أمامهُ لينتهي ساعتان ونصف الساعة. لكنّ كيف سيُخرج الجثّة من التابوت ثم من الحفرة، الطريقة المُثلى هي إغلاق التابوت وسحبه خارج الحفرة، ثم إخراج الجثّة وإعادة التابوت للحفرة، لكنّ تابوتًا فاخرًا كهذا سيكون ثقيلًا جدًا، ثم أضف إليه وزن الجثّة. لا. هذا صعبٌ جدًا بل أقرب إلى المستحيل. فلم يبقَ إلّا طريقة واحدة، وهي سحب الجثّة مباشرة خارج التابوت وخارج الحفرة. إنّ الصعوبة تكمن في أنّ المساحة المُتاحة ليوسف حول التابوت صغيرة، صغيرة بحيث تكون المناورة لسحب الجثّة شبه معدومة.

ألصق يوسف ظهرهُ بجدار القبر، وسحب قدميه حتى ضغطتا الجدار، وانحنى في وضع القرفصاء. ثم أمسك الجثّة. الآن، يوسف يرى وجه الجثّة مقلوبًا، والجثّة ترى وجه يوسف مقلوبًا. يدا يوسف امتدّتا تحت ظهر الجثّة وأمسكتا بها من تحت الإبطين. يسحبُ يوسف، لكنّ الجثّة لا تتزحزح كأنّها صبّت من رصاص. لا يستطيع يوسف الحركة كثيرًا في هذه المساحة الضيقة، ولا يستطيع بذل العزم الكافي لسحب الجثة، أخرج يديه وبدأ يلتقط أنفاسه. هذا صعبٌ جدًا وغير مجدٍ. ينظرُ يوسف حوله ليرى طريقة أفضل، فكّر في ربط الميّت بالحبال، وسحبه من خارج الحفرة، لكن هذا قد يعرّض الجثّة لأضرار قد تكون واضحة للعيان، وهذا ما لا يريده يوسف. ما بالك كمن سقط في حفرة من الطين لا

يستطيع معها الخروج! اذهب حتى وسط التابوت بحيث تنظر إلى وجه الجثّة؛ وعندها، فلتسحبها من المكان نفسه. معك حقّ.. هذه هي المرّة الأولى التي تعطي فيها رأيًا مفيدًا. دعك من الثرثرة الآن، دائمًا ما كنتُ مفيدًا لك، لكنّك أخرق.

يقف يوسف الآن في وضع القرفصاء وسط التابوت، كلّ قدم على إحدى الحوافّ الطوليّة، ثم يسحب قدميه قليلًا في جهة رأس الجثّة، وينحني ليلتقطَ الميّت من تحت إبطيه. يرفع الميّت قليلًا ويسحبهُ للأعلى، فتتحرّك الجثّة قليلًا، يتابع الرفع والسحب حتى تصبح الجثّة في وضعيّة الجلوس، الجثّة الآنَ مستندة إلى الحافّة العرضيّة. ينزل يوسف ويحتلّ المساحة التي أفرغَت من التابوت، ليمنع بقدميه الجثّة من الانزلاق إلى وضعها القديم بفعل ثقلها.

الميّت الآن جالسٌ في قبرهِ قرب يوسف، كصديقين قديمين يجلسان في مقهى، لم يكن ينقصهما إلا كأسان من الشاي وأغنية قديمة. ماذا حلّ بشاي النعناع أيّها الصبي، لقد طلبناه منذ أكثر من نصف ساعة؟ المَعذرة يا سيّدي، سآتي به حالا، فالمقهى يغصّ بالزبائن، وكلهم يصرخون. ولا تنسَ أن تأتينا بطاولة الزهر، فصديقي الثريّ يحبّ هذه اللعبة. في الحال يا سيّدي.

والآن، تبدأ المهمة الصعبة يا يوسف، ستحمل الجثة وترفعها حتى تجلسها علّى حافّة الحفرة، ثم تديرها فتتمدّد خارجها. اجمع أنفاسك كلهّا، تاريخك كله، ليالٍ

قضيتها في هذه المقبرة وحيدًا، وحيدًا إلا من أصوات بنات آوى وبرد الشتاء. اجمع أحلامك الصغيرة التي لم تتحقّق، يومًا وارفع الجثّة. هذا عدل يا يوسف، بل هو العدل عينه.

سيحمل الجثّة من منطقة الحوض حتى تنثني على ظهره، وبهذا لن يبذل جهدًا جبّارًا في رفعها حتى حافّة القبر. ينحني يوسف ويحتضن الجثّة عند الحوض تمامًا، ثم يرفعها. يا لثقلك يا رجل! ادفع قدميك قليلًا، ودعني أحملك. ألا ترى أني ميّت، والأموات لا يستطيعون فعل أيّ شيء. فقط تخيّل أنّك تدفع قدميك، وستنجح، فالخَيال هو أساس الخلق، ولو لم تكن الآلهة واسعة الخيال لما خلقت شيئًا. لكنّ الميّت ليس إلهًا، هولا يتحرّك، بل إنّهُ ثابت في مكانه كصخرة. جمع يوسف أنفاسه، وسحب الجثّة، فرفعها، وتدلى جذع الرجل على ظهر يوسف. خطا خطوتين وأسند الجثّة على حافّة القبر، وبدأ يدفع للأعلى.. ثم خطا بقدم واحدة على حافّة التابوت لتقصر مسافة العمق في الحفرة.

كانت الوضعيّة غير المتوازنة لقدم في التابوت، وأخرى على حافّتهُ، وجثّة بثقل الرصاص تنحني فوق ظهره، وتعيق حركته، جعلت يوسف يفقد توازنهُ. بدّأت الجثّة تنزلق من بين يدّيه إلى الأسفل. لا يملك يوسف إلا أن يقاوم الانزلاق بالشد على الجثّة، واحتضانها أكثر. إن رمي الجثّة الآن لإعادة التقاطها، يترك الاحتمال

مفتوحا أمام اصطدام رأس الميت بحافة التابوت وكسره، أو ربّما تهشيمهُ، وهذا سيُعيدُ يوسف مجبرًا إلى ما قبل السابعة مساءً.

الجثّة تنزلق ببطء نحو الأسفل، ويوسف يضغطها كأفعى استوائيّة تريد قتل فريستها بالخنق. تنزلق الجثّة كثيرًا حتى يصبح مستوى الرأسين واحدًا، رأس يوسف ورأس التاجر الميّت. يوسف الآن يعانق الميّت، ويبدو الميّت في وضع العناق أيضًا. مال يوسف بظهره نحو الخلف حتى يحني ركبتيه قليلًا، ثم يدفع الجثّة مجدّدًا للأعلى، فمالت الجثّة معهُ، وأراح الميّت رأسه فوق كتف يوسف، كصديق قديم يهمس في أذنيه شيئًا. صديق قديم يشكو الهمّ لصديقه.

يوسف يحسّ بالبرد الآن كما لم يحسّ به من قبل، الجثّة التي يحتضنها في وضع يشبهُ أوضاع العشّاق لا تشبهُ إلّا لوحًا طويلًا من الجليد. ثم ماذا لو همس الميّت في أذن يوسف معاتبًا، لماذا أقلقت راحتي في هذا الليل، فقد كنتُ أحلم بالنعيم الأبديّ. كيف تحلم بالنعيم الأبديّ. ألم تصل بعدُ هناك؟ كلّا، فالطريقُ بعيد، والآن فقط أحلم. لكنّ الأحياء يحلمون به، ليصلوه بعد الموت، وأمّا أن يحلم الأموات به فهذا شيء جديد. نعم نحلم به مثلكم، لكنّ أحلامنا باردة.

لا يظهر من يوسف والميّت إلّا المنطقة الممتدّة بين لوح الكتف والرأس بارزة خارج الحفرة. يبدوان في ضوء القمر المُنير كتمثال نصفيّ لآلهة قديمة متعانقة،

آلهة المطر ربّما وآلهة القحطّ، أو آلهة الخصب وآلهة الصيد. ولو أن الميّت يرفع رأسهُ قليلا، فسيرى في البعيد أزواجا من العيون تقترب من المكان، كلابا ربّما، أو قططًا، أو حتى ضباعًا أثارت شهيّتها هذه الوجبة المجّانيّة، فوقفت في صمت تراقب. ولربّما شكرَ يوسف، لأنّهُ سيخلصهُ من النهاية العبثيّة في بطون الضباع. ولو أنهُ التفت يمينًا لرأى خلف القبور مزارع الذرة، وقد بدأت الأوراق الخضراء الطويلة تلمعُ في ندى الفجر، وتجمع السائل الشفّاف في انحناءاتها، ثم تعودُ تميلُ نحو الأرض وتقطرُهُ ماءً. لربّما رأى الأرض تحتضنُ الماء في جوفها كما تحتضنُ المرأة الجنين، قبل أن تدفعهُ من جديد يروي عطشًا أبديًا. لكنّ الميّت لا يرفع رأسه ولا يرى، الميّتُ في عالم آخر.

يستجمع يوسف قواه المنهارة عن آخرها، ويحني ركبتيه قليلًا، فينحني بكامل جسده إلى الخلف ثم يقذف الميّت محتفظا بيديه تطوّقانه تمامًا في منتصف ظهره. ثم ينحني أكثر ويدفعه للأعلى دفعة أقوى، فيعود يطوّقهُ عند حوضه تمامًا. يتدلى جذع الميّت منحنيًا على ظهر يوسف، يخطو خطوتين ويرفع قدمهُ من جديد على الحافّة العرضيّة للتابوت. بات يوسفُ الآن شبه متأكّد أنّها المحاولة الأخيرة لإخراج الميّت من الحفرة، فإن لم ينجح الآن، فإنّ قواه التي خارت وأصبحت شبه معدومة لن تساعده في تكرار المحاولة. يملأ رئتيه بالهواء، ويدفعهُ نحو حافّة القبر حتى يصبح

بطن الميّت يغطّي رأس يوسف الآن بالكامل، ودفعة ثانية، فتصبح مؤخّرة الميّت على حافّة الحفرة.

يحرّر يوسفُ يده اليمنى من حول خصر الميّت، ويدفعه في بطنه، فتميل الجثّة للخلف، ثم يستدرك يوسفُ فلا يجد ما يمسك به الميت إلا لحيته. يبدو الميت الآن جالسا على حافة الحفرة كصور السيّاح الذين يجلسون على حواف الهاويات ويلتقطون صورًا تذكاريّة. انتبه يا عزيزي كي لا تسقط في الهاوية. لا عُليك. فقط، التقطي لي صورًا تظهر مدى عمق الهاوية حتى أريها لأصدقائي. حسنًا، لكنْ هل حبل النجاة مربوط في طرفك. نعم، لا تقلقي.

إنّ حبل نجاة الجثّة الآن هي لحتيه. لا يستطيع يوسف إفلات لحية الميّت حتى لا يسقط إلى الخلف، ويصطدم رأسهُ بحجر. ولا يستطيع إفلات اليد الأخرى تحت مؤخّرة الميّت حتى لا تنزلق الجثّة من جديد. سامحني أيّها الميّت، إن سبّبت لك ألمًا في شعر لحيتك، فليس أمامي خيار آخر. لا عليك، فلستُ أحسّ بأيّ ألم. حسنًا، سأدفع رأسك بهدوء حتى يسشند على الأرض دون اصطدام، وذلك سيعرّض لحيتك للشدّ، فإن تألمت كثيرًا فأخبرني. يا رجل.. إنّ الألم هو لأبناء الحياة، والأموات لا يتألمون. يدفع يوسف رأس الميّت بهدوء حتى يصل الأرض، فيصبح نصفُ الميّت الأعلى ممدّدًا خارج الحفرة. يثني يوسف ركبتي الميّت، ويدفعهُ، فتخرج كامل المؤخّرة وجزءٌ من الفخذ خارج الحفرة.

الآن، لا يمكن للجثّة أن تعود تنزلق في الحفرة. يدفع يوسف دفعة أخيرة، فتصل الجثّة حتى الركبتين خارج الحفرة.

يخطو الآن فوق الحافّة الطوليّة ليس بعيدًا عن الجثّة، ويقفز خارج الحفرة. يحمل الغطاء وينحني بجذعه الأعلى في الحفرة، يسند الغطاء في حافّته الطوليّة إلى صندوق التابوت، ثم ينزلق في المساحة خلف الصندوق، ويغلقه. أخيرا، يعيد الأقفال النحاسية الفاخرة كما كانت، ثم يغادر الحفرة.

تنكشف قبّة السماء فوق التاجر الممدّد على التراب. ولو أنّهُ يفتح عينيه، ويعود للحياة كبعض قصص المعجزات في الكتب المقدّسة، لرأى السماء في هذه الليلة الشتائيّة الصافية تغصّ بالنجوم.. نجم القطب، والدبّ الأكبر، والأصغر، ونجوم أخرى بالكاد نراها بأعيننا المجرّدة؛ ولسأل نفسهُ سؤالا تردّده البشريّة بمعظمها: أصحيح أنّ بعض النجوم التي نراها الآن قد اندثرت منذ ملايين السنين الضوئيّة، وأنّ ما نراه منها الآن هو نورها الذي ما زال يسافر في الفضاء؛ ولسلم أخيرًا أنّه وبعقلنا البشريّ، أو بالسجن الذي نحياه في هذا العقل البشريّ المحدود، والقاصر، لا يمكننا أن نحيط فهمًا بسرّ الكون العظيم.

الثالثة والنصف صباحًا. يوسف يقرأ وجه الميّت عن كثب، ويحرّك رأس الجثّة في الجهتين، ثم يتمدّد قربها ليرى طول الميّت. كان كلّ شيء يجري نحو النهاية التي

رسمها يوسف من دون أخطاء تذكّر. يقف ويبدأ يردم التراب فوق التابوت. ماذا تفعل؟ أعيد القبر كما كان. وهل ستترك الجثّة في العراء حتى تنتهي؟ نعم. وعندما أنتهي سأدخِلها، وأنت لا شكّ تعلم البقيّة. إن تركت الجثّة في هذا البرد لساعة، أو ربّما أكثر، وهو ما ستحتاجه لوقت كي تردم التراب، فإنّ الجثّة ستتصلب تمامًا. لم أفكّر في هذا. ثم ألا ترى أزواجًا من العيون هناك خلف المنطقة الخضراء تنتظر فرصتها لتحصل على عشائها المتأخر؟ نظر يوسف في المدى، ورأى أزواج العيون تلمع في عتم الليل، ربّما عشرة ضباع، أو كلاب برية، أو ربما أكثر. انحنى يوسف على الجثة ليحملها، وضع يدًا تحت الظهر وأخرى تحت الركبتين، وبدأ يرفع. عندها، سمع صوت شيء يتحرّك. تجمّد في مكانه، وسحب يديه من تحت الجثّة، ثم لاإراديًا أمسك بالسكين في جيب معطفه، وفتحهُ. أرهف السمع. الصوتُ يأتي من جهة مزارع الذرة والنهر، وليس من جهات المنطقة الخَضراء. الشيء ما زال يتحرّك. يلتفتُ يوسف حوله، وهو شبه متأكد الآن أنّ وقع الحركة يشير إلى أكثر من متحرّك واحد، بل ربّما جماعة. وفهم على الفور ما يجري، سأدافع عن الجثّة حتى وإن قتلتني الضِباع. لم ينتظر أيّ لحظة إضافيّة، فحمل الجثّة وبدأ يركض نحو الغرفة.

كان يسمع خلفه أصوات الأقدام تقترب. وصل إلى الباب، فمدّ يده التي تسندُ ظهر الجثّة، وأدار المقبض، ثم

دفعه بقدمه ودخل مسرعًا. لم يرمِ الجثّة مباشرة، بل استدار، وبقدمه أغلق الباب، ثم وضع الجثّة على الأرض.

يوسف لا يقوى على التقاط أنفاسه، وهو يسند الباب بظهره، ويميل بجذعه يلتقطُ مفاتيح المقبرة، وبالمفتاح يغلق باب الغرفة.

٨

يوسف الآن مسجون في الداخل، ومَن سجنهُ ليست سلطات البلدة بل الضباع التي ستُرابط في الخارج وتنتظر فرصتها. ستبقى الضباع في أماكنها هناك حتى الفجر. الضباعُ لن تهاجمهُ في الداخل، هو يعرف هذا من عشرات القصص التي ترويها البلدة عبر أجيالها، بل ستنتظره حتى يخطئ خطأً قاتلًا ويخرج لها في المساحة المفتوحة. لو أنَّهُ فقط امتلك الوقت الكافي ليردم التراب، ويُعيد القبر كما كان، لما ساءتهُ الضباع في الخارج، بل كان سينتظرُ اللحظات قبل شروق الشمس، وعندما يجبرها الفجر على انسحاب قسريّ، سيغادر.

الجثّة ممدّدة على أرضيّة الغرفة. يوسف ما زال يسند الباب بكتفيه في ردّ فعل غير إراديّ، أو لنَقُل في ردّ عفويّ على الضباع. ردّ لن تراهُ الضباع، لكنّهُ سيصلها بشكل من الأشكال. البعضُ يقول سيصلها في أمواج كهرومغناطيسيّة تنطلقُ من فكر يوسف لتستقر في أدمغتها. والبعض يقول بل سيصلها هكذا، في علاقة المادّة بالروح، أحاسيس يوسف الكثيفة الآن، وتصميمهُ في الدفاع عن الجثّة، وربّما عن نفسه، ستنتقل إليها في الهواء مجتمعة، كما تجتمعُ في نسيم الصباح حبّات الندى.

يوسفُ يغلقُ الباب بجسده، بعد أن أغلقهُ بالمفتاح في تأكيد على الحالة. حتى وإن لم يضف إلى الحقيقة

المجرّدة شيئًا، فسيبقى فعلٌ إنسانيّ، مصدره ضعف الإنسان الأزليّ ولاثقتهُلا بنفسه ولا بالكون. تمامًا كما نفعل عندما نرى منظرًا مؤذيًا، كقتل إنسان مثلًا، فنحنُ لا نكتفي بإغلاق أعيننا، بل نغطّيها بأيدينا في فعل تأكيدي للحالة. إنّ وضع اليدين فوق العينين وهما مغمضتان لن يضيف شيئًا لحقيقة حجب الرؤيا، لكنّهُ سيضيف أشياءً عملاقة لأجهزة توازننا النفسيّة.

يوسف يتصبّب عرقًا، فحرارة الغرفة المرتفعة بفعل المدفئة والسخّان، ثم الجهد الجبّار الذي بذلهُ مع الجثّة، جعلاه يحسّ بنفسه في غرفة من غرف البخار. تلك الغرف التي يرتادها الأغنياء لتخفيف الوزن والاسترخاء. يخلع معطفه، ويرميه فوق الكرسيّ بجانبه، ويبقى يسند الباب بكتفيه. ينظرُ إلى الجثّة، فيجدها مستلقية على الأرض في شبه سلام أبديّ، لا يقلقها شيءلا الضباع ولا الفجر ولا حتى سلطات البلدة. اسمع يا رجل، سأحمي جثّتك من الضباع حتى لو كلفني ذلك حرّيّتي أو حتى حياتي. شكرًا لك، فلست أحبّذ أبدًا أن أنتهيَ وجبة سريعة في بطون الذئاب. لا تخشَ شيئًا، لن أسمحَ لكل ضباع الكون أن تمسّ جزءًا من جسدك الميّت، صحيحٌ أني أخرجت جثّتك من قبرها الأبدي، لكني سأحافظ عليها كما كانت.

ستحافظ على الجثّة وتفقد رقبتك، ماذا دهاكَ تسند الباب بكتفيك هكذا؟ أتريدُ أن تبقى هكذا لا تفعل شيئًا حتى طلوع الفجر، تنتظر أن تحاكمك السلطات بجرائم

ثلاث؟ ماذا عساي أفعل؟ فإن خرجت مزّقتني الضباع حتى قبل أن أجتاز المصطبة الإسمنتيّة. لا تخرج، بل انظر من النافذة لترى، أهي ضباع حقًا أم كلاب أو ربّما مخلوقات من أكوان أخرى، كم عددها، ماذا تفعل في الخارج؟ فإن لم يكن هذا من أجل نجاتك، أفلا تحسّ فضولًا للمعرفة! البندقيّة في خزانة المحفوظات، كيف نسيتها؟ ركض يوسف وأخرج البندقيّة وعلبة الطلقات من الخِزانة، لقّم البندقيّة طلقتين وحملها في وضع شاقولي. لم يستخدموا البندقيّة في عهد يوسف أبدًا، كانوا يحتفظون بها في حال الطوارئ، والطوارئ لم تحدث أبدًا حتى كاد يوسف ينسى أمرها بالمطلق. سيترك البندقيّة كخيار أخير، وهو يدرك أنّ طلقة بندقيّة في هذا الليل الساكن إن لم توقظ البلدة عن آخرها، فستجلب إليه الصيّادين الذين ما زالوا في قواربهم النهريّة، سيهرعون إلى المكان، يدفعهم الفضول والشهامة.

ينظُر من النافذة فلا يرى أزواج العيون، يجول ببصره في المساحة التي يكشفها زجاج النافذة أمامهُ، فلا شيء. الضوء في الغرفة ربّما يجعل الرؤيا غير واضحة، لكنّ إطفاءه أمر غير مستحبّ الآن، فقط للحظات سيطفئ النور وينظر. أطفأ النور، ونظر، لكنّهُ لم يرَ شيئًا. بقي للحظات ينظر، ثم أضاء النور من جديد. ما معنى هذا؟ أين اختفت تلك المخلوقات؟ ويوسف ليس متأكدًا من جنسها، فإن لم توصف الضباع بذكائها، فالكلاب

البرّيّة توصفُ بهِ، وكذلك الذئاب. وإن كانت الذئاب غير معروفة في هذه المناطق، ويوسف لم يسمع أحدًا يروي عن ظهور ذئب. فكلّ الاحتمالات مفتوحة. لكنّ، هناك شيء يمكنه أن يكون يقينيًا. من تهاجم المقابر عمومًا هي الضباع كما سمع الكثير من الحكايّات في القصّ الشعبي. لكنّ يوسف ليس متأكّدًا، فلا يمكنهُ أن يفكر هكذا، بما أنّها ضباع وهي غير الموصوفة بذكائها، فلا يمكن أن تكون مثلًا قد نصبت له كمينًا، وهي مختبئة تتربّص الآن بين سيقان الذرة.. وعليه، فلا شيء في الخارج ثم سيخرج ويردم القبر. لا يمكنهُ الاستناد إلى هذا، فماذا لو خرج وبدأ يردم القبر، وكانت المخلوقات كلابًا برّيّة أو حتى ذئابًا ساقها حظّهُ العاثر من الجنوب حتى هنا لتقتلهُ. لا، هذا انتحار، لا يمكنه الخروج قبل أن يصبح الفجر وشيكًا.

الرابعة صباحًا. يوسف ما زال واقفًا ينظرُ من النافذة. لو أنّهُ يستطيع أن يردم القبر لانتهى كلّ شيء بسلام، لكنّ الخروج الآن مستحيل، والانتظار حتى الخامسة والنصف ليبدأ بردم القبر أمر شبهُ مستحيل أيضًا. إنّ ردم القبر سيأخذ ربّما خمسًا وأربعين دقيقة، أي أنّ الفلّاحين سيمرّون بيوسف وهو يردم القبر. يوسف ضائع، ولا يدري ماذا يفعل، والوقت يمرّ ثمينًا.

اسمع يا يوسف، لا حلّ آخر أمامك، فلثنهِ كلّ شيء هنا حتى الخامسة والنصف، ثم تأخذ معك البندقيّة وتخرج لتردم القبر حتى السادسة، فإن أحسست بأيّ قادم على

الطريق ستكتم انفاسك، وتستلقي، فلا يراك أحد من جانب السور المتهالك ولا يسمع أحد لك صوتًا، وعندما تبتعد الأقدام ستتابع الردم حتى تنتهي، ثم تعود بالبندقيّة وتفرغ منها طلقاتها، وتُعيدها إلى مكانها، ثم تخرج وتغلق الباب وترحل. لكنْ، لا تنسَ أن الحارس كثيرًا ما يظهر أمامك في السادسة والنصف لتشربا قهوة الصباح سويًا.

يوسفُ ينظرُ في الجثّة المستلقية على الأرض ويفكّر في المكان المثالي لوضعها، فيحملها إلى المساحة الخالية في الغرفة بين الطاولة والحائط البعيد. الآن ينتبه أنّ ثياب الميّت ملؤها التراب. هذا ليس مهمًا، بل شعر الميّت المملوء بالتراب هو الخطوة الأولى. يتناول يوسف جريدة من الخزانة، يسحب أحد صفحاتها، ويفرشها تحت رأس الميّت، ويبدأ ينظف الشعر من التراب. يلمس الجثّة، فيجد أنّ حرارتها قد ارتفعت قليلًا ولم تعد كلوح جليد، يحرّك اليد فتتحرّك بصعوبة لكنّها تتحرّك. الحرارة أتت بمفعولها، يقول يوسف ويتابع تنظيف الشعر من التراب.

لحية الميّت الكثيفة تدلّ على أنّهُ أطلقها منذ أكثر من شهرين. يلامس يوسف ذقنهُ الحليقة ويتخيّل نفسه بلحية، لا بدّ أنّهُ سيكون أكثر وسامة، وهو لم يطلق لحيتهُ أبدًا بل كان يحلقها كلّ ثلاثة أيّام أو أربعة، فعملهُ الليلي في حراسة الأمواتلا يتطلب مظهرًا مثاليًا.

ينحني فوق الجثّة، ويبدأ بفكّ أزرار السترة الفاخرة،

ويسحب يدي الميّت من الأكمام، وبعد أن ينحّي ربطة عنقه، يفعل الشيء ذاته مع القميص الحريري، ثم يخلع قميص الرجل الداخلي، فيغدو الميّت عاريًا في جزئه الأعلى. ينظرُ يوسف إلى الساعة الذهبيّة في يد الميّت، الساعة تلمعُ كزجاج ملوّن اخترقتهُ الشمس. وماذا أفعل بهذه، وينظرُ يوسف مجدّدًا نحو الساعة، لا يمكن تركها في يدهِ، فيوسف لا يملك شيئًا كهذا ولا يمكنني أخذها. اتركها إذًا، ودعهم يكتشفوا الحقيقة. لكنّي لست لصًا. وثياب الميّت التي سترتديها بعد قليل وتأخذها. لا يمكنني أن أخرج عاريًا، ولا يمكنني أن أترك هذه الثياب الفاخرة هنا لأنّهم سيكتشفون الحقيقة. وستفعل الشيء ذاته مع الساعة، فإن تتركها سيكتشفون الحقيقة أيضًا. يسحب يوسف الساعة من يد الميّت ويضعها على الطاولة. اعذرني أيّها الميّت، لا خيار لديّ في ترك ساعتك الذهبيّة هنا. لا عليك، فالساعة لا تقارن بما ستسرقه بعدها. يوسف يتصبّب عرقًا باردًا فينحني، ويمسح عرقهُ بقميص الميّت ويشتمّ رائحة العطر النسائيّ الخفيف. يأتي الألم الآن في معدتهِ كسحابة من بخور تسافرُ في معبد وتملأ كلّ الزوايا. يركعُ يوسفُ، ويضغط يده فوق معدته، ويتابع تعرية الميّت، فيفكّ الحزام الجلديّ، وينتبه إلى الحذاء، فيخلعه هو والجوارب، ثم يسحب البنطلون من قدميه فيبقى الرجل في سرواله الداخلي الناصع البياض، ثم يسحب السروال فيغدو الميّت عاريًا تمامًا. يوسف ينظّرُ في

جسد الميّت ويحسّ بالخجل. اعذرني أيّها الميّت، فإني أرى عريك مضطرًا. لا عليك، فبعد قليل سأرى أنا عُريك أيضًا أيّها الحيّ، وبذلك نكون متعادلين. هذا صحيح، ويعود يوسف يحسّ بالخجل فهو سيتعرّى أمام الميّت. سامحني، فلم أكن أريد أن أزعج نومك الأبدي، لكن لا خيار لدي، فإنك تكاد تشبُهني حدّ المُطابقة، فإنْ تبادلنا الأدوار وكنت أنت يوسف، فسأنجو من حبل المشنقة. حسنًا، فأنا التاجر الميّت سأصبح يوسف، ولكنْ أنت من ستصير. لم يفكر يوسف في هذا، كان همّهُ فقط أن ينجو من جريمة ارتكبها من غير قصد. لا يمكنك أنت تكون التاجر الميّت الذي دفنوه مساء أمس، فمن ستكون؟

يوسف صامتٌ تمامًا. يذهب نحو الطاولة، ويفرغ كلّ شيء في جيوب معطفه، آلة الحلاقة الكهربائيّة والمفك والسكين ومفاتيح منزله ومحفظته حيث بطاقته الشخصيّة. يعيد مصباح البطّاريّة إلى الخزانة، ثم يعود نحو الطاولة ويضع مفاتيح القصر. أرى أنّك لم تكتفِ باقتحام قصري كاللصوص، بل سرقت مفاتيحي أيضًا. أنا لم أسرقها، بل أخذتها فقط لأفتح البوّابة وأخرج. ولماذا لم ترمها في النهر كما قرّرتَ. لقد نسيت، ولكنّي عندما أخرجُ من هنا سأرميها. لا تكذب، فأنت لن ترميها، بل ستحتفظُ بها، وستدخل القصر من جديد فقط لترى المرأة نصف العارية. صمت يوسف، ونظر في أرضيّة الغرفة خجلًا. سأرميها، ولن أدخل ذاك القصر أبدًا،

تكذب يا يوسف على نفسك الآن.

الرابعة والربع صباحًا. يلتقط يوسف آلة الحلاقة الكهربائيّة، تلك التي أحضرها لهُ صديق من بلد في الشمال. كان يوسف نادرًا ما يستعملها، ككل الفقراء يحتفظون بالأشياء الغالية خشية تلفها. يوسف لم يحلق ذقنه منذ أربعة أيّام، وعليه أن يجعل ذقن الميّت مشابهة في قصرها لذقنه. وضع يوسف الآلة على الدرجة الرابعة ومررها فوق ذقنه القصيرة ليتأكد من الدرجة التي سيقص بها ذقن الميّت، فلم تقطع الشعر. وعندما جرّب الدرجة الثالثة، قطعت الشعر قليلًا جدًا، لمليمتر واحد ربّما. هذه هي الدرجةُ المناسبة، فأدار وجه الميّت يسارًا، وبدأ يحلق لحيتهُ. كانت الآلة تمرّ في مساحات الشعر الكثيف فتقصّهُ تمامًا، كما تفعل الحصّادة في الزرع.

وبدأ يوسف يذكر مواسم الحصاد عندما كان صبيًا. يستيقظونَ في الخامسة، ويذهبون إلى السهل. يبدأ الصغار بصفّ أفقيّ مؤلف من خمسة أو ستّة أولاد تفصلهم مسافة متر أو مترين، وينفصل الكبار في مجموعتين، كبيرة تتابعُ الصفّ مع الصغار، وصغيرة تكون خلف الصغار، تلتقطُ من السنابل الذهبيّة ما أفلته الصبية. فالقمح عزيز وهو من أنقذ البشريّة. وعندما ترتفعُ الشمس في السماء، كانوا يرتاحون قليلًا ويشربون الشاي ويأكلون خبز الليلة الماضية مع الزيتون وقليل من اللبَن. وفي المساء، بعد أن ينتهوا من

الحصاد، كان الكبار يسلقون القمح في قدور كبيرة ليصبح بعدها برغلًا. الصغار يتراقصون حول النار حتى نضوج القمح، وعندها كان الأطفال يمنَحُون هريس القمح مع السكّر. كم كان طعم القمح الساخن مع السكّر محبّبًا! عندما ينهي يوسف صحنهُ، كان يتمنّى أن يسألهُ أحدهم إن كان يريد المزيد، لكنّ أحدًا لم يسأل يوسف يومًا إن كان يريد، ويوسف لم يسأل يومًا المزيد.

يوسف يتضوّر جوعًا، ويذكر هريس القمح مع السكّر فيزيده جوعًا. لماذا يأكل الإنسان. لماذا يعتمد على ما هو خارجهُ دائما. لماذا لا يكون مكتفيا بذاته، كاملا لا عيب فيه؟

قصّ يوسف شعر اللحية بكاملهِ. ولولا ندبة تحت الذقن تمامًا، لكان وجهُ الميّت مطابقًا إلى حد بعيد وجه يوسف. لن ينتبه أحد للندبة، ولن يشكّ أحد بكون الميّت خلف الطاولة القديمة هو يوسف، الحارس الليليّ لمقبرة البلدة.

أتعلم أنّك تبدو أكثر شبابًا بلا لحية. ذلك ما كانت تقولهُ زوجتي أيضًا، وكانت تطلب مني دائمًا حلاقتها. تلك ذات العلامة السوداء تحت شفتيها. فقد عرفتها أيضًا. بالصورة فقط، وهي تنظرُ إلى الحمام في ساحة مدينة من مدن الشمال. نعم، وكانت تلك آخر إجازة لنا قبل أن أموت. هل لي بسؤال أيّها الميّت المحترم. تفضّل. في أيّ اللحظات فارقت الحياة؟ الميّت يحسّ بالخجل، ولا يجيب. حسنًا لا داعي للإجابة، ففي صمتك

كان الجواب. هل لي بسؤالك أنا أيّها الحيّ. تفضّل. هل لك أن تُغطّي عانتي المكشوفة هكذا منذ بعض الوقت؟ سامحني لم أنتبه لهذا. يغطّي يوسف عانة الميّت بسرواله الداخليّ نفسه.

الرابعة والنصف صباحًا. شعر الميّت شبيه بشعر يوسف في القِصَر. لن يستخدم يوسف المقصّ، وسيترك الشعر على حاله. ينظر من النافذة ولا يجّد أيّ أثر للزائرين المتوحّشين، ثم يصيخ السمع، ولا يسمع إلا أصوات قمم الذرة الصفراء تتمايل مع الريح. يبدأ يوسف بخلع ملابسهِ حتى يبقى في سرواله الداخليّ القديم، وعندها يدير يوسف ظهره للميّت ويخلع سرواله ويرميه، ثمّ يتناول سروال الميّت، ويرتديه، ويتابع ارتداء ملابس الميّت كلها. ثم عندما ينتهي ينحني على الميّت ويبدأ يلبسهُ ملابس يوسف القديمة. وحين ينتهي، ينظر إلى الميت فيرى يوسف نفسه ممدّدًا على الأرض في جثّة التاجر. يتناول يوسف مفاتيح بيته ومحفظتهِ ويضعها في جيب معطفه الذي يرتديه التاجر. يضع في جيب البدلة الفاخرة التي يرتديها نقودهُ التي كان يدّخرها من أجل الدرّاجة ومفاتيح القصر وآلة الحلاقة والسكين والساعة الذهبيّة ومفكّ البراغي. بقيت الخطوة الأخيرة، ويغدو يوسف حرًا في المغادرة. يذهب خلف الطاولة ويزيح الكرسيّ إلى الخلف، ثم يعود ينحّني على الجثّة، ويحملها ويُجلسها على الكرسيّ، ثم يدفعها باتجاه الطاولة، فيُحشَرُ الميّت

بين الكرسي والطاولة، يأخذ يدي الميّت ويفردهما في الاتجاهين، ويحني جذع الميّت على الطاولة.

يوسف مات وهو جالس على كرسيّه خلف الطاولة، فانحنى رأسهُ وسقط، فيما يداهُ تستندان متباعدتين على بعض الأوراق، بقربه على الطاولة بقايا كأس من الشاي، ونصف رغيف خبز جافّ. ينظرُ يوسف إلى الميّت أمامهُ، ينظرُ إلى نفسه الميّتة، ويفكر، ألا أبكي نفسي قليلًا، فلن يبكيني في الغد كثيرون. يغطّي يوسف وجهه بيديه ويبكي.

يرفع يوسف رأسه وينظر في ساعتهِ، الخامسة صباحًا. لقد انتهى من كلّ شيء في الداخل. عليه أن ينتظر قليلًا حتى تبدأ السماء تفقدُ لونها الداكن في اللحظات الأولى من الفجر. يمكنهُ المخاطرة الآن، ومحاولة الخروج، لكنْ عليه أن يكون حذرًا. أدار المفتاح في الباب وفتحهُ قليلًا متّخذا قدمهُ اليسرى كصدام في حال أيّ طارئ؛ نظر من الشقّ الضيّق الذي شكّله الباب مع إطاره، فوجد كل شيء هادئا وطبيعيا. لا صوت إلا صوت الهواء يعبث بأغصان شجرة الكينا القريبة. بقي هكذا لدقائق، ولم يسمع شيئًا. ثم عاد وأغلق الباب. أمسك بالبندقيّة وخرج إلى المصطبة الإسمنتيّة، ووقف هناك لدقائق أخرى. الظُلمة بدأت تتحوّل لأزرق شفّاف في الجهة الشرقيّة خلف المقبرة، وبدأت الرؤيا تصبح أكثر وضوحًا. لا شيء حولهُ يثير الشكّ، لا عيونٌ ولا صوت خطى، ربّما ما سمع خطا

أقدامه كان بعضًا من بنات آوى تبحث في الليل عن فرائس صغيرة، لكنّ الحذر الآن شيء مصيريّ. هبط الدرجات وبدأ يخطّو هادئًا جهة القبور حتى وصل القبر المفتوح. التفت في كلّ الاتجاهات، لا شيء خطير. وضع البندقيّة قربه ونظر في ساعته، الخامسة وعشر دقائق. بدأ يردم التراب، ردم القبر كان أسهل من إعادة حفرة. في البداية، كان يمرّر المجرفة على التراب، فيسقُط تلقائيًا في الحفرة، حتى إذا وصل التراب إلى مستوى مرتفع، غيّر يوسف جهة الردم. عند الخامسة والنصف، كان يوسف قد ردم معظم التراب، وبقي عليه تسويته في مستوى أفقيّ. بدأ يمرّر المجرفة فوق قمم التراب الصغيرة البارزة عندما سمع صوت أقدام، فتوقّف واستلقى على الأرض بحيث يخفيه القبر المجاور عن الفتحة في السور المتهالك. اقتربت الأقدام خلف السور. لكن إن لم تشترِ بذار القمح وتبذر فكيف ستأكل في الصيف؟ والسقف الذي يرشح في غير مكان، ألن أصلحه؟ سينتظرُ السقف عامًا آخر، لكنّ الأفواه لن تنتظر ليلة واحدة. ثم تبتعد أصوات خطى الرجلين، فيعود يوسف ويسوّي التراب فوق القبر تقريبًا كما كان.

لقد انتهى عند الخامسة وخمسين دقيقة. يركض باتجاه غرفة المستودع، ويضع المجرفة والقفّة السوداء في مكانهما ويقفل الباب بالمفتاح؛ ثم يُذهب إلى غرفة الحارس ليُعيد مفتاح المستودع والبندقيّة التي أفرغت من طلقاتها في الخزانة، ويغلقها، يُجيل نظره في أرجاء

الغرفة. وداعًا أيّتها الأشياء العزيزة، فلن أراك بعدها. ثم ينظرُ نحو الآخر الميّت على الطاولة القديمة، ويعودُ سهم الألم يخترقُ معدتهُ فينحني ويئنّ. يقترب بخطى متباطئة ويضع يدهُ على كتف الآخر. اعذرني، فلم يكن لديّ خيار. أعلم أن لا شيء يبرّر ما فعلتهُ الليلة، لكنّ الحياة تعلمنا أن لا نهاية إلا في الموت.

خرج يوسف من الفتحة في السور المتهالك، ونظر حوله. عليه أن يقرّر أيّ الطرق سيسلك، فقد بات بقاؤه في البلدة القديمة مستحيلًا. لا يمكنهُ مثلًا أن يعود في المساء إلى غرفة الحارس التي اعتادها لزمن طويل. مساء الخير يا صديقي الحارس. مساء الخير يا يوسف، لكن كيف عدتَ إلى هنا، ألست ميّتًا! نعم. لكنّ السماء رأت أني قد عشتُ على الأرض، ورحلتُ دون أن أترك أثرًا خلفي، فمنحتني فرصة ثانية، شيئًا شبيهًا بالإجازة. لا، يا يوسف هذا ليس معقولًا، وأنت تدرك أنّهُ غير معقول، فاتّجه غربًا. وأيّ شيء في الحياة معقول؟

يتّجهُ غربًا في جهة الطريق نفسها المؤدّية إلى المدينة. عليه أن يبتعد عن البلدة بسرعة، وبعدها سيقرّر ما يفعل. مشى قريبًا من الحقول على جنبات الطريق لساعة كاملة، وأصبح بعيدًا عن كلّ شيء، حتى عن جسده الميّت وجنازته التي لا بدّ ستكون هذا المساء. رائحة مزارع البرتقال الآن على الجانبين تشبه رائحة الجنّة. إن كان للجنّة حقًا رائحة، يفكر يوسف، فلا بدّ أنّها تشبه ذلك المزيج من الروائح، البرتقال والريح

والتراب النديّ. توغّل يوسف في عمق المزارع حتى اختفت الطريق ولم تعد مرئيّة. سيرتاح قليلًا، ثم يتابع طريقهُ وقد بدأ تعبُ الليلة الماضية يفيضُ في عينيه ورأسه كأمواج تتلاطم. قطف برتقالتين وجلس تحت إحدى الأشجار، ثم بدأ يأكل، فأحسّ بعدها بالعطش. إنّ الماء بعيد، وعليه أن يتوغّل أكثر حتى يصل ضفّة النهر ويشرب، لكنّ يوسف الخائر القِوَة لا يستطيع الآن الحركة.

كانت أغصان الأشجار ووريقاتها تحتجز أجزاءً من قرص الشمس، فيأتي نور الأخيرة متقطّعًا. ينظرُ يوسف في الشمس، ويتخيّل صديقهُ يفتح باب الغرفة في المقبرة، فيجدهُ ميّتًا. هل سيبكيه صديقه، يوسف يتمنّى أن يرى ما سيفعله الآخرون بعد موتهِ. ليس الكثير، سيأخذونك إلى بيتك القديم، ويغسّلونك ثم يدفنونك في الخامسة مساءً، فإذا حلّ الليل، تتابع القرية حياتها وكأنّ شيئًا لم يحدث، كشجرة سقطت إحدى وريقاتها، فحقن النسغ فيها ماء الحياة لتخلق ورقة جديدة. لا، هذا مستحيل ستذكرني القرية لزمن طويل. ومن أنت لتذكرك القرية، أنت رقم يا هذا. اسم يتجدّد كلّ يوم في صفحة المواليد، وفي صفحة الوفيّات.

أخرج من جيبه مفاتيح القصر. لا بدّ أنّ المرأة نصف العارية ما زالت نائمة، ربّما تكون قد استلقت على ظهرِها الآن، وثنت ركبتها اليمنى، فشكّل ظلّ المصباح

الصغير مثلثًا على الجدار أسفل النافذة. يد ممتدة إلى الخارج، ويد ترتاح فوق البطن العاجيّ، بينما تتكوّر الملاءة أسفل قدميها. أسند يوسف رأسه على جذع الشجرة وصورة المرأة نصف العارية لا تفارقهُ. ولو أنّ أحدًا ينظُرُ الآن في عمق بستان البرتقال، لرأى رجلًا بثياب فاخرة يجلس على الأرض ويستندُ بجذعه إلى شجرة. ولو أنّنا نستطيعُ إضافة ملاكًا أو ملاكين عاريين يحلقان قريبًا من الرجل، وامرأة عارية إلّا من شال ورديّ شفّاف تميل بجذعها نحو السماء، لبدا المشهد شبيهًا بتلك اللوحات الزيتيّة التي كان يرسمها تشكيليّو العصور الوسطى، أو ربّما عصر الباروك لأساطير قديمة. شيء يشبهُ الحياة فيلا نظامها وعبثيّتها. شيء يشبهُ الكون في فوضاهُ المنظّمة، فوضاهُ اللاأخلاقيّة الخلّاقة.

٩

السهل الأخضرُ لا حدود لهُ، يمتدّ حتى تفقدُ العين قدرتها على الرؤيا. ينحدرُ يوسف في طريق ترابيّة مفتوحة وسط السهل. وفي نهاية الطريق، يجد نفسهُ أمام البائع الذي اعتاد أن يشتري منهُ الحلوى وهو صغير في المدرسة. يقترب يوسف، فيقدّمُ لهُ البائع قطعة حلوى ملفوفة في ورقة جريدة. ما زلت كما أنت تبيعُ الحُلوى بسعر رخيص. وأنت يا يوسف، ما زلت كما كنتَ، تحلم ولا تجرأ أن تتبع أحلامك. يترك البائع وفي يده قطعة الحلوى، ويتابع هبوطه السهل، حتى يصل حديقة الحيّ التي كانوا يلعبون فيها وهم صغار. يلتفّ يوسفُ حول الحديقة، فتظهر المرأة نصف العارية أمامه. يقترب منها، فتبقى صامتة، يمسك يدها ويبدآن بالسير ملتصقين في عمق السهل. يوسف، أيضًا صامتٌ، لكنّهُ الآن يحسّ بشيء يفوق الوصف، شيء يشبهُ مزيجًا سحريًا بين السعادة والألم، شيء يشبهُ الإحساس بالدفء في غرفة نصف مضاءة، وفي الخارج عواصف وأمطار، شيء يشبه النعيم الأبديّ متجسّدًا. يتحسّس يوسفُ يد المرأة، فيجدها ما زالت في يده، ويتمنّى أن يدوم الصمتُ المقدّس هذا إلى الأبد. يوسفلا ينظرُ في وجه المرأة أو جسدها، بل يكتفي بذاك الإحساس الرطب في يده، ويخشى إن هوَ دفعَ الواقع نحو نهايتهِ المحتومة أن ينفجر كفقّاعة صابون. تكسرُ المرأة حاجز الصمت فجأة. أنت ترّغبُ في جسدي، لكنّك لا تقوى أن

تتملكَني، فتفقدني. يكفي أني أحسّ بيديكِ الدافئتين. لكنّي عندما أغيب سيبقى لديك الشيء نفسهُ، السعادة والحسرة والندم، الندم لأنّكَ لم تغتصب الحياة فيّ. لا تخشي شيئًا أيّتها المرأة، فإنّ الندم قادمٌ.

يصل يوسف والمرأة نصف العارية إلى ضفّة النهر، فيجلسان على العشب متلاصقين. يوسف لم ينظرّ في وجهها بعدُ. إنّه لا يقوى على النظر إليها، شيء ما يمنعهُ كلما حاول. هو لا يعرف بعدُ قسمات وجهها، شقراء أم سمراء، بعينين زرقاوين أم سوداوين، ففي الممرّ شبه المعتم في القصر تلك الليلة لم يرَ وجهها. لم يرَ إلّا امرأة نصف عارية جاءت من عمق الممرّ، وأطفأت النور قرب باب القبو، ثم عادت إلى غرفتها. ولو أنّهُ ينظرُ إليها الآن، لوجد دمعة تنحدرُ على خدّها الأبيض لتستقرّ قرب النقطة السوداء تحت شفتها السفلى.

يحسّ يوسف بشيء يحجب ضوء الشمس عنهُ ويضعهُ في الظلّ، فينظر نحو القادم. كان الجنرال يقف متأهّبًا في زيّه الحربيّ، وقد زرعت كتفاه بالنجوم. يتساءل يوسف عن عدد النجوم على كتفي الرجل، ينظرُ في هذا الوجه الذي يعرفهُ، يعرفهُ ويحاول أن يسقطه عنه. في إسقاطه انتماء للبلدة القديمة. يقف يوسف وقد أحسّ بالنظرة الزجاجيّة لعين الجنرال تخترقهُ كما اخترقتهُ مرارًا. عندما يخطو الجنرال نحوه خطوة، يحسّ يوسفُ بالخطر فيتراجع. كانت المرأة نصف العارية قد وقفت هي الأخرى، عندما أمسك الجنرال يد

يوسف، وسحبه نحوه قائلًا: تعال معي، لقد تأخّر الوقت. دعني هنا. أرجوك، وخذ كلّ شيء منّي. لقد تأخّر الوقت ويجب أن تعود. دعني معها، أرجوك. فوجودي معها لن يؤذي أحدًا لا الشجرُ ولا الطيرُ ولا حتى ملوك السماء. يسحب الجنرال يوسف من يده فيبدأ إحساسهُ بالألم، ألم كذاك الذي كان يصل حنجرتهُ حين كان يسكُت، وفي فمهِ ملايين الكلمات، ألم كذاك الذي يضطرّهُ للبقاء، وفي الخارج تغرق البلدة في العيد صاخبةً. يصرّ الجنرال على أخذ يوسف معهُ، فيتابع سحبه من يده. ينتبهُ يوسف الآن أنّ المرأة نصف العارية كانت تسحبه من يده الأخرى. يوسف الآن بينهما كقارب بين موجتين، تسحبهُ الأولى وتدفعهُ الأخرى، حتى يتوازن دفعُ الموجتين، فيتمزّق القارب.

الألمُ يصل قمّتهُ، ويدا يوسف مرفوعتان في وضع أفقيّ كشخص مصلوب. لا المرأة تحرّر يد يوسف، ولا الجنرال؛ ويبدأ يوسفُ يحسّ أنّ يديه بدأتا تنفصلان عن جسده، ينظرُ في كتفيه فيرى شقًا طوليًا يبدأ صغيرًا في القمّة عند الكتفين ثم يغور في العمق، حتى تبقى يداهُ معلقتين بجذعه العلويّ في نقطتين صغيرتين، وقد انفتح اللحم الأحمر، وابتلّ قميصه بلون أحمر داكن. يصرخُ يوسف: أيّتها السماء، أيّ ذنب جنيت!

يفتح يوسف عينيه وقد شوه وجهه الألم. ينظر حوله فيجد أشجار البرتقال في مكانها، ولا أثر للمرأة نصف العارية، ولا للجنرال. الشمس تتوسّط السماء. لا بدّ أنّهُ

نام لوقت طويل، الساعة هي الحادية عشرة وثلاثين دقيقة صباحًا، لقد نام لأكثر من أربع ساعاتأيّ جنون هذا، إن رآك أحدهم في ثيابك الفاخرة تنام في حقل برتقال، ماذا سيعتقد؟ لست أدري. قم واذهب إلى المدينة، لقد تأخّر الوقت.

يخرج يوسف نحو الطريق العام. يمشي قليلًا، ثم يبدأ محاولته إيقاف سيّارة متّجهة غربًا نحو المدينة. حاوَل يوسف ثلاث مرّات، ولم تتوقف أيّ سيّارة، وفي الرابعة، توقفت سيّارة شحن محمّلة بضائع. صباح الخير يا سيّدي. صباح الخير. هل لك أن توصلني إلى المدينة، وسأدفع لك الأجر الذي تطلبهُ. أنا ذاهب إلى هناك وبإمكانك مرافقتي. شكرًا لك. يجلس يوسف قرب السائق ويبقى صامتًا. لكنّ السائق يبدأ بالحديث، ثيابك يا سيّدي تدلّ على أنّك لست ممّن يستوقفون السيّارات على الطريق العام للسفر، يقول السائق متسائلًا. عندها يستدرك يوسف أنّ ثياب الميّت الفاخرة التي يرتديها ستجلب عليه الفضوليّين. لقد تعطّلت سيّارتي في البلدة، وسأذهب لأطلب إصلاحها في المدينة. لقد عرفت أنّك ثريّ من اللحظة الأولى. نعم، فأنا تاجرٌ أسكن المدينة. تشرّفنا يا سيّدي، أدعى عامر، وأعمل كسائق نقل في إحدى الشركات التي تنقل البضائع إلى المدينة. لم يدرِ يوسف كيف سيردّ على السائق، وكيف سيعرّفهُ على نفسه، فهو ليس يوسف الآن. يوسف قد مات صباح اليوم في غرفة الحراسة في مقبرة البلدة، وليس

التاجر الغني الذي يسكن المدينة، لأن الآخر قد مات صباح الأمس. يوسف الآن لا شيء، لا أحد، لا يحمل اسمًا، ولا رقمًا في السجلّات الوطنيّة، ولا تاريخ ميلاد. قل لهُ أيّ شيء، أيّ اسم يأتي في خيالك، سمّ نفسك من جديد، بعد أن اختار لك الآخرون اسمًا في حياتك السابقة. سمّ نفسك باسم أستاذ العلوم في المدرسة، ذاك الذي كنت تحبّهُ كثيرًا؛ أو باسم ذاك الرجل الذي كان صديقك يومًا، وانتهى ثريًا في إحدى دول الشمال. قل أيّ شيء، فأنت الآن يا هذا كالعمهِ الأوّل، يمكن أن تتشكّل كما تريد، وفي الآن ذاتهِ أنت لا شيء.

أُدعى يوسف. أنا تاجر من المدينة.. يصرّ يوسف أن يحتفظ باسمه. تشرّفنا يا سيّدي، وفي أيّ تجارة تعملون يا سيّدي؟ سيكذب يوسف مرّة أخرى، لكنّهُ لا يعرف بماذا سيكذب، فأيّ نوع من التجّار هو؟ قل لهُ أيّ شيء، واجعل حديثك مقتضبًا معهُ، فهذا السائق الثرثار لن يدعك في سلام، أعمل في تجارة الخضار والفاكهة. هذا عمل ممتاز يا سيّدي، فهذه التجارة رابحة جدّا، أعرف رجلًا يعمل كسائق نقل مثلي في مؤسّسة تتاجر بالخضار والفاكهة، علها مؤسّستك عينها يا سيّدي. السائق الثرثارلا يصمت أبدًا، ويوسف قد بدأ يلتزم الصمت، ولا يجيب على الكثير من أسئلتهِ. اعذرني يا سيّديّ، ربّما أزعجتك بأسئلتي الكثيرة، فنحّن الفقراء لا نمتلك إلا الكلمات. لا بأس، لم تزعجني، لكني أصمتُ لأني فقط مشغول البال بعض الشيء. لا بأس يا سيّديّ،

يمكنك أن تخبرني بما يشغل بالك، علي أساعدك في إيجاد حل لمشكلتك. هذا السائق الثرثار، أيّ مصيبة أتت به لينقل يوسف إلى المدينة! يوسف لا يأمل في شيء الآن أكثر من الوصول إلى المدينة بالسرعة القصوى ليتخلص من أسئلة السائق. والسائق الذي أحسّ أخيرًا بصمت يوسف، صمت هو الآخر حتى وصلا المدينة. كان الطريق عند مدخل المدينة مزدحمًا. أين تريد أن أوصلك يا سيّدي. يمكنك تركي هنا، وسأطلب سيّارة أجرة بعدها. يوسف يريدُ أن يتخلص من أسئلة السائق بأيّ ثمن، بل سأوصلك إلى مكتبك في شركتك يا سيّدي، فهذا لن يؤخّرني. السائق الثرثار الشهم لن يترك يوسف في سلام، بل هنا، وسأتدبر أمري لوحدي، شكرًا لك على إيصالي. اللهجة الحازمة ليوسف أقنعت السائق أن يتركهُ في المكان نفسه، فأوقف سيّارته جانب الطريق.

أخرج يوسف من جيبه بعض الأوراق النقديّة ليعطي السائق، فرفض الأخير بشدّة، قائلًا إنّه لم يخسر شيئًا في إيصال يوسف، ولن يأخذ شيئًا. شهامة السائق كانت ستدفع يوسف لأن يخبرُهُ أنّهُ كذب عليه، وأنّه ليس تاجرًا، بل فقير مثله، أو ربّما أشدّ فقرًا. بدأ السائق يقول ليوسف، لي رجاء واحد يا سيّدي. تفضّل. إنّ الشركة التي أعمل بها لا تمنحني العمل كلّ يوم، وأنا أحتاج العمل لأطعم أبنائي، فإن تجد لي عملًا دائمًا في شركتك الكريمة، أكن شاكرًا لك. أيّتها السماء! والآن ما العمل؟ السائقُ المسكين وجد يوسف كقشّة الغريق، لا يدرّي أنّ

يوسف هذا قد ارتكب جرائم ثلاث، ولا يملك في جيبه إلا ما يعيلهُ لبضعة أيّام في هذه المدينة. قل لهُ إنّك ستحاول أن تجد لهُ عملًا، وخلص نفسك منه الآن، فربّما لن تراه مرّة أخرى في حياتك. حسنًا، سأحاول كل جهدي أن أجد لك عملا عندي. شكرا لك يا سيّدي. ثم مزّق السائق قصاصة ورق من دفتر قديم كان مرميًا جانبهُ، وكتب اسمه ورقم هاتفه، ثم أعطاها ليوسف. يوسف الذي يريد أن يغادر الشاحنة بالسرعة القصوى وعد السائق أن يتّصل به في أقرب وقت، بعد أن دسّ الورقة في جيبهِ. شكر السائق يوسف مرّة أخرى، فنزل يوسف من السيّارة.

لا بدّ أن يتخلّص من هذه الثياب الفاخرة، التي ستجلب عليه الكثير من الفضوليّين. لا يمكنهُ أن يمشي في المدينة هكذا كالأثرياء، فهؤلاء يتنقّلون بسيّارات ذات زجاج معتم، حتى لا يضطرّوا لرؤية البؤس الذي سيؤذي مشاعرهم. وضع يوسف يده في جيبه، ليتحسّس مفاتيح القصر فاصطدمت يده بالساعة الذهبيّة. ماذا أفعل بهذه أيضًا؟ سأرميها.. فلا حاجة لي بساعة أخرى. ترميها وهي التي تساوي ثروة قد تبقيك حيًا لأشهر. هل أبيعها. نعم بعها، وبثمنها ستأكل لمدّة طويلة. حسنًا، سأستبدل ملابسي أوّلًا، ثم أبيعها. بل عليك أن تفعل العكس، فإنّك إن تبيع ساعة ذهبيّة مرصّعة بالجواهر، وأنت في ثياب حقيرة، ستدفع الشاري للاعتقاد أنّك سرقتها، وعندها سيتّصل

بالسلطات. اذهب وقدّر ثمنها أوّلًا، فإذا منحك أحدهم سعرًا منخفضًا جدًا، فلن تبيعها حتى لا تدخل الشك في نفس الشاري.

أوقف يوسف سيّارة أجرة، وطلب من السائق الذهاب إلى سوق المدينة. بدأ السائق يثرثر، لكنّ يوسف التزم الصمت، واتّخذ سحنة من يفكر في أمر جلل. تابع السائق الثرثرة قليلًا، ثم صمت هو الآخر. وأخيرًا قال السائق، هذه سوق المدينة يا سيدي، لقد وصلنا. دفع يوسف للسائق بعض الأوراق النقدية، ونزل من السيّارة. وضع يوسف الساعة الذهبيّة في يده، وبدأ يمرّ أمام واجهات المحلّات الفاخرة، حتى وصل إلى محلّ لبيع المجوهرات والساعات الثمينة، فدخل. أهلًا بك يا سيّدي، بماذا نخدمكم؟ أودّ أن أشتري ساعة ذهبيّة فاخرة، فعيد ميلاد صديقي غدًا، وسأقدّمها له كهديّة. بكلّ سرور يا سيّدي، وبدأ البائع يعرض على يوسف ساعات ذهبيّة من ماركات عالميّة مشهورة. نسيت شيئًا مهمًا، فصديقي قد رأى هذه الساعة في يدي، وأعجبتهُ. ومدّ يوسف يده ليرى البائع ساعته الذهبيّة، هل لديكم شيء يشبهها، وحتى في الثمن، لا أريدُ أن تقلّ قيمة الساعة التي سأشتريها عن قيمة هذه الساعة. بكلّ سرور يا سيّدي، فساعتكم هذه المرصّعة بالجواهر مرتفعة الثمن. ثم عرض البائع على يوسف بعض الساعات، فاختار واحدة وسأله، بكم هذه الساعة، فأجابه البائع بثمنها، لكنّي أعتقد أنّ ثمنها أقلّ من ثمن

ساعتي هذه، فأنا لا أعرف ثمن ساعتي، لأنّها هديّة من زوجتي في عيد ميلادي. يذكر يوسف هنا المرأة نصف العارية، والملمس الرطب ليديها في حلم الصباح. معك حقّ يا سيّدي، فهذه الساعة تقلّ بقيمتها عن ساعتك بقليل. هذا ما يحتاج يوسف لمعرفته فقط، لقد قدّر ثمن الساعة الذهبيّة للتاجر الميّت. حسنًا، سأشتري هذه، ثم أدخل يوسف يده في جيبه - وقال، أيّتها السماء المباركة.. لقد نسيت محفظتي في المنزل، في أيّ ساعة ستغلقون متجركم اليوم؟ في الثامنة مساءً يا سيّدي. حسنًا، سأعود في السادسة لأشتريها. بكلّ سرور يا سيّدي، سنغلفها بورق فاخر ونحفظها لكم حتى المساء.. شكرا لك، ثم غادر يوسف المتجر.

ثمن الساعة الذهبيّة المرتفع، والذي كان يساوي ثروة حقيقيّة بالنسبة ليوسف، لم يجعلهُ يشعر بأيّ شيء غير طبيعي. لقد كان كأيّ شيء يأتي في غير وقته، فيفقد معناه ووجوده. تابع يوسف السير حتى نهاية السوق، وركب سيّارة أجرة أخرى أخذتهُ إلى سوق آخر في المدينة. هذا السوق هو الأقرب إلى منطقة الأغنياء، لم يدخله يوسف أبدًا في زياراته القليلة إلى المدينة: متاجرُ فاخرة تعرض كلّ شيء بأسعار خياليّة، ونساء لا يشبهن نساء البلدة القديمة في شيء. يمشي يوسف، ويحسّ أنّهُ قد اجتاز برزخًا بين عالمين، عالم حقيقي وعالم مزيّف. مشى حتى منتصف السوق، حيث قرأ لافتة تشير أنّ ملعب الغولف إلى اليمين. كان يوسف قد

رأى شيئًا شبيهًا لهذا في التلفزة الأجنبيّة، رياضة يمارسها الأغنياء في مساحات خياليّة خضراء. انعطف يمينًا، وسار باتّجاه ملعب الغولف. أهلًا بكم يا سيّدي، تفضّلوا. يقول موظّف الاستقبال الذي كان يرتدي بدلة سوداء فاخرة. يوسفلا يدري ماذا يفعل الآن، أيدخل ليرى أم يعتذر للموظّف ويغادر المكان. موظّف الاستقبال ينتظر وينظر في عيني يوسف، ويوسف لا يدري ما يفعل الآن، وينظر في عيني موظّف الاستقبال ببلاهة.

طال الصمتُ حتى سمِع صوت سيّارة تتوقّف، السيّارة السوداء الفاخرة ذكّرت يوسف بسيّارات المراسم في استقبال رؤساء الدول، أو ربّما تلك السيّارات التي يترجّل منها أبطال الدراما ويتصنّعون النظر إلى اللاشيء وحولهم آلاف المعجبين. لمَ يحتاج الإنسان إلى شخص ينتمي إليه، لمَ يحتاج دائمًا إلى مثل أعلى، شاعر أو فنان، أو حتى نبي؟ لم يجتمع القطيع حول المميّز كما تجتمعُ الفَراشُ حول النور؟ لو أنّ الحياة استمرّت كما بدأت في العشير الأوّل، يتساوى فيها الجميع وتنتقل الخبرات للأفراد بالتساوي في وعي جمعيّ، فلا تعليم ولا خصخصة ولا تميّز، لا رؤساء ولا قادة ولا أنبياء، مجتمعٌ مشاع يحيا فيه الجميع متساوين، يعملون ويأكلون، ويصطادون الحيوانات، ويبذرون القمح البرّيّ، ويموتون.

عذرًا يا سيّدي، أيمكنني المرور؟ صوت امرأة يأتي

يوسف من الخلف. يبتعد يوسف، وقد أدرك أنّهُ قد أعاق طريق المرأة في الدخول إلى الملعب. تمرّ المرأة وعطرها الخفيف يشي بأنّها كانت نصف عارية في الليلة الماضية. تمرّ لصق يوسف، يفصلها عنهُ سنتيمترات قليلة. تمرّ وينظرُ يوسف في جسدها يتجاوزهُ نحو البوّابة الزجاجيّة العملاقة. تمرّ ويرى يوسف لأجزاء من الثانية نقطة سوداء أسفل التقاء شفتيها. تختفي المرأة ويبقى عطرها، ينحّي يوسف قليلًا ويضغط بيده فوق معدته التي ثارت من جديد. ماذا تفعل الآن بحقّ السماء، أتعتقد أنّك أصبحت تنتمي إليهم ببدلة فاخرة وساعة ذهبيّة في يدك؟ لستُ أنتمي إلى شيء. فما وقوفك هنا، وتسكّعُك الأخرق في مكان سيقذفك عنهُ كما تقذفُ النار شوائب علقت في المعدن الثمين.

هل أنت بخير يا سيّدي، يقول موظّفُ الاستقبال، وقد بدأ يحسّ بالضيق تجاه هذا الزائر الغريب. إني بخير، شكرًا لك، أنتظر أصدقائي لندخل سويّة، لكنّهم قد تأخّروا كثيرًا، يكذب يوسف. لا بأس يا سيّدي، يمكنك انتظارهم في البهو الداخليّ إن أحببت. الآن كيف ستتخلص يا يوسف من هذا، فلا شك عند دخولك ستدفع رسمًا للدخول، ربّما مبلغًا يعادل ما في جيبك أضعافًا! غادر المكان. قلْ للموظف أيّ شيء. ألا ترى أنّهُ بدا ينظر إليك في ريبة؟ يكفيه ضغط زرّ صغير أسفل طاولته الخشبيّة ليمتلئ المكان بحرّاس الأمن، حرّاس الأقوياء. لكنّ المرأة التي دخلت ربّما تكون هي المرأة

نصف العارية عينها. هيّا ادخل، ودعهم يكتشفوا أمرك. سيتّصلون بالأمن، لأنّك لا تمتلك نقودًا لتدفع فاتورة الدخول، وعندها ستنهار كقصر من رمل فوق شاطئ.

شكرًا لك، سأتّصل بهم هاتفيًا. استدار يوسف، ومشى بسرعة حتى عاد إلى السوق، وتابع طريقهُ مبتعدًا.

راح يبحث عن محلّ لبيع المجوهرات، والساعات الفاخرة، حتى وجد واحدًا في زاوية الطريق، فدخلهُ. أهلًا بكم يا سيّدي.. كيف نخدمكم؟ أودّ أن أبيع ساعتي الذهبيّة هذه، فيجب أن أدفع مبلغ التأمين لتخليص بضّاعتي العالقة في الميناء، ثم مدّ يوسف يده بالساعة الذهبيّة. بكل سرور يا سيّدي، لكنّي أحتاج لإيصال الشراء المرفق بالساعة. أحسّ يوسف بالرعب الحقيقيّ، فبرّغم الثياب الفاخرة التي يرتديها، فإنّ البائع قد شكّ في أمره. يفكر يوسف أن يفتح الباب ويهرب. تماسك، ما الذي أصابك؟ فهذا ربّما إجراء شكليّ، يطبّقونه على الجميع، قل لهُ إنّكلا تحمل الإيصال الآن، وحاول الخروج بهدوء. الإيصال ليس معي، فهذه الساعة هديّة من زوجتي، ثم يبدو أني قد أخطأت في الدخول إلى هنا، قال يوسف هذا وقد اصطنع ملامح الغضب وهم بالخروج. عفوك يا سيدي، فلم أقصد إزعاجك، إنما هو إجراء شكليّ نطبّقهُ على الجميع. حسنًا، لست بغاضب، وشكرًا لك، يقول يوسف، ويهمّ بالخروج مرّة أخرى. تمهّل يا سيّدي، سألقي نظرة على الساعة. هذا البائع لا يترك يوسف يخرج بسلام، ويوسف لا خيار أمامهُ الآن،

فأيّ خطأ سيجعل البائع يشك به وربّما سيتّصل بالأمن. خلع يوسف الساعة من يده، وأعطاها للبائع، فأخذها الأخير، وتفحّصها بعينه المجرّدة بداية، ثم بشيء يشبه العدسة المكبّرة وضعها على عينيه. نظر البائع جهة يوسف، وعرض عليه مبلغًا كثمن للساعة. يا سيّدي، أنت لم تعطني حتى نصف ثمنها، يقول يوسف للبائع الذي تأكّد أنّ يوسف يعرف القيمة الحقيقيّة للساعة. لكنّها مستعملة، وهذا سيفقدها الكثير من ثمنها، لكنّي لم أستعملها لأكثر من أشهّر قليلة. على كلّ حال، إن كنت ستدفع فيها هذه القيمة، فإني أفضّل أن أعطيها لسائق سيّارتي بدلا من بيعها. البائع الذي خاف أن تفوتهُ فرصة شراء ساعة كهذه، قد يربح فيها الكثير، عرض على يوسف مبلغًا إضافيّا، فاصطنع يوسف حالة التردّد بداية، ثم قبل، واستلم النقود، وخرج بهدوء.

عندما أصبح يوسف في الخارج، مشى ببطء لمسافة حتى دلف إلى الشارع الموازي، ثم حثّ الخطى وابتعد. اللعنة على الساعة وعلى النقود. ليتني رميتها، ولم أحاول بيعها، فبعد أن نجوت من كلّ المصائب كانت هذه الساعة ستدفع بي إلى السلطات. لكنّ المبلغ الذي في جيبك ربّما يساوي كلّ ما تقاضيته من أجر في عملك كحارس لعشر سنين. نعم، هذا صحيح، لكني لست أحتاجه الآن، لو أني حصلت عليه البارحة قبل أن أقتل الرجلّ المتسوّل، لاشتريت درّاجة ناريّة، وكنت أسعد من في البلدة، لكني الآن هارب من وجه العدالة.

أوقف سيّارة أجرة، وطلب من السائق أن يأخذه إلى سوق السمك في المدينة، فمن هناك يسهل الوصول ماشيًا إلى المنطقة التي تفصل عالمي المدينة، منطقة الفقراء عن منطقة الأغنياء. التفَّ يوسف حول سوق السمك، ودخل سوق الألبسة المستعملة، كان الباعة يصيحون على بضائعهم، ويبسطونها خارج محلّاتهم على طاولات، بضاعة من كلّ الأشكال والألوان. دخل يوسف المحلّ الأوّل. أهلًا بكّم يا سيّدي، تفضّل.. ففي متجري كلّ ما تطلب. شكرًا لك، فإني أودّ بيع بدلتي هذه، وشراء ألبسة مستعملة، فأنا تاجر ضاقت بي الحال. تفحّص البائع بدلة يوسف الفاخرة، وقال: حسنًا فلتنتقِ ما تريد. بحث يوسف في الألبسة المعلّقة، وحمل إلى البائع بنطلونًا وقميصًا وحذاءً ومعطفًا شتويًا. عرض البائع مبلغًا مقابل الفرق بين بدلة يوسف الفاخرة وهذه الملابس القديمة. ساومه يوسف، حتى حصل على سعر أعلى، ثم دخل غرفة قياس صغيّرة، تحجبها عن الأعين شبه الستارة، واستبدل ملابسه، ثم سلم ثياب التاجر الميّت للبائع، وأخذ النقود، وخرج.

دخل يوسف حيّ الفقراء، فأحسّ أنّ روحه الهائمة عادت إليه من جديد. هنا كلّ شيء حقيقيّ، وقائم بذاته، الفقر والكلمات والألم. كلّ شيء كثيف، الصلوات، والدعاءات، ووجوه الناس بخطوطها العريضة الواضحة. مرّ يوسف بمطعم شعبيّ، فأحسّ بأمعائه الفارغة تقرع كطبل، فدخل، وطلب وجبة كاملة: خبز

ومرق لحم وأرزّ. أكل، ثم شرب كأسًا من الشاي، ونقد النادل إكراميّة، فشكره كثيرًا، وفتح له الباب ليخرج.

أحسّ يوسف بالتعب والنعاس، ثم جاء الطعام وأثقل معدتهُ، فأصبح النوم مطلبًا وأمنية. لكن كيف سينام وأين. لا يمكنهُ الذهاب إلى أحد الفنادق الرخيصة. مساء الخير يا سيّدي. مساء الخير. هل أجد عندكم غرفة لأنام فيها. بكلّ سرور سنعطيك غرفة مريحة. شكرًا لك، أحتاجُ لبطاقتك الشخصيّة، لأملأ بيانات الغرفة. لكنّي لا أملك بطاقة. كيف لا تملك بطاقة. ربّما تقصد أنّك قد أضعت بطاقتك. لا، يا سيّدي، فبطاقتي قد تركتها في محفظتي في جيب الثريّ الميّت. ولماذا تترك بطاقتك في جيب ميّت. لأنّ الميّت هو أنا، فقد متّ هذا الصباح في جثّة الرجل الميّت. لا بدّ أنّك مجنون. سأطلب لك السلطات، لترى ما قصّتك.

أنت الآن يا يوسف تحيا على هامش الزمن. تحيا وأنت ميّت، ميّت في جسد التاجر الثريّ، وقاتلٌ في جسد المتسوّل الفقير. أنت الآن يا يوسف غير موجود، لا انتماء ولا هويّة ولا مكان لكَ في هذا العالم. أنت لست حيًا ولست بميّت، شيء يشبهُ المادّة الخام قبل تشكّلها. شيء يشبهُ الأحلام، حيث يخلق فيها واقع، وأشخاص، وأحداث، ثم تتلاشى عندما نستيقظ. أنت يا يوسف لا مكان لك في عالمنا هذا، ولا مكان لك في العالم الآخر.

دخل حديقة عامّة، واختار زاوية هادئة، وجلس على

مقعد.

كان بعض الأطفال يلعبون في الجهة المقابلة، يقذفون الكرة في الهواء ثم يحاولون التقاطها، فإن التقطها أحدهم تعالت صيحاتهم. ينظر يوسف إلى الأطفال. ويتذكّر ذلك اليوْم في طفولتهُ، عندما تعب هو وأصدقاؤه من اللعب، وكانوا قد أنهكوا تمامًا، فجلسوا على الأرض وبدأوا يتحدّثون. أحسّ يوسف أنّ حجرًا صغيرًا قد دخل في حذائه، فخلع حذاءه ليخرجهُ، ونسي أنّ جوربيه ممزّقان. وعندما استدرك ذلك كان قد فات الوقت، ورأى أصدقاؤهُ الثقوب في جوربيه. لبس حذائه بسرعة، وتجنّب نظراتهم. أحسّ يوسف أنّ أعين الأطفال كانت تخترق جسده الضعيف، وأنّهُ عارٍ، عارٍ تمامًا في مواجهة العالم. وفي طريق العودة إلى منزله، وقف في إحدى الزوايا، وبكى.

الرابعة والنصف ظهرًا. لا بدّ أنّهم يستعدّون لدفنه الآن، دفن يوسف الفقير، الحارس الليليّ في مقبرة البلدة. ولا بدّ أنّهم اكتشفوا الجريمة الآن ويستعدّون لدفن ذلك التعس، ذلك الذي أدّى مروره في حياة يوسف إلى كارثة. لكنّ، هل يمكن أن يكونوا قد اكتشفوا ما قام به يوسف. في الصباح سيشتري جريدة، ويقرأها، علّه يحصل على أخبار عن جريمتيه. والآن، ماذا أفعل والليل يقترب؟ لا مكان آوي إليه، ولا ملجأ، أحمل الكثير من المال، لكنّي لا أملك بطاقة شخصيّة.

١٠

ذهب يوسف إلى أحد النُزُل الرخيصة في حيّ الفقراء ليجرّب حظّه. دفع الباب الحديديّ وطلب غرفة. بكلّ سرور يا سيّدي، فلدينا غرفة تطلّ على الساحة، وفيها حمّام، ودورة مياه، لكنّ أجرها مرتفع قليلًا. أمّا باقي الغرف الشاغرة، فالحمّام ودورة المياه مشتركة، وهي بسعر معقول. اتّفقا على سعر الغرفة بحمّام منفصل، عندها طلب موظّف المكتب من يوسف بطاقته الشخصيّة. إني مسافر من الجنوب، وقد هاجمتني مجموعة من اللصّوص في الطريق إلى المدينة، فسرقوا حقيبتي ومحفظتي، لكني كنتُ أحمل بعض النقود في جيبي الآخر فنَجت، سأذهب في الصباح إلى دائرة المحفوظات في بلديّة المدينة، لأطلب بدلا عن ضائع. ينظرُ إليه موظف الاستقبال، ويتفحّصهُ من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه، كمن يتفحّص عجلًا ليشتريه، أو ربّما في أزمنة قديمة، كمن يتفحّص جارية لتؤنس لياليه وتبثّ الدفء في فراشه. حسنا، لا مشكلة.. لكن في الصباح إذا أردت البقاء، يتوجّب عليك أن تحضر ورقة من دائرة المحفوظات. بكل تأكيد يا سيّدي. ناوله المفتاح، فصعد يوسف درجًا رخاميًا فقد مع الزمن لونه الأبيض الحليبيّ، وأصبح أقرب إلى البني. الغرفة رقم سبعة. دخل يوسف، ورمى جسده على السرير من دون أن يتفحّص حتى معالم الغرفة.

فتح عينيه على ظلمة شبه كاملة، لم يتذكّر بداية أين

هو. بدأ يحاول العثور على بصيص ضوء يأتي من أيّ مكان، كانت ستائر النافذة المفتوحة قليلًا تمرّر شعاعًا خافتًا من ضوء أصفر. نزل عن السرير، وبدأ يمشي ويتلمّس طريقه حتى اصطدمت قدمه بشيء صلب. تراجع ثم دار حول ذاك الشيء الصلب، وتابع طريقه حتى وصل إلى النافذة. فتح الستائر، ورأى جزئيًا ملامح الغرفة. بدأ يبحث عن زرّ الكهرباء على الجدران، فذهب نحو الباب، وتلمّس الجدار حتى وصل إليه، فأداره وأنار الغرفة. يرى الآن أنّ ما صدمهُ كانت طاولة صغيرة فقدت طلاءها البنّيّ. ورأى جانب السرير كرسيًا خشبيًا، وطاولة صغيرة أكثر ارتفاعًا من الأولى، لا بدّ أنّها من أجل الطعام. ذهب يوسف إلى دورة المياه ليقضي حاجته.

أيّتها السماء، هل يوجد شيء في الكون أكثر بشاعة وقذارة من هذا. كانتْ حفرة المرحاض عميقة، وقد تكلست عبر السنين، فنمت طبقة بنيّة فاتحة حولها، حتى بدت كمضّيق طبيعيّ في كهف قديم. نظر يوسف في عمق الحفرة. لا بدّ أن فوهة الجحيم تشبه هذا، تشبهُ خجلنا من مفرزاتنا البشريّة. لماذا نخجل من مفرزاتنا البشرية، ونذوب خجلا إن سألنا أحدهم عن مكان دورة المياه؟ لماذا نفضّل الموت أحيانًا على أن نطلب ممّن نزور الذهاب لقضاء حاجة؟ ذلك لا بدّ مرتبط بتراكم المحرّمات التي وصلتنا عبر آلاف الأجيال. قضى يوسف حاجتهُ، وخرج مسرعًا. بدأ يحسّ أنّ وحشًا

يتربّص بهِ موجودٌ في تلك القناة المتكلسة، شيء يشبهُ العقاب، أو حتى الشعور بالذنب الذي رافق البشريّة مع طفولتها الأولى. شيء يشبهُ الحنين إلى الهرب من كلّ شيء، والالتصاق بأوّل بركة صغيرة شكّلتها الأمطار في مكان مظلم. ينحني يوسف على معدته التي بدأت تغلي كمرجل، شيء يمزّق اللحم الحيّ ويفصلهُ فيقطرُ دمًا. وصل الألم إلى واحدة من قممه، فزحف يوسف، ودخل الحمّام هذه المرّة، وأفرغ معدتهُ في المغسلة الصغيرة. كانت تقلّصات معدتهِ تشبهُ آلام المخاض المانحة الحياة الجديدة. يوسف يتصبّب عرقًا، وطعم المرار في فمه لا يطاق. فتح صنبور المياه وغسل مخلفات معدته، ثم بيديه شرب الماء البارد، فأحسّ ببرودةٍ في معدته. الحمّامُ الآن ربّما يعطيه نفَسًا جديدًا، يغسل عنهُ ماضيه، وانكساراتهِ وأحلامهُ القديمة، أو ربّما يغسل عنهُ لاانتماءه، وجرائمهُ الثلاث، وأشياء أخرى. فتح صنبور الماء الساخن. انتظر يوسف كثيرًا، لكنّ الماء بقي باردًا. لا مياه ساخنة هنا يا يوسف، هذا حيّ الفقراء يا رجل. أتعتقدُ أنّك في حمّام ذلك القصر، حيث تستحمّ المرأة نصف العارية. هذا حمّام للفقراء يا يوسف، حمّامٌ يغسل ذنوبًا صغيرة، ذنوبًا كشهوة الخبز وشهوة المرأة وشهوة الحياة. حمّامًا يحتاج لماء ساخن لتتحلّل فيه دهون الموائد العامرة، وشبق الليالي الحمراء! قم يا يوسف، واستحم بماء بارد.

استحمّ يوسف بماء بارد. كان يرتجف وقد فرغت

معدته من كلّ شيء. رغوة الصابون الرخيص فوق جسده أعادت بعض الحياة إليه، حتى إذا انتهى، جفّف جسده النحيل بمنشفة كانت معلقة خلف الباب. خرج يوسف، وارتدى ملابسه بسرعة، ودفن نفسه تحت أغطية السرير. ظلّ يرتجف حتى عاد بعض الدفء إلى جسده، فغادر السرير، وارتدى معطفه، ثم جلس على الكرسيّ الخشبيّ. تلمّس في جيبه مفاتيح القصر، فأحسّ بالأمان، وابتسم. نظرَ حولهُ، ولاحظ وجود كتاب سميك على الطاولة الواطئة، فجلس على السرير، وسحب الطاولة نحوه، وفتح الكتاب، إنّهُ دليل الهاتف في المدينة.

أخرج الورقة التي نسخ عليها خانات شهادة الوفاة. وبحث عن اسم التاجر الميّت في الدليل حتى وجده، فنسخ رقم هاتفه أسفل الورقة. لو أنّهم يذكرون في دليل الهاتف من يسكن المنزل مع المشترك، لعرف يوسف من تكون المرأة نصف العارية. لكنّهم في دليل الهاتف لا يقولون الكثير.. الاسم الكامل، ورقم الهاتف فقط. لكن من تكون المرأة نصف العارية، سؤال أجّلهُ يوسف طويلًا حتى يؤخّر الاصطدام بالواقع، كمن يؤخّر خطاه وهو ذاهبٌ إلى معركة خاسرة. تحسّس يوسف ما بقي في جيبه، اسم السائق المسكين، الذي اعتقد وصدّق أنّ يوسفَ يملك شركة تصدير، ورزمة النقود الكبيرة. بدأ يوسف يشكل الأوراق النقديّة في صفوف عموديّة وأفقيّة على الطاولة، يتأمّلها ويبتسم. كانت

ورقة واحدة من هذه ستجعله سعيدًا قبل يوم ونصف اليوم. كان سيذهب إلى سوق البلدة. صباح الخير يا سيدي. صباح الخير يا يوسف. جئت أشتري درّاجة ناريّة، فقد أمطرتني السماء مالا. ما رأيك بهذه؟ رائعة. يتّفقان على السعر. حسنًا تفضّل. ثم يقود يوسف الدرّاجة مخترقا القرية عند السوق. لكنّ يوسف الآن هنا في المدينة، بلا هويّة!

وضع كلّ ثمن الساعة الذهبيّة في جيب مخفيّ في معطفه، وأبقى المال الذي حصل عليه من مبادلة الثياب مع ما أخذه من مدّخراته الفقيرة في الجيب الظاهر. الساعة الآن هي الحادية عشرة. يوسف بعد أن أفرغ أحشاءهُ، عاد يحسّ بالجوع، فقرّر الذهاب إلى مطعم قريب. مساء الخير يا سيّدي موظف الاستقبال. مساء الخير أيّها الغريب. هل يوجد مطعم شعبيّ قريب من هنا. نعم، عليك الالتفاف خلف الحديقة العامّة، والسير شرقا، ستجد سوقا فيها الكثير من المطاعم. وهل تعتقد أنّها ما زالت فاتحة أبوابها. بعضها لا يغلق حتى الرابعة صباحًا. اسمع أيّها الغريب، إن عدت متأخّرًا، ولم تجدني، فبإمكانك الصعود إلى غرفتك مباشرة، ولا داعي لإيقاظي. حسنًا سأفعل.

في المطعم، طلب يوسف هذه المرّة طعامًا خفيفًا، حساء الخضار مع فطائر الجبن وكأسًا من اللبن. كانت رائحة الطعام محبّبة جدًا، فبدأ يأكل بشهيّة، عندما انتبه أنّ أحدهم يمرّ أمام واجهة المطعم. كان الرجلُ يكنس

الشارع، ويجمع الأوساخ، ثم يرميها في عربته القذرة. نظر نحو الطعام في واجهة المطعم، ثم تابع عمله. كان في وجهه شيء من الألم، ألم ممزوج بالحسرة والتعب. بقي يوسف ينظرُ إليه، وقد نسي أمر الطعام، ثم ذهب نحوه. هل تقبل هذه الفطائر يا سيدي، فلم يعد بي جوع. نظر الرجل في عيني يوسف، وهمّ لقول شيء ما، لكنّ يوسف لم يعطه الفرصة، فوضع الطعام في يده، وعاد إلى الداخل.

الرجل يأكل خارج المطعم، وينظر إلى يوسف الذي كان يتجنّب نظراته. انتهى يوسف من طعامه، فدفع ما ترتّب عليه وهمّ بالخروج. لكن عامل النظافة قطع عليه طريقه، وهمس: شكرًا لك. ثم استدار، ومشى. كان ظلّ الرجل الفقير، وعربته المتهالكة تحت أضواء الليل الصفراء في المدينة، يسقطان فوق بقع الماء الصغيرة، فيرسمان بؤسًا باردًا في هذا الليل. لا بدّ أنّها أمطرت وأنا نائم، يقول يوسف، ويعود نحو النزُل.

نام يوسف ليلته بأحلام متقطّعة. كان المتسوّل القتيل في الحلم يعاتبهُ. لماذا قتلتني لم أقصد قتلك، صدّقني.. فأنت من هاجمني، وأردت فقط إبعادك عنّي. لم أكن أهاجمك، كنت أريد فقط الاقتراب منك، وأرجوك حتى تعطيني بعض النقود. سامحني. كنت أريد بعض النقود لأشتري رغيفًا. سامحني. ثلاثة أيّام لم أذق الطعام، فذهبت إلى المخبز، ورجوتهم أن يعطوني رغيفًا من خبز الليلة الماضية، أو الليلة التي قبلها. نهروني، وقالوا،

يمكننا بيعه لأصحاب الحيوانات. سامحني، أرجوك، كيف يمكنني إعادة الزمن إلى الخلف لأعطيك ليس نقودًا، بل سنين بقيت من عمري. لقد قتلتني وأنا جائع، قتلت رجلًا جائعًا كانَ يريد رغيف خبز. استيقظ يوسف وهو يبكي. كانت الوسادة مبللة عن آخرها. بقي جالسًا في سريره حتى أشرقت الشمس، وكلمات القتيل الجائع تحزّهُ كما تحزّ شاةٌ في صبيحة عيد.

قام من سريره، واتجه نحو المغسلة، ليس أفضل من الماء البارد لغسل الذنوب والتعب. كان ماء الصنبور باردًا جدًا، باردًا لدرجة اضطرّت يوسف لسحب يديه وهو يرتجف، فجففها بسرعة. يجب أن أغادر الفندق قريبًا. ارتدى معطفه وحذاءه، وسارع في الخروج، لكنّهُ وقف قبل أن يفتح الباب. عليه الذهاب إلى المرحاض ليقضي حاجته، لكنّ صورة ذاك التضيّق في حفرة المرحاض عاد يقفز في خياله كمشهد من كابوس. ليس أمامك خيار آخر، يجب أن تذهب إلى المرحاض. لا، لن أدخل ذاك المكان حتى وإن كان الثمن حياتي. فتح الباب وخرج. صباح الخير سيّدي، موظّف الاستقبال. صباح الخير أيّها الغريب. سأغادر الآن. حسنًا، ولا تنس أنّك إن أردت العودة فيجب إحضار إشعار من دائرة المحفوظات في بلديّة المدينة لتثبت هويّتك. حسنًا، سأفعل. عذرًا سيّدي موظّف الاستقبال، هل أجد مرحاضًا هنا، فقد نسيت المرور بمرحاض الغرفة عند ذهابي. نعم، هناك واحد في نهاية الممرّ. شكرًا يا سيّدي،

مع السلامة. مع السلامة أيّها الغريب.

اشترى يوسف جريدتين اثنتين من المكتبة في الشارع المجاور، ثم مرّ في طريقه بمخبز، فاشترى رغيفًا ساخنًا وذهب إلَى الحديقة. الثامنة والنصف صباحًا. كانت الحديقة شبه خالية إلا من بعض العجائز، خرجوا إليها بعد ليلة مؤرقة. تصفّح الجريدتين، ولم يقرأ شيئًا عن جريمة حدثت في البلدة، أو عن جريمة تزوير في جثّة ميّت. لقد سارت الأمور بخير. تابع في الجريدة الثانية حتى وصل الصفحة الاجتماعيّة، وهناك قرأ نعيًا للتاجر الميت، صاحب الشركة العالمية للتجارة خلف البحار. يذكر يوسف أنّ هذه الشركة مشهورة جدًا، فالكثيرون من سكّان البلدة القديمة كانوا ينتقلون إلى المدينة للعمل بها. تصدّر هذه الشركة الأسماك إلى بلدان الشمال، وتستورد منها الأدوات الكهربائيّة. هذا ما يعرفهُ يوسف عن الشركة، فقد عمل فيها أحد جيرانه لفترة، حتى إنّ يوسف تقدّم بطلب للعمل فيها، لكنّهم لم يقبلوا طلبه.

الصباح في الحديقة يشبه صباحات البلدة. في العمق، حيث جلس يوسف، لا أثر لأصوات السيّارات، ولا لازدحام الشارع. كان المكان أشبه بجزيرة منعزلة في قلب مدينة. مرّت امرأة مع ابنها الصغير، وجلست بالقرب من يوسف. كان الصغير يركضُ حتى يصل السور المعدنيّ ثم يعود جهة أمّه، والأمّ التي كانت تراقب طفلها، كانت تعطيه في كلّ مرّة يعود قطعة من

حلوى كانت تحملها. أخرج الطفل كرة كانت في حقيبة جانب الأمّ، وبدأ يقذفها عاليًا، ثم يلحق بها. قذف الطفل الكرة جهة يوسف، فاصطدمت بقدمه. يوسفُ الذي ابتسم للطفل، حمل الكرة وذهب ليُعيدها إليه، لكنّ الطفل الذي رأى غريبًا يقترب منه، خاف واحتمى بأمّه. مدّ يوسف الكرة للأمّ، عذرًا يا سيّدتي إن كنتُ قد أخفت الصغير. بل عذرًا منك يا سيّدي لإزعاجك بالكرة، وشكرًا لك. لا عليكِ يا سيّدتي، فإنّ الأطفال هم أجمل ما في الدنيا. ابتسمت المرأة، وعاد يوسف إلى مقعده.

لَا بدّ أن يقرّر يوسف الآن ماذا سيفعل. لا يمكنهُ أن يبقى متسكعًا دون مأوى، فإن كان موظف الاستقبال أعطاه غرفة بغير بطاقة شخصية، فربما لن يفعلها غيره. ثم إنه لا يستطيع العودة إلى ذلك النزل، لأنّ موظف الاستقبال طلب في حال عودته إشعارًا من دائرة المحفوظات في بلديّة المدينة لإثبات هويّته. فإن ذهب يوسف إلى دار المحفوظات في بلديّة المدينة. صباح الخّير يا سيّدي موظّف السجلّ. صباح الخير يا مواطن. أريد أن أبلغ عن هويّتي الضائعة واستصدار بدل عنها. حسنًا ما هو اسمك. هنا المشكلة، ما اسمهُ الآن، ومن هو، وكيف أضاع بطاقته، وأين يسكن، وعشرات الأسئلة. فإن لفّق يوسف أيّ اسم، فسينظر الموظّف في السجلّ ويكتشف كذبه، وحتى إنّ أعطاه اسمًا حقيقيًا لشخص حيّ موّجود، فإنّهم سيتّصلون بالشخص للتأكّد.. ربّما. يوسف غير متأكد من هذا. لكن ماذا لو

قال أنا يوسف، وأعطاه اسمه الكامل؟ لا، هذًا جنون مطلق. سيكتشفون مباشرة كذبه، فالميّت لا يطلب بدلا عن بطاقته، بل ذلك حكرٌ على الأحياء.

يوسف لا يدري ماذا يفعل الآن، أيعود إلى القرية ويعترف بكلّ شيء؟ لا، فإنّهم سيدخلونه سجن البلدة، وهناك لا شكّ أنّ حفرة المرحاض تشبه تلك التيّ في النُزل. يوسّف يحسّ أنّهُ دخل في دوّامة تسحبه للعمق، وكلما حاول التخلص منها علِقَ فيها أكثر. حتى وإن فكّر في الهروب عبر البحر نحو دول الشمال، فالسفر يحتاج لبطاقة سفر، وتلك تحتاج لبطاقة شخصيّة، العودة إلى النقطة ذاتها.

انتفض يوسف واقفًا. أيّتها السماء المقدّسة، كيف فاتني ذلك، أنا ما زلت حيًا في سجلّات المدينة. شهادة الوفاة التي صدرت ليوسف البارحة في القرية، ستبقى في أرشيف المقبرة لبضعة أيّام، ثم ستنتقلُ إلى دار المحفوظات في البلدة، وستبقى هناك لأسبوعين أو ثلاثة، ثم ترسل إلى دار المحفوظات في المدينة. ستحتاج قرابة الشهر لتصل المدينة، يوسف سيبقى حيًا لشهر أو أكثر في سجلّات المدينة.

خرج من الحديقة ومرّ بسوق السمك. كانت رائحة السمك كثيفة لدرجة يمكن إمساكها باليد. رائحة في هذا الصباح لا تشبهُ بأيّ حال رائحة مرج أخضر. قطع يوسف السوق بسرعة حتى وصل إلى محلّ بقالة في نهايته. دخل واشترى كأسًا من القهوة. عذرًا يا سيّدي،

هل لي بسؤال. تفضّل. أين تقع دائرة المحفوظات في بلديّة المدينة؟ إنّها في الحيّ الرابع، وعليك أن تركب الحافلة. كتب يوسف العنوان، وشكر البائع، ثم فتح الباب ليخرج. لكنّ اليوم وغدًا عطلة يا سيّدي، والدائرة مغلقة. يمكنك الذهاب بعد غدٍ. نظر يوسف نحو البائع كمن يريد أن يتأكّد أنّ الكلمات تطابق ملامح الوجه، وحركات اليدين، والشفاه. ابتسم كمن أجبر على الابتسام. شكرًا لك يا سيّدي البائع، وخرج.

ها هي الأبواب تغلق في وجهه تباعًا، سيبقى يومين كما هو، رجل بلا هويّة. ركب الحافلة المتّجهة نحو دائرة المحفوظات المغلقة. الحافلة كانت شبه خالية في صباح يوم العطلة، فاختار مقعدًا في المؤخّرة وجلس. كان ينظرُ من النافذة فيرى الأبنية تمرّ تباعًا، أبنية سكنيّة ومحالّ تجاريّة ومدارس. المدينة خليط عجيبّ من الألوان والأحجام، شيء يشبهُ الفوضى، الفوضى غير المنظمة. إن كان للقبح جسد، فلا شكّ هو هذه المدينة. بدأت تمطر في المدينة. يفكر يوسف أنه لو غادر المقبرة كعادته في السابعة صباحًا، لرأى حقول الذرة تتمايل على وقع حبّات المطرّ. ولرأى على ضفة النهر اصطدام المطر بصفيح المياه، تتشكل فقّاعة آنيّة في شبه مقاومة للنهر لتغيير توازنه الأفقيّ، ثم يبتلعها النهر ويضمّها إليه. ولرأى سوق البلدة وهو يستعدّ لصباح جديد، ولاشترى في طريق عودته رغيفين من الخبز الساخن من أجل وجبة الصباح.

يحاول يوسف أن يخرج رأسه من النافذة الزجاجيّة، ثم يستدير بنظره نحو الخلف حتى يصطدم نظره بمؤخرة الحافلة. إنّها هي، لا شكّ هي، المرأة نصف العارية تمشي على الرصيف المقابل. ركض نحو مقدّمة الحافلة. عفوًا سيّدي السائق، هل يمكنني النزول هنا. يجب أن تنتظر حتى الموقف القادم للحافلة. وهل يستغرق الكثير من الوقت. دقيقتين أو ثلاث. بقي يوسف واقفًا قرب الباب حتى توقّفت الحافلة، فنزل ومشى بالاتجاه العكسيّ لسير الحافلة حتى وصل إلى المكان الذي يعتقد أنّه رآها فيه. عودته استغرقت أكثر من عشر دقائق، والمرأة لا بدّ أنّها تابعت طريقها، أو دخلت إحدى المحلّات التجاريّة. وقف في المكان نفسه وبدأ ينظر إلى الأبنية المحيطة، المنطقة تبدو سكنيّة ولا أثر لأيّ محل تجاريّ. ربّما كانت تمارس رياضة الصباح، لكنّ القصر بعيد جدًا من هنا، قد يستغرق المشي إليه أكثر من ساعة. أو ربّما ليست هي، فيوسف لا يعرف حتى ملامحها. سار يوسف في الاتجاه المفترض لسيرها، فهو لا يملك خيارًا آخر. قطع شارعين، ثم التفّ ليعود، ويأخذ الحافلة من جديد حين رأى في زاوية الشارع حديقة عامة. ربما تكون قد دخلت لتستريح قليلا خلال رياضة الصباح.

الحديقة خالية تمامًا من النظرة الأولى، والهدوء فيها شبه مطلق، مع أنّ الساعة تجاوزت العاشرة بقليل. لا بدّ أنّ سكّان المدينة ما زالوا نائمين بعد أسبوع من العمل.

جلس يوسف على مقعد خشبيّ، قرب بركة حال لون الماء فيها داكنًا. تحسّس مفاتيح القصر من جديد، ومن جديد سرى فيه شيء يشبهُ الألم. فكّ رباط حذائه، وخلع جوربيه، فتحرّرت قدماهُ وبدأ يدوس على العشب حافيًا. ثم تمدّد على العشب، ووجهه باتجاه الأرض. تشمّم يوسف رائحة التراب، فأحسّ أنّهُ في البلدة القديمة وقد عاد صغيرًا يذهب إلى الحصاد. ثم اعتدل، وجلس على العشب، وبدأ ينظرُ جهة الشارع. كان كلّ شيء في المدينة ساكنًا، حتى حركة المرور قليلة، وأمّا السابلة فشبه معدومة. عاد وجلس على المقعد، وأخرج إحدى جرائد الصباح ليتابع قراءتها. حروبٌ واحتفالات فنيّة، وقضايا اقتصاديّة. الأخبار نفسها تتكرّر كلّ يوم، مع تغيير في بعض الأسماء. ودّ يوسف أن يطالعهُ يومًا خبرٌ في الجريدة يقول، لقد اكتشف الإنسان سرّ الخلود، أسوة بعشبة جلجامش، أو الحياة الأبديّة في الكتب المقدّسة، أو مثلًا تمّ القضاء نهائيًا على مشكلة الموت جوعًا في بلدان العالم الفقيرة. لكنّ هذا يبدو بعيدًا جدًا. لبس حذاءه، وفكّر أنّهُ حان وقت المغادرة، ومتابعة الطريق نحو دائرة المحفوظات في الحيّ الرابع، عندما رآها تدخل الحديقة من باب جانبيّ.

المرأة لم تنتبه لوجود يوسف، بل تابعت طريقها، وجلست على مقعد في آخر الحديقة. أهي المرأة نصف العارية، أم ربما امرأة أخرى، جاءت تقضي وقتًا هادئًا في يوم العطلة هذه؟ المسافة بينهما لا تظهر ملامحها

كثيرًا، ولا يستطيع أن يحكم من هنا إن كانت هناك نقطة سوداء صغيرة أسفل الشفتين. ولا يمكنهُ مثلًا الذهاب إليها. صباح الخير سيّدتي. صباح الخير. عذرًا لإزعاجك في صبيحة العطلة هذه. لا بأس. هل لي بسؤال. تفضّل. هل أنت المرأة نصف العارية، التي كانت تنام في غرفة من الممرّ شبه المظلِم، في القصر ليلة دفن التاجر الغنيّ. نعم، أنا هي. المرأة التي حلمت بها في سهل أخضر، قبل أن يظّهر الجنرال ويفصل ذراعيّ عن جسدي. نعم، أنا هي. كنت متأكدًا أنّك أنت هي. والآن بعد أن عرفت، هل من خدمة أقدّمها لك أيّها القاتل؟ لا، شكرًا يا سيّدتي، لا شيء. حسنًا مع السلامة. مع السلامة سيّدتي. أو ربّما. لا لستُ أنا بالمرأة نصف العارية. آسف لإزعاجك. لا بأس، ولكن يجب عليك المغادرة بسرعة، لأنّ خطيبي قادم، وإن هو رآك تحادثني، فهم في الأمر شيئًا خاطئًا. عذرًا مرّة أخرى. لا بأس. مع السلامة. مع السلامة.

الأشجار في الحديقة العامّة لم تفقد كلّيًا بعدُ أوراقها الخضراء. كانت بعض الأشجار تحمل نصف أوراقها، وبعضها شبه عارية. تهبّ رياح بدايات الشتاء، فتكنس الأوراق، وتبعدها ثم تعيد كنسها في دورة أزليّة. تجتمعُ مرّة هنا، ومرّة هناك. ينظرُ يوسف إلى الأوراق، ويفكر أنّ مصائرها تشابهُ مصائر البشر، فأين تهبّ الرياح تذهب معها. انتبه أن المرأة نصف العارية تتحرّك في مقعدها، ربّما تتمايل على وقع أغنية، تسمعها، أو أنّها

تهم بالوقوف، لتتابع طريقها. ولو أن يوسف امتلك الجرأة ليقترب، لرأى نقطة سوداء أسفل شفتيها، وشعرًا أسود يستطيل أسفل الكَتفين، ولأيقن دون أن يعرف ملامح المرأة نصف العارية، أنها هي. لكنّ يوسف جالسٌ في مكانه، لا يتحرّك. كعادته تمرّ به الأشياء، فيهبّ لاعتراضها فقط عندما تختفي.

وقفت المرأة، وخرجت من الباب نفسَه الذي دخلت منهُ. التفَت عند تقاطع الشّارع، وتابعت في اتجاه عكسي لاتجاه الحَافلة، حتى غابتْ كليًا بين الأبنية. لا شكّ أنّها ليست هي، يفكر يوسف، وإلا لقادهُ شيء ما إليها. ربّما كانت امرأة استيقظت باكرًا بعد ليلة لم تفعل فيها الكثير، لم تشاهد مسلسل السهرة، لأنّهُ مملّ. ثم حاولت أن تقرأ كتابًا، فوقع في يديها الجبل السحريّ لتوماس مان.. ربّما، وبدأت في القراءة، حتى وصلت إلى المكان الذي يذهب فيه ذاك الشابّ «هانز كاستورب» لزيارة ابن خالته في المنتجع المخصّص لمرض السلّ، أو ربّما وصلت أبعد من هذا، حتى لحظة اكتشافه أنّهُ هو أيضًا مصاب بالسلّ، أو ربّما حتى لحظة موت ابن خالته مثلًا. لا بدّ أنّها قالت هذا حزين، ثم أغلقت الكتاب ونامت. أو أنّها ربّما ذهبت مع صديقها لتناول العشاء في أحد المطاعم، ثم اكتشفت أنّهُ أحمق، فقالت لهُ، لا أستطيع البقاء معك، فعذرًا وعادت إلى بيتها ونامت. أو ربّما شاهدت مع ابنها الصغير فيلمًا في السينما، ثم أخذتهُ إلى منتجع ما، وعادت مرهقة، فنامت

باكرًا واستيقظت باكرًا. المرأة يمكن أن تكون امتلكت في الأمس مليارات الاحتمالات لحياة، ويمكن أن تمتلك في الغد مثلها. تلك الرغبة لنعرف تفاصيل حياة الأشخاص الذين نمر بهم في حيواتنا مرورا عابرًا، هي الرغبة في امتلاك تفاصيل أكثر لقصص وحوادث، وأشخاص، نضيفها إلى ذاكراتنا بداية ثم تصبح جزءًا منّا. تمامًا كفعل قراءة القصص، نقرأ قصصًا، ونحبّ أن نلمّ بتفاصيل حياة الآخر، رغبة منّا في إثراء حيواتنا القصيرة وفي إضافة أحداث وهميّة نسرقها فتصبخ ملكنا. نسرق حيوات الآخرين، ونخزّنها في الذاكرة بداية، ثم في غياهب العقل الباطن، لنُطيل - وهميًا - أعمارنا. أو بكلمة أوضح، لنرفض الفناء، الفناء المتجسّد في الموت.

عاد يوسف واستقلّ الحافلة التي ستمرّ قرب دائرة المحفوظات في بلديّة المدينة. عذرًا سيّدي السائق، هل لك بإخباري متى وصلنا لدائرة المحفوظات في بلديّة المدينة. حسنًا، سأبلغك. شكرًا لك. الحافلة تسير في طرقات شبه خالية، مع أن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة والنصف صباحًا. شيء غريب في هذه المدينة، فحتى البلدة القديمة في الشرق تبدو أكثر ازدحامًا في أيّام العُطل. جلس يوسف قرب رجل كان يقرأ الجريدة. عفوًا سيّدي، هل لي بسؤال. نعم. لمَ حركة السير جدّ خفيفة في المدينة، مع أنّ الوقت سيدخُل في الظهيرة. أعلم أنّها عطلة المدينة، لكن هل هذا طبيعي هنا؟ حسنًا،

هناك عطلة الأسبوع يومان، ثم في اليوم الثالث عطلة أيضًا، فهو العيد الوطنيّ. وعطلة من ثلاثة أيّام يذهب فيها الكثيرون لقضاء إجازاتهم خارج المدينة.

هذا يوم إضافيّ ليوسف ليبقى بلا هويّة. ينظرُ يوسف في يدي الرجل تقلبان الجريدة، ويسأله مجددا كمن لم يصدق في المرّة الأولى، إذ ستغلق دوائر الدولة لأيّام ثلاثة. هذا صحيح وفي اليوم الرابع ستعود الحياة للمدينة. شكرًا لك يا سيّدي. تابع الرجل تصفح الجريدة. يوسف الذي غرق من جديد في حساباته الخائبة، لم ينتبه بداية لنداء السائق، فكرّر الأخير النداء. من سألني عن دائرة المحفوظات في بلديّة المدينة، سنصلها في التوقّف القادم للحافلة. إنّهُ أنا، شكرًا لك يا سيّدي السائق. تقدّم يوسف نحو الباب الأماميّ للحافلة، وانتظر قليلًا، حتى توقّفت. فأشار السائق نحو بناء ضخم على الجهة اليُسرى للطريق. هذه دائرة المحفوظات في بلديّة المدينة، لكنّها اليوم مغلقة. نعم يا سيّدي، أعلم ذلك.. لكنّني في زيارة لصديقي الذي يسكن قريبًا من هنا. ونزل يوسف من الحافلة.

بناء دائرة المحفوظات في بلديّة المدينة يبدو كشيء خرج من العدم في لحظة لاانتباه، شيء سقط من يديْ الخالق، وهو يشكّل الأشياء، فالتقطه على عجل، وعالجه بسرعَة، ثم رماه من جديد. شيء ما يجعل العين تبتعد عنه في أيّ اتجاه. يرتفع لأكثر من خمسة عشر طابقًا، في منطقة لا يبلغ فيها ارتفاع الأبنية أكثر

من أربعة طوابق. يحيطُهُ سور عال، يفصلهُ عن البناء ما يشبه الحديقة، أو ربّما أرضٌ جَرداء، لأنّ السور لا يسمح للعين برؤية شيء في الداخل، اللهمّ إلا الطوابق المرتفعة. ولو أنّ جنديًا أو جنديّين وقفا أمام الباب الحديديّ الضخم بأسلحتهما، لما شكّ الناظر أنّهُ أمام قطعة عسكريّة، بل ربّما منشأة عسكريّة بالغة السرّيّة.

لا بدّ أنّ سائق الحافلة قد أخطأ. لا يمكن أن يكون هذا الذي يراه يوسف الآن مكانا تحفظ فيه السجلات المدنية لسكان المدينة وتوابعها. دار يوسف حول البناء، وعاد إلى النقطة التي انطلق منها. لا، هذا ليس دائرة المحفوظات في بلديّة المدينة، هذا شيء آخر. مشى يوسف قليلا في الشارع، حتى وصل تقاطعين فالتفّ يسارًا، وتابع سيره.

ما زال يرى المبنى الذي أصبح في الجهة اليسرى رغم بعد المسافة. مشى يوسف، حتى اختفى المبنى خلفه. وجد مقهى، فدخلهُ وطلب كأسًا من الشاي. جاء الصّبيّ بالشاي، فسألهُ يوسف: عذرًا، هل لي بسؤال؟ تفضّل بكل تأكيد. أهذا البناء الذي يظهر هناك هو دائرة المحفوظات في بلديّة المدينة. نعمّ يا سيّدي، لكنّهُ ليس فقط دائرة المحفوظات، بل بلديّة المدينة كلها. تعَني كلّ دوائر البلديّة. بل دوائر البلديّة؟ ومديريّة شرطة المدينة كلها هنا، وحتى السجلّات العقاريّة، والكثير من الهيئات. فهذا هو السبب في ضخامة المبنى. نعم يا سيّدي. شكرًا لك. ووضع يوسف في يد الصبيّ ورقة نقديّة،

فشكره الصبيّ، وغادر. المدينة بأسرها في هذا البناء العملاق، فهم ليسوا بحاجة للاتّصال بالأمن في حال شكّوا في أمر أحدهم، فالأمن هناك. حين سأدخل هناك، يفكر يوسف، سأدخل في وكر للذئاب.

ترك المقهى والمبنى العملاق خلفه. ثم التفت ليلقي نظرة أخيرة على البناء، ففهم كلّ شيء. أمام الباب الخلفيّ للبناء توجد نقطة حراسة، يخرج منها جنديّان بسلاحهما، ويلتفّان في جهتين مختلفتين حول البناء، حتى يعودا إلى النقطة نفسها بعد دورة كاملة. يوسف لم يرهما عندما كان أمام الباب الرئيس للبناء، لأنهما كانا عندها في الجهة الخلفية. هذا بناء حصين جدا. بناء تنبع بشاعتهُ في أنّهُ يحمل في داخله دورة الشرّ كاملةً.

يوسف الآن على الحدود الفاصلة بين المدينة ومنطقة الأغنياء. يكفيه السير لعشر دقائق، ويجتاز ذلك الحدّ الوهمي الذي يشطر المدينة نصفين. لكنّهُ الآن قريب جدّا من الشركة العالميّة لتجارة ما وراء البحار. يعرف موقع الشركة جيّدًا، الشركة التي حاول العمل فيها فرفضتهُ. كانت الشركة مقفلة في يوم العطلة هذا، فالأبواب مغلقة. هناك حارس يجلسُ خلف حاجز شفّاف لحراسة المبنى، الرجل كان يشاهد التلفاز، ويشرب الشاي. يبدو من هيئته، التي تشبه هيئة يوسف، أنّه من أبناء المناطق المجاورة وليس من المَدينة. اقترب يوسف من الحارس حتى أصبح يواجه الزجاج الشفاف. الحارس غارق في عالمه، ولا ينتبه لوجود يوسف. فتح

يوسف فمه ليقول شيئًا، لكنّه غيّر رأيهُ في آخر لحظة.. وتابع السير. مشى حتى وصل منطقة الأغنياء. القصر ليس بعيدًا، يفكر يوسف، ويتحسّس المفاتيح في جيب معطفهِ. أصبحت المسافات بين الأبنية كبيرة، تصل لحدود الخمسين مترًا، أحيانًا، أو أكثرالهواء يبدو هنا أقلّ كثافة في منطقة تكثر فيها الأشجار، والمناطق الخضراء، ويقلّ فيها الإسمنت. وجود رجل بتلك الهيئة هنا، لا بدّ سيكون مميّزًا وواضحًا، فالمنطقة خالية من المارّة ومن السيّارات.

كلّ السيّارات متوقّفة أمام البيوت التي تشبهُ القصور، والسكون شبه مطلق. فإن رأى أحدهم يوسف يتسكّع في الشوارع الآن بين قصور الأغنياء، لا بدّ سيشكّ بأنّهُ لصّ، أو ربّما شخص شرير جاء ليرتكب جرما ما. غادر المكان يا يوسف. فأنت هنا في وضح النهار طفيليّ شاذ عن المشهد، كقطعة حديد صدِئ في حفنة مجوهرات.

لكنّ يوسف لا يغادر بل يتابع طريقه جهة القصر، القصر الذي دخله تلك الليلة ورأى فيه المرأة نصف العارية تستدير، لتعود تنام في غرفتها نهاية الممرّ نصف المعتم. لكنّ، ماذا لو كانت المرأة في اللحظة نفسها خرجت للتسوّق مثلًا، فيراها يوسف تغلق باب القصر خلفها وتتقدّم باتّجاهه. ماذا تفعل هنا أيّها الغريب؟ لا شيء يا سيّدتي، فقد قذفتني الريحُ هنا. الريحُلا تقوى على حمل الأشخاص بمفردها، إذ لا بدّ من الإرادة. لم أمتلك الإرادة يومًا يا سيّدتي، حتى الليلة البيضاء في

المقبرة، لم يكن لي فيها إرادة. حين بادلت حياتك بحياة ميّت. نعم، هذا صحيح. وماذا أنت الآن؟ أحيا على الهامش، كحياة كلّ من مرّ في هذه الأرض، لكنّ حياتي الآن سريعة، كدورة حياة فراشة تحت المجهر. لكنْ، هل لي بسؤال؟ تفضّل أيّها الغريب. من أنتِ يا سيّدتي، هل أنت زوجه التاجر الميّت، أم أنّكِ امرأة أخرى؟ أنا المرأة نصف العارية التي سحرتك في ليلة القصر، فكنت تنظر في جسدها كفعل إنسانيّ سلبتهُ منك المدنيّة.

بوّابة القصر كانت مغلقة. والقصر كغيره من الأبنية المحيطة يغرق في السكون، ولولا صوت الطير تأتي من الجبل غير البعيد لكان السكون هنا مطلقًا، كالأرض قبل أن تهيم فوقها روح الخالق.

مرّ يوسف بالباب. ثم توقّف ينظر في نوافذ القصر، كانت إحدى النوافذ مفتوحة في الطابق العلوي، وخلفها كانت الستائر البيضاء تتمايل مع النسيم. هي غرفة النوم الملكيّة الكبرى ربّما! ويوسفُ الذي رأى القصر ليلًا من الداخل لم يتأكّد من ذلك، كما أن معالم الغرفة من الداخل غير واضحة. لكن إن كانت هي الغرفة الملكيّة الكبرى بنافذة مفتوحة، فربّما لم يدخل القصر أحد منذ غادره يوسف، أو أقلهُ لم يدخل أحد تلك الغرفة.

هل تبحث عن شيء معيّن؟ صوت رجل يأتي من الجهة الخلفيّة. يلتفت يوسف، ويرى أمامهُ رجلًا في منتصف العمر، تدلّ هيئتهُ وملابسه الفاخرة أنّهُ من سكّان الحيّ. ينظرُ الرجلُ إلى يوسف، يتفحّصهُ، وفي

عينيه تساؤلات كثيرة. يوسف الذي أخذتهُ المفاجأة كليًا حارَ جوابًا، فوقف الرجلان وجهًا لوجه في لحظات صمت طالت. كان كلّ منهما يتفحّص الآخَر حتى كسر يوسف الصمت. جئت هنا لأنسَقَ حديقة، وأقلم أشجارًا في أحد المنازل، فأنا جنائنيّ.. وأيّ منزل بالتحديد تبحث عنه؟ علي أساعدك! الرجلُ لن يتركهُ في سلام، ويريد معرفة المنزل، ويوسف ليس لديه أدنى فكرة عن الكذبة التي كذبها قبل قليل. لن يخبره باسم التاجر الميّت، فهذا مستبعد. علّهُ يكذب أيضًا، ويخترع اسمًا ما. لكنْ لمَ يصرّ ذلك الرجل المتطفل لمعرفة سبب وجود يوسف هنا؟ يوسف يجيبه بحزم: لا بأس، يمكنني إيجاد المنزل بمفردي، شكرًا لك. والتفت يوسف ليغادر في اللحظة التي فتح الرجل فمهُ ليقول شيئًا. مشى يوسف قليلًا، ثم التفت ليرى إن كان الرجل ما زال هناك. فرأى امرأة تقف خلف نافذة غرفة النوم الملكيّة الكبرى.

١١

تابع يوسف طريقهُ، وهو يفكّر بالمرأة نصف العارية. لم ينتبه للجهة التي يسير بها، فتوغّل في حيّ الأغنياء.

انتبه يوسف أنّه أصبح في عمق الحيّ. لا يدري أين هو الآن، أو كيف يمكنهُ العودة إلى نقطة تقوده مجدّدًا إلى مركز المدينة. ينظر حوله، فيرى البيوت الفاخرة على جانبي الطريق. سكونٌ شبه مطلق يلفّ المكان. يحاول أن ينظر في الأفق، علّهُ يرى ذاك الجبل خلف القصر.

لقد تاه تمامًا، وليس يمكنهُ إلّا متابعة السير. لا يمكنهُ أن يوقف أوّل رجل يراه. مساء الخير يا سيّدي. مساء الخير يا غريب. هل لي بسؤال. حسنًا. أين يمكنني أن أجد ذاك الجبل، خلف قصر المرأة نصف العارية. أيّ جبل، وأيّ امرأة نصف عارية، لا بدّ أنّك مجنون، أو لصّ جاء للسرقة. لا يمكن ليوسف أن يسأل أحدًا، بل عليه تصنّع الجدّ في ملامحه، ليبدو متناغمًا مع المكان. يجب أن يعتقد من يراه أنه عامل جاء لإصلاح المضخّة في مسبح أحد القصور مثلًا؛ أو أنّهُ جاء لتركيب سيراميك مذهّب في حمّامات أحد القصور.

يوسف ينظر حولهُ ويرى البذخ والجمال. أحد القصور كان مشابهًا لتلّك التي رآها مرّة في فيلم للرسوم المتحرّكة. لا ينقص المشهد إلا مارد في باحة القصر وأميرة تصرخُ من إحدى النوافذ العالية: «أنقذوني»، حتى يصبح هو نفسهُ ذاك الفلّاح الفقير. اقترب يوسف

من القصر. السيّارتان المتوقّفتان أمامهُ تشبهان سيّارات السباق. أمّا الأرضيّة أمام الباب الخارجي فكانت رخامًا قاتمًا. يذكر الفسحات الترابيّة أمام البيوت في البلدة القديمة، ويبتسم. كان السياج حول القصر يسمحُ بالرؤية الجزئيّة. رأى يوسف مسبحًا عملاقا، وحديقة غنّاء. الحديقّة كانت خالية مع أن اليوم مشمس. لا بدّ أن أصحاب القصر ملوا الحديقة، وملوا السباحة، ويفكرون الآن بشراء جزيرة.

تابع السير حتى وصل مساحة مفتوحة، يتوسّطها بناء أسطوانيّ عملاق. الجدار الخارجيّ لهذا المجمّع الغريب كان بديعًا، بني بالحجر الملوّن، ولا شكّ أنّهُ بني منذ زمن بعيد. انتبه يوسف عندما اقترب، إلى أنّ بعض المباني الصغيرة كانت متناثرة هنا وهناك في المساحة المفتوحة، وعشرات السيّارات قد اصطفّت على الجهة اليسرى. اقترب يوسف كثيرًا حتى وصل قبالة الباب الرئيس. وقف ليقرأ اللافتة. أهلًا بك يا سيّدي، تفضّل. يوسفّ يريد أن يسأله عن ماهيّة المكان. ينقل نظره بين اللافتة وموظف الاستقبال، يحاول أن يقرأ بسرعة ليدرك أين سيدخل.

تفضل يا سيدي، فإنك ستعرقل حركة المرور. يستدير يوسف ليغادر، لكنّهُ يجد نفسهُ يدخل البوّابة. موظّفٌ آخر في غرفة صغيرة. ينظرُ إلى هيئة يوسف الغريبة عن المشهد، إلى ثيابه وهيئته الفقيرة. ثم يقول، أهلًا بكم يا سيّدي.. أيّ نوع من التذاكر ترغبون، زيارة المنارة

فقط، أم زيارة مع الغداء. يوسف لا يدري ما يفعل. يخجل أن يسأل عن سعر التذكرة. كما أنَّهُ يخجل أن يخرج الآن. شيء ما يدفعهُ للدخول. انتبه إلى أنَّ بعض الأشخاص وقفوا خلفه ينتظرون دورهم لحجز تذاكرهم. ماذا قرّرتم يا سيّدي، أيّ البطاقات؟ يوسف يريد أن يقول للموظّف أنّهُ لا يدري في أيّ جحيم هو. يدفع يوسف ثمن التذكرة المرتفع. ألا تفضّلون تناول وجبة الغداء هنا يا سيّدي. شكرًا، فقط زيارة، نسي يوسف زيارة ماذا، يريد أن يقول زيارة هذا المكان ولا يتذكّر كلمة المنارة، فيصمت. وقف يوسف جانبًا لا يدري ماذا يفعل، والموظّف الذي أعطاه التذكرة لم يقل لهُ شيئًا. إنَّ زائرًا لهذا المعلم السياحيّ الأثريّ لا بدّ أن يدرِك ماذا يفعل. انتظر يوسف الشخص الذي خلفه ليحجز تذكرة، فتبعهُ. في مدخل المبنى الأسطوانيّ، وقف موظّف آخر يوزّع على الزوّار ما يشبه الكتيّب الصغير ويشرح. يوسف يسمع بعض الكلمات وهو شارد تمامًا. تأتي الكلمات في أذنه وتختلطُ بأشياء أخرى. لو أنَّ البشريّة التي اخترعت أسلحة الدمار الشامل والقنبلة الهيدروجينيّة، كانت قد اخترعت أجهزة تقيس التناغم الذي يحدث أحيانًا بين الأذن والأحاسيس واللاوعي، لسمعنا شيئًا كهذا. منارة بحريّة. المرأة نصف العارية تتناول غداءها الآن في حديقة القصر. بنيت المنارة قبل ثلاثة قرون لتهدي السفن القادمة من القارّة الأخرى. تدهن المرأة الزبدة الفاخرة فوق قطعة خبز محمّص، ثم

تغرقها بالكاڤيار. عند الصعود، يجب عدم التأرجح أو القفز. تحمل كأسًا برتقاليًا إلى شفتيها. هذا بناء أثريّ قد يتصدّع. ترتدي بدلة رياضيّة بيضاء. في الأعلى يصل الارتفاع لأربعين مترًا. شعرها الأسود مربوط بعقدة حمراء. الريح عاتية في الأعلى. قدماها العاريتان تلامسان العشب الأخضر. تمسّكوا جيّدًا بالدرابزين. السحّاب المفتوحُ يكشف جيدها الأبيض. خطر السقوط من الأعلى. أجزاء من حمّالة الصدر السوداء.

تفضّل يا سيّدي! ينتبهُ يوسف إلى أنّ الرجل يتوجّه بالحديث إليه. صعد الجميع وأنت ما زلت.. ينظر يوسف حوله، ويجد نفسهُ وحيدًا في بهو البناء الأسطوانيّ. يشير لهُ الموظف إلى جهة الدرج. درج حلزوني يبدأ ولا ينتهي. يلتفّ حول نفسه كأفعى. يصعد يوسف مقاومًا الرغبة في الدوار. كلّما صعد وجد أنّ الدرج يتمدّد أكثر، يزداد طولًا كمعجزة. انقطعت أنفاسه فوقف يستريح في إحدى انبساطات الدرج. النافذة الصغيرة تطلّ على المدينة، تكشف في جزء صغير منها جهة الشاطئ. يتابع يوسف الصعود وقد أصبح الدرج عذابًا أبديًا، عذابًا لا ينتهي، أصبح التراجع صعبًا، والاستمرار انتحارًا.

يعاود الصعود، ويتذكّر ذلك الحلم البعيد في ليلة من ليالي البلدة القديمة. يوسف يهبط درجًا حلزونيًا. يهبط، لكنّ الدرجلا ينتهي أبدًا. ويبدأ يسمع أصوات أقدام خلفه، فيلتفت. جمع من البشر يهبط الدرج. كانت النساء المتّشحات بالسواد يرتّلن شيئًا بلغة غير مفهومة،

وخلفهن كان الرجال. الرجال يحملون نعشا مفتوحًا. يقف يوسف، ويلتصق بالجدار ليفسح المجال للكتلة البشريّة. تمرّ النساء محاذيات لهُ، رائحة تراب بعد المطر تخرج من أجسادهنّ. يتجمّد يوسف حين يمرّ الرجال بالنعش المفتوح. ينظر في الرجل الممدّد في النعش ويرى نفسه. يصرخ في الرجال. لم أمت بعد، هذا غير حقيقيّ. يتابع الرجال طريقهم غير آبهين بيوسف. يتبعهم يوسف فيختفي الجمع والدرج لا ينتهي أبدًا. وعندما يصل نهاية الدرج، تكون المياه. مياهٌ خضراء كمياه مستنقع. وعلى حجر صغير نبت في الجدار يقف عصفور ملوّن. ينظر يوسف في العصفور، لكنّ العصفور يتحاشى نظراته. ما معنى هذا؟ يسأل يوسف العصفور. العصفور صامت. يحسّ يوسف بالرعب، فيبدأ صعود الدرج الذي ينتهي فجأة بحديقة منزل. امرأة في منتصف العمر تسقي زرعًا. كان التراب الأحمر خاليًا من أيّ نبتة، فإن مرّرت المرأة الماء عليه خرج النبات. النبّتُ كان يخرج من التربة حاملًا ثمارًا. ينظر يوسف ولا يصدق. الثمار كانت حروفًا وأرقامًا، تنهي المرأة سقاية حديقتها وتغادر.

يصل يوسف نهاية الدرج. فسحة دائريّة تشبه الشرفة معلّقة بالجدار الخارجيّ للبناء الأسطوانيّ. يحسّ يوسف بنفسه معلقًا في الهواء. ينظرُ إلى الأسفل فيرى الأشياء صغيرة، القصور والسيّارات بدت كألعاب الأطفال. يرفع يوسف رأسهُ قليلًا، فتنكشفُ المدينة

كفجريّة تستحمّ في نهر.

القصور تبدو من هنا كمربّعات ملوّنة يتخلّلها اللون الأخضر.

كان كلما مد نظره أكثر باتجاه الجنوب، تتكشف المدينة عن وجه الحقيقة. ذاك لا بدّ البناء العملاق، مديريّة المحفوظاتُ في بلديّة المدينة. يبرز في الفضاء كوَرمٍ غريب في جسد، كوتدٍ أعِدّ لعرقلة ما. وهناك حيّ الصفيح. لا يمكنهُ أن يكون إلا حيّ الصفيح! انعكاسات الشمس على أسطح المنازل تكشفهُ، والكثافة التي يمكن للعين رؤيتها من هنا، تكشفهُ. وذاك الجبل خلف القصر، وذاك لا بدّ القصر، لو أنّ الطبيعة تمنحُ يوسف جناحين، أو عربة بجياد من نار، لا ليصعد بها إلى السماء بعد أن قتل خمسمائة من أنبياء البعل. لا.. هو لا يريد الصعود إلى السماء، فذاك حكر على الأنبياء والقدّيسين!

سيطيرُ يوسف ويحطّ على نافذة غرفة النوم الملكيّة الكبرى. المرأة تجلس على كرسيّ وثير تقرأ في كتاب ما - الجوع، لكنوت هامسون ربّما. تقرأ الآن كيف كان البطل الجائع ينظر إلى السماء، مقايضًا حياتهُ بوجبة من العدس.. أو ربّما وصلت أبعد. عندما كان البطل يريد أن يحقر نفسهُ ويشهّر بها، فتمنّى أن يدوس مدير التحرير على وجهه. ربّما قالت، هذه النفس البشريّة شيء جدّ معقّد.

ستنتبه لعصفور على النافذة. تذهب لتفتحها. أيّها العصفور المسكين، لا بدّ أنّك جائعٌ هذا الشتاء.

وسيتمنّى يوسف أن يجيبها: لكنّهُ لا يستطيع. فإن اتّبعنا المنطق والمعقول في هذا العالم اللامعقول، فإنّ العصافير لا تتكلم. سيتمنّى أن يقول لست جائعًا، بل أبحثُ عن انتماء، عن أرضٍ، عن سماء. سينتظر أن تقبّلهُ الأميرة قبلة الحياة، ليعود أميرًا، كما في قصص الأطفال.

لكنها لا تفعل، وتبقى الحكاية حكاية على الورق. ينظرُ يوسف جهة البحر. هناك خلف البحر دول الشمال. تلك التي سمع عنها الكثير، وتعاوده الرغبة في الطيران، حلم البشريّة الأزليّ. لماذا نتمنّى الطيران منفردين. لماذا نحلمُ أنّنا نطير عندما نواجهُ خطرًا في أحلامنا. يقول البعض إنّ الطيران في الحلم دليل على الثقة بالنفس. يوسف لا يصدّق هذا. السبب أبعدُ من هذا. السبب أعقد من هذا.

ينتبهُ يوسف أنّ الزوّار قد بدأوا ينزلون الدرج عائدين إلى الأرض، فيتبعهم. نزول الدرج كان أصعب. النظرُ في هذا الحلزونيّ الملتفّ، الهابط نحو الأرض، شيء مرعب. سقوطٌ حقيقيّ في هاوية. وصل يوسف بهو المبنى الأسطوانيّ شبه غائب عن الوعي. احتاج بضع دقائق حتى استعاد توازنهُ. خرج من المبنى جهة البوّابة. توقّف يسأل موظّف الاستقبال. عذرًا سيّدي، هل لي بسؤال؟ تفضّل. كيف يمكنني الذهابّ إلى مركز المدينة، فصعود الدرج ونزوله قد جعلاني أفقد الاتجاهات؟ لا بأس عليك، سيزول هذا سريعًا. إنّ الكثيرين من الزوّار

يصابون بهذا، عليك أن تستقلّ الحافلة في الشارع المقابل، الحافلة رقم سبعة.

١٢

عاد يوسف إلى النزل عند الثالثة والنصف ظهرًا. لم يجد موظّف الاستقبال خلف طاولته. فانتظره حتى عاد من عمق الممرّ. مرحبًا سيّدي موظّف الاستقبال. أهلًا أيّها الغريب. لقد مررت بدائرة المحفوظات في بلديّة المدينة، لكنّها مغلقة، وستكون كذلك غدًا، وبعد غد. نعم، نسيت ذلك.. فبعد غد هو العيد الوطني، ولذلك لم أستطع استصدار بدل عن ضائع لبطاقتي الشخصيّة المسروقة. هذا سيّئ. لكنّي أعدك أنّي سأذهب بعد غد، لاستصدارها. لا داعي لأن تعدني بذلك، لأنّك لن تبقى هنا. صدمَت عبارة الموظّف الأخيرة يوسف، الذي لم يتوقّع ذلك. الموظف يطلب منه المغادرة صراحة، هذا ما لم يحسب له حسّابًا. كان يعتقد أنّهُ يمتلك العذر ليبقى ليلتين إضافيّتين، لكنّ موظف الاستقبال كان واضحًا. حاول يوسف محاولة أخيرة: لكنْ يا سيّدي موظف الاستقبال، ألا يمكنني البقاء حتى تفتح دائرة المحفوظات في بلدية المدينة أبوابها بعد غد، فلا مكان لي ألتجأ إليه. هذا مستحيلْ.. فقد غضب صاحب النزل عندما أخبرتهُ بقصّتك، وقال أن لا أحد يمكنه البقاء دون استمارّة ببياناته الشخصيّة. نحن لا نريد مشاكل مع السلطات. أنا متأكد من أنك إنسان طيّب، لكنّ القانون هو القانون. حسنًا يا سيّدي الموظّف، شكرًا لك. هل لي بسؤال أخير قبل انصرافي؟ تفضّل. أين يمكنني أن أجد مأوى في هذين اليومين لا يطلبون فيه بطاقتي. ليس

لديّ أدنى فكرة. حسنًا، شكرًا لك.. ثم غادر يوسف النزل.

يمشي يوسف على غير هدى في عمق الحيّ الفقير، ولا يدري أين سيقضي ليلته هذه، ولياليه القادمة. إنّ الذهاب ومحاولة استصدار بطاقة شخصيّة جديدة، لهو خطر بالرّغم من تأخّر وصول شهادة الوفاة من البلدة القديمة. فالقبض عليه لا يحتاج أكثر من صوت ينادي على حرّاس الأمن في ذاك المبنى العملاق.

يفكّر في العودة إلى البلدة القديمة، فهو يعرفها كما يعرف الإنسان راحة يده، يمكنهُ أن يجد مأوى في الكثير من الأماكن. لكنّ المشكلة في الصباح والظهيرة! أين سيذّهب، وماذا سيفعل؟ فالكثير من أهل البلدة يعرفه. كان يوسف يفكر، عندما رأى مقهى شعبيًا أمامهُ. ليس أفضل من كأس شاي الآن، علي أن أجد حلّا. دخل يوسف، لكنّهُ وجد المقهى مكتظا بالزبائن الذين يشربون الشاي أو القهوة، ويتحادثون. بحث عن طاولة شاغرة، فوجد واحدة في عمق المقهى، كانت ربّما هي الوحيدة الشاغرة. جلس، وطلب كأسًا من الشاي.

من تكون تلك المرأة، التي ظهرت في نافذة الغرفة الملكية؟ لا بدّ أنّها المرأة نصّف العارية. حين نظر يوسف للخلف، ليرى ذلّك الرجل المتطفل، كانت المرأة تنظرُ إليه. يوسف متأكد من أنها كانت تنظر إليه نظرة غريبة، بالرّغم من المسافة التي فصلت بينهما. لكنّه رأى فيها تلك النظرة الباردة المترقّبة. تنظرُ إليه كمن ينتظرُ

شخصًا، فيذهب إلى النافذة ليرى قدومه قبل أن يصعد الدرج، شخصًا سيصفّي حسابًا معهُ، أو ربّما شخصًا انتظرهُ طويلًا.. وقد تكون خيالات يوسف ذهبت بعيدًا. لكنْ هل انتبهت المرأة نصف العارية إلى الشبه المثير بين يوسف والتاجر الميّت؟

عفوًا يا سيّدي، هل بإمكاني الجلوس معك، فكلّ الطاولات في المقهى مشغولة؟ ينظرُ يوسف إلى الرجل الواقف أمامه، وقد فوجئ بهِ، والرجل بدوره ينظرُ إلى يوسف وينتظرُ جوابًا. استوعب يوسف الموقف، فردّ عليه: بكلّ سرور، يمكنك الجلوس. أمّا الرجل الذي فهم تأخّر ردّ يوسف عليه بما يشبه الرفض، قال: إنْ كان هذا يزعجك، أو إن كنت تنتظر أحدًا ليجلس هنا، فلا بأس، يمكنني انتظار شغور كرسيّ آخر. لا أنتظر أحدًا، ولا يزعجني جلوسك معي إطلاقًا، تفضّل. جلس الرجل، وطلب كأس شاي على الفور، ثم أشعل سيجارة، ومدّ واحدة ليوسف. شكرًا لك، لست مدخّنًا. هيئة الرجل تدلّ أنّهُ - كجميع من في المقهى - فقير. كان الرجل أطول من يوسف، وأوفر صحّة. يرتدي ثيابًا قد استُهلكت، لكنّها نظيفة. جاء الصبيّ بكأسيْ شاي، وانصرف.

قال الرجل: اسمي سليمان، وأعمل في إحدى مزارع البرتقال القريبة على أطراف المدينة. جاء دور يوسف ليعرفه بنفسه، لكنْ أيّ اسم سيختار؟ تردّد يوسف قليلًا، ثم قال: اسمي يوسف، وأنا قادم من الجنوب، ولا

أمارس أيّ عمل الآن. فأنت لا شكّ تبحث عن عمل. كان يوسف سيُجيب الرجل أنه لا يبحث عن عمل الآن، بل عن هويّة ومأوى، لكنّهُ قال في النهاية، نعم إني أبحث عن عمل. بإمكانك العمل معي في مزرعة البرتقال، فصاحب المزرعة طيّب جدًا. والآن، بماذا سيجيبهُ يوسف؟ هذا الرجل قد أرسلتهُ السماء ليزيد في شقاء يوسف، وتشتّته. شكرًا لك، لا أريد إزعاجك بإيجاد عمل لي. لا تقل هذا يا رجل، فنحنُ الفقراء لا نمتلك الكثير لنعطيه، ولا نمتلك الكثير لنخسره. هل وجدت مكانًا جيّدًا تسكنُ فيه. الرجلُ يزيد في نكء جراح يوسف الذي لا يدري أين سيقضي ليلتهُ. لا، لم أجد مأوى بسعر مناسب بعد، فقد بتّ ليلتي الأولى في نزل قريب. النُزُل يا أخي غالية الثمن، وهي لا تصلحُ لأمثالنا. لم يكن لي خيار، والليلة لم أقرّر بعد أين سأنام. اسمع، ستعمل معي صباحًا في مزرعة البرتقال، وإن أردت، فالمالك يبحث عن حارس ليليّ للمزرعة، يمكنك النوم فيها، وبهذا ستوفر أجر الإقامة، وستتقاضى أجرًا إضافيًا. جاءت فكرة النوم في المزرعة كطوق نجاة ليوسف، وأراد أن يخبره بأمر بطاقته الشخصيّة الضائعة. ربّما لن يطلبوا منك بطاقتك الشخصيّة، فاصمت، وإن طلبوها ستخبرهم.

يبتسم يوسف، ويقول، شكرًا لك يا أخي، أقدّر كثيرًا مساعدتك لي، فأنا غريب في هذه المدينة. لا عليك يا رجل، أنا الآن في استراحة الغداء، وسأعود إلى المزرعة

بعد نحو ساعة. ما رأيك أن آخذك معي لترى المالك؟ هذا جيّد جدًا، شكرًا لك. يوسف لا يصدق أنّه ربّما سيجد مأوى أخيرًا، ويتمنّى ألا يطلبوا منه بطاقته، وحتى إن طلبوها سيخبرهم بالقصّة نفسها التي أخبرها لموظّف الاستقبال. سأذهب لأشتري بعض الأشياء لأسرتي، وأعود بعد نصف ساعة لآخذك معي، فابقَ هنا. سأبقى هنا أنتظرك، ولن أغادر المكان.

ذهب الرجل، وبقي يوسف في مكانه ينتظر. إن وافق صاحب المزرعة على تشغيله فيمكنه الاختفاء تمامًا، حتى يقرّر ماذا سيفعل ببقيّة حياته، أو حتى يحسم أمره في الذهاب إلى دائرة المحفوظات في بلديّة المدينة من عدمه. في كلّ الأحوال، لم يكن يوسف يحلم أن يجد مأوى مجّانيًا بهذه الصدفة الغريبة.

مرّت نصف ساعة، ولم يأتي الرجل، فبدأ يوسف ينظرُ في جهتي الشارع، وعندما مرّت خمس وأربعين دقيقة، بدأ الشكّ يحوم كطائر الخراب في رأس يوسف. لكنْ ربّما أخّره أمر طارئ، ولم يستطع الوفاء بوعده. وماذا إن شكّ في أمرك، وذهب ليخبر السلطات؟ لا، هذا مستبعد جدًا، فلا شيء يشير حتى اللحظة إلى اكتشاف أمري. ربّما حدثت أشياء لم تسمع بها، كمعرفة من قتل الفقير التعس مثلًا، أو ربّما اكتشفوا أنّك أخرجت جثّة التاجر الميّت، لتوهم العدالة أنّها جثّتك! عندها، لا بدّ أنّهم عمّموا صورك في كلّ مكان. ربّما هم ينتظرونك حتى تخرج ليقبضوا عليك! سيكون حارسا أمن على

أطراف الباب وما إن تطلّ برأسك حتى ينقضّا عليك كما تنقضّ الوحش على الفرائس،

ثم سيحملونك مكبلا إلى سجن المدينة.

حسنًا، سأغادر الآن. دفع يوسف الحساب بسرعة، ثم دفع الباب بهدوء، ونظر في الجهتين ليتأكّد أن لا حرّاس هناك. اندفع يوسف مسرعًا نحو الخارج، فاصطدم بالرجل وهو يهمّ بدخول المقهى. إلى أين؟ هل غيّرت رأيك في الذهاب معي؟ لا، لم أغيّر رأيي، لكنّك عندما تأخّرت حسبتك لن تعود. يا رجل، لقد أعطيتك وعدًا أنّني عائد، لقد تأخّرت قليلًا في السوق، طلبات الأسرة لا تنتهي. لا بأس. هيّا بنا.

سارا لمدّة نصف ساعة في عمق الحيّ الفقير، حتى وصلا أطراف المدينة. كانا كلما ابتعدا جهة أطراف المدينة، أصبح الفقر أكثر وضوحًا. أكواخ متلاصقة من الصفيح، بأسقف يعتقد الناظر إليها أنّها ستهوي مع أوّل هبّة ريح. وأطفال شبه عراة، يلعبون في هذا الشتاء الرطب. الفقر هنا كائن حيّ، يحيا، وينمو، ويتنفّس. الفقر هنا شيء خرافيّ، كتلك البرامج الوثائقيّة التي تعرضها التلفزة الرسميّة عن المجاعات في العالم. لم يتوقّع يوسف في أشدّ كوابيسه سوداويّة أن يرى شيئًا كهذا. بعض الأكواخ كانت عبارة عن غرفة واحدة يخرج منها العشرات. الجدران من الصفيح، والأبواب من الصفيح، كلّ شيء من الصفيح، حتى وجوه القوم التي عرّتها الريح والمطر، مالت لتشابه الصفيح القديم

الصدئ.

الأرض الترابيّة امتلأت ببقع مختلفة الأحجام، يختلط فيها التراب بالمطر، فيولد الطينُ، هذا الذي يزيد في شقاء القوم شقاء. لا يمكن لطرُق السماء أن تمرّ من هنا. هذا مستحيل، فإن مرت ستخجل السماء من هذا، وستغمض عينيها. ركض طفل شبه عار أمام يوسف وسَليمان. كان جسد الطفل نحيلًا كهيكل عظميّ، وقدماه متشققتين، وفيهما آثار دم جافّ. استدار الطفل من حول الغريبين، وعاد إلى الكوخ.

أيّتها السماء! يا من وعدت الفقراء بالنعيم، بئس النعيم إن لم يكن هنا، بئس النعيم حين يفصلُ حيّ القصور عن حيّ الفقراء.

جاء الألم يخترق معدة يوسف كعمود من ملح. لو أنّ يوسف ينظرُ خلفهُ، ليرى ابنتيه تتبعانه، لانطبقت عليه القصّة القديمة: المرأة التي حوّلتها السماء عمود ملح، فقط لأنّها استدارت لترى ابنتيها. يضغط يوسف معدته بيدَيه، لكنّ الألم الذي تحرّر من حرّاسه وصل حدود السماء. توقف يوسف في إحدى الزوايا بعدما فاق الألم طاقة احتمالهِ. سليمان الذي فاجأه توقّف يوسف، ورؤية وجهه يعرضُ خارطة الألم البشريّ، سارع بالقول: هل أنت بخير؟ نعم، لا شيء مهمّ، سيزول الآن. هل تجلس لترتاح، فإنّ وجهك يشي بألم مبرّح. لا عليك.. هي معدتي وسيزول الألم بعد قليل.

لّاحظ يوسف أنّ بعض الأهالي اجتمعوا حوله حين

رأوه يتألم. اقترب أحدهم بقصعة قديمة فيها سائل أبيض. اشرب بعض الحليب وستهدأ معدتك.

يوسف ينظر إلى الرجل، والرغبة في البكاء تجتاح عينيه كسيل في الربيع. أيّتها السماء انظري. هذا رجل سيقطع شيئًا عن أفواه بنيه، ليكرم الغريب المتألم. سينام ليلته جائعا، فقط ليقدم شيئًا لشخصٍ لا يعرفه، وربّما لن يلتقيه مرّة أخرى. علمني أيّها الرجل، علمني.. أستحلفك بالكون العظيم، كيف يكون الإنسان إنسانا، وكيف يرتفعُ إلى مراتب لم تصلها السماء! يوسف الآن بين نارين: أيشرب الحليب، ويحرم الرجل من عشائه، وربّما عشاء أبنائه، أم يرفض، فيعتقد الفقير أنّ يوسف يرفض الحليب قرفًا من الوعاء القديم المسودّ؟ اسمع، أيّها الرجل، سأشربها، وربّ الكونّ سأشربها، حتى وإن كان موتي فيها. شرب يوسف الحليب كله، فاستكانت معدته. شكرًا لك أيّها الرجل الشهم. هنيئًا يا سيّدي.

كان سليمان قد انفصل عنه قليلًا، يحادث رجلًا آخر، فاستغلّ يوسف ابتعاده، ومدّ يده إلى جيبه ليخرج بعض النقود. الرجل الفطن الذي لم تفته تلك الحركة، نظر في عيني يوسف نظرة واحدة. يوسف لا يذكر أنّهُ رأى نظرة كتلك أبدًا، نظرة اجتمع فيها كلّ شيء، الفقر، والكرمُ، والنفس العزيزة. سحب يوسف يده من جيبه، ومدّها نحو الرجل مصافحًا. اسمي يوسف، ويشرّفني أنّي التقيت بك. أهلًا بك في حيّنا الفقير، اسمي عادل. شكرًا لك يا عادل. هنيئًا يا سيّدي.. مع السلامة. مع

السلامة.

تابعا سيرهما حتى اختفت المباني، وبدأت الأرض الزراعيّة تطالعهما. مزارع ذرة، وخضار على جانبي الطريق تمتدّ حتى العمق غير المنظور. سنصل بعد قليل، يقول سليمان، ويلتفان من جديد جهة السفح القريب حتى يصبحا خلفه.. ها قد وصلنا.

كانت المزرعة مسوّرة بسلك شائك، يرتفع لأعلى من قامة إنسان. تتوسط السور بوابة معدنية. دفع الرجل البوابة ودخلا. انكشفت المزرعة بثمارها التي كانت تلمع في شمس الأصيل، ورائحتها التي هي لا شكّ رائحة الأرض الموعودة. وجدا بعض الرجال يقطفون حبّات البرتقال اللامعة، ويضعونها في صناديق بلاستيكيّة، ثم ينقلونها إلى زاوية تجمّعت فيها الكثير من الصناديق بجانب السور. ثم يعودون ويحملون صناديق فارغة، ويتّجهون نحو الأشجار التي امتلأت عن آخرها ثمرًا.

كلّهم رجال طيّبون، يقول سليمان، ستحبّ العمل معهم. بعضهم جاء من البلدات المحيطة والقرى، وبعضهم من المدينة. تعال نذهب، لنرى صاحب المزرعة.

يأخذه بين الأشجار حتى نهاية المزرعة، ثم ينعطفان يسارًا في محاذاة السور. يسيران حتى يجدا خيمة صغيرة، نصِبت بين الشجر، وتحتها جلس رجلٌ على كرسيّ من الخشب. حين اقتربا، رأى يوسف الرجل بوضوح. كان يرتدي شيئًا شبيهًا بالمعطف العسكريّ،

وقد فقد الكثير من شعره الأبيض في مقدّمة رأسه، ممّا زاد الإحساس بضخامة هذا الرأس. شيء في ملامح الرجل، ذكّر يوسف بالجنرال في حلم المرأة نصف العارية. كان يمسك بين أصابعه الثخينة سيجارة، يسحب الدخان، وينفثهُ بِشرَاهة.

مساء الخير يا سيّدي المالك. مساء الخير. جئتك بعامل يمكن أن يكون حارسًا ليليًا، إضافة لعمله في القطاف. نظر الرجل الوافر الصحّة إلى يوسف، وقلبه متفحّصًا؛ ثم انحنى وأمسك كأس الشاي الموضوعة على ما يشبهُ الصخرة، ورشف منها، ثم وضعها، وعاد ينظر إلى يوسف. استمر ينظر إليه صامتًا. يوسف الذي أربكهُ الصمت، الذي طال لدقائق، بدأ يحسّ بشيء مزعج في تصرّفات الرجل. استمرّ الحال هكذا، ربّما ثلاث دقائق، أو أكثر، قبل أن يقول صاحب المزرعة: هل سبق لك العمل كحارس ليليّ. نعم. يوسفُ عمل كحارس ليليّ لمقبرة البلدة القديمة، لأكثر من عشر سنوات. لكنّ يوسف يجيبه: لا يا سيّدي لم يسبق لي العمل كحارس. ماذا كنت تعمل فيما مضى؟ سيكذب يوسف الآن مرّة أخرى، لكنّهُ الآن يجب أن يكون حذرًا، فالمهنة التي سيختارها لنفسه، ربّما ستلتصق به طويلًا. عملتُ في تحميل الشاحنات، في إحدى شركات النقل، في الجنوب. فلا علاقة لك بالزراعة إذًا. للأسف يا سيّدي، لم أعمل في الزراعة قبلًا. يتدخّل سليمان، لينقذ الموقف. سيتعلم سريعًا يا سيّدي، وأنا سأشرف بنفسي على

تعليمه.

يعود الرجل الوافر الصحّة للصمت من جديد، ساحبًا كأس الشاي نحو شفتيه، في رشفات مسموعة. سنجرّب عملك لمدّة أسبوع، فإن أثبتّ جدارة، نبقيك حتى ينتهي موسم القطاف. شكرًا لك يا سيّدي. ما اسمك؟ يوسف يا سيّدي. حسنًا، خذه يا سليمان، وأريه غرفة الحارس التي سينام فيها. وفي الصباح، يبدأ بالعمل.

شرح له سليمان كيف أنّهم سيعملون لفترة محدودة في القطاف، ثم يعودون في الموسم القادم. وفي الفترة بين المَوسمين، يبحثون عن أعمال أخرى. ويوسف الذي لم يكن يفكر أبعد من أنّه وجد مأوى لبضعة أيّام، كان يوافقهُ بهزّ الرأس أحيانا، وبغمغمة كلمات غير مفهومة حينا آخر. ذهبا إلى غرفة الحارس، فوجدها يوسف جيّدة جدًا. هناك سرير في زاوية الغرفة، وطاولة خشبيّة، حال لونها إلى الأسود، وكرسيّ شبه مكسور، سيصلحهُ يوسف فيما بعد. يقول سليمان، مشيرًا إلى باب صغير ملتصق بجدار الغرفة البعيد، هناك مرحاض وحمّام صغير. ذهب يوسف وفتح الباب. لا يحتاج لأكثر من هذا، مرحاض، ومغسلة، وجرن متوسّط الحجم من النوع القديم لمياه الاستحمام. يوسف يتمنّى أن يكون وجوده هنا حقيقة. يتمنّى أن يكون المالك وسليمان أشخاصًا من لحم ودم، لا أن يكون كلّ هذا حلمًا.

أعطاه المفاتيح، وقال: اسمع جيّدًا يا يوسف، عند خروجنا حوالى الثامنة مساءً، يجب أن تغلق البوّابة

بالمفتاح وتذهب إلى الغرفة. كلّ صناديق البرتقال التي ستحمّل إلى الشاحنات غدًا صباحًا موجودة قرب الغرفة، لم يسبق أن حاول أحدهم سرقتها قبلًا، لكنّ الحذر واجب. سيبدأ العمّال بالوصول بعد السادسة صباحًا بقليل. لذلك، عليك أن تستيقظ قبل وصولهم، وتفتح البوّابة، وتنتظر العمّال والشاحنات. هل هذا مفهوم يا صديقي؟ مفهوم جدًا، شكرًا لك يا سليمان، لن أنسى صنيعك ما حييت. لا بأس عليك يا رجل، فأنا لمّ أقم بشيء يذكر. لكنّ، هل لي بخدمة أخرى أطلبها منك؟ بكل سرور، تفضّل. عند عودتك إلى المدينة، هل لي بالذهاب معك، لشراء بعض الطعام والمستلزمات والعودة؟ بكل سرور، فأنا سأغادر بعد قليل. لكنّ، عليك العودة سريعًا يا يوسف. هيّا بنا، لقد تجاوزت الساعة السابعة مساءً.

عادا إلى المدينة مرورا بالحي الفقير. كان حي الصفيح قد خلا نسبيًا من المارّة، وهدأت الحياة فيه استعدادًا للدخول في مملكة الليل. بعض الأطفال الحفاة ما زالوا يتراكضون هنا وهناك، يقفزون فوق برك الطين، ويتصايحون، وحين يرون الغريبين المارّين يفسحون الطريق لهما. كانا قد وصلا إلى تلك المنطقة التي قدّم فيها الفقير الشهم الحليبَ ليوسف. أتعلم، إنّ الفقراء هم الأكثر نقاءً في هذا العالم، فكلما زادت ملكيّة الفرد زاد السواد في قلبه، وفي عينيه؟ هذا صحيح يا يوسف، لكنّ بعض الفقراء أشرار أيضًا. إن كنت تسمّي

السعي وراء الرغيف شرًا، فالحياة مذ بدأت شرّيرة.

وصلا قرب المقهى الشعبيّ، فقال سليمان: سأتركك هنا. فاشترِ ما تحتاج، وعُد بسرعة إلى المزرعة. أأنت متأكد أنّك تعرف طريق العودة. نعم أعرفه، ولن أتأخّر، يجيبه يوسف.

ذهب يوسف، واشترى خبزًا وبعض السردين والجبن الأبيض، واشترى أيضًا مصباح بطّاريّة جديدًا، مثل الذي تركهُ في خزانة غرفة الحارس، ثم سلك طريق العود إلى المزرعة. كان يفكر في أنّ المرأة نصف العارية ربّما تكون الآن قد تمدّدت على أريكة جلديّة، تشاهد برنامجًا وثائقيًا عن حضارة الفراعنة. تلك الحضارة التي كان انحسارها السريع لغزًا وما زال. ربّما كانت الآن تحمل كأسًا من النبيذ الأبيض الفاخر، وتضمّه إلى شفتيها، تثنّي ركبتيها فينحسر الفستان الحريريّ الأزرق فوق الركبة العاجّيّة. تمدد ركبتها الأخرى حتى تلتصق بالجلد عند باطنها. لا بدّ أن الجّلد الفاخر للأريكة قد أحسّ ببعض الحياة الدافئة تخترقهُ، فلان ورق! كان يوسف يسير وهو غارق في خيالاته. لو لم ينتبه في اللحظة الأخّيرة، لاصطدم بهاتف عموميّ على ناصية الرصيف. الغرفة الشفافّة للهاتف العموميّ خرجت في وجهه فجأة من اللامكان، فتوقف قبل الاصطدام بسنتيمترات قليلة.

كان الضوء الأصفر في غرفة الهاتف العمومي الشفّافة قويًا جدًا، لدرجة أنّهُ كان يضيء نصف الرصيف؛ ومعّ ذلك، لم ينتبه له يوسف. بعض الأوراق وقشور الأطعمة

المغلفة كانت مرميّة على الأرض هنا وهناك في الداخل. وقف يوسف ينظر إلى الهاتف العموميّ بأزراره المعدنيّة المطليّة باللون البرتقاليّ، قبل أن يدخل الغرفة الضيّقة، ويصبح تحت الضوء الأصفر مباشرة. الرصيف شبه خال في هذا المكان، والسيّارات العابرة قليلة جدًا.

رفع يوسف السمّاعة، ووضع بعض القطع النقديّة المعدنيّة في فتحة الحصّالة. مدّ يده، وأخرج الورقة التي نسخ عليها رقم التاجر الميّت من جيبه. نظر حوله، وبدأ يضغط على الأزرار البرتقاليّة. رنّ الهاتف في الجهة الأخرى رنّة واحدة، ثم رنّتين، ويوسف يحمل السمّاعة على أذنه، وقلبه ينتفض كعصفور في بلل الشتاء. الرنّة الثالثة، ولا أحد يجيب. وعند الرنّة الرابعة، قرّر يوسف أن يضع السمّاعة في مكانها، عندما جاء صوت امرأة من الطرف الآخر. «ألو». يوسف لا يدري ما يقول، لم يكن قد فكّر فيما سيقول. لا يمكنهُ أن يقول مثلًا. مساء الخير سيّدتي. مساء الخير. كنتُ فقط أريدُ أن أطابق صوتك مع صورتك التي رأيتها، فكثيرًا ما يخدعنا أحَدهما منفردًا. وهل وجدت تطابقًا من نوع ما؟ للحقيقة، أنا لم أرَ ملامحك واضحة. ففي ليلة القصر، كان جسدك البض أكثر وضوحا من وجهك المتخفي في عتمة الممر شبه المظلم. وهل وجدت تطابقًا بين صوتي وجسدي؟ نعم، سيّدتي نصف العارية، فكلاهما فاكهة محرّمة.

تعود المرأة في الطرف الآخر لتقول: ألو.. هل من أحَد

هناك. لكنّ يوسف بقي صامتًا، لا ينبس ببنت شفة. وكلما تحرّكت شفتاه لتقولا شيئًا، كانت الكلمات تولد ميّتة، كثمر جافّ يسقط أرضًا في ريح خريفيّة. قالت المرأة للمرّة الأخيرة «ألو». ولمّا وجدت أنّ المتّصل مصرّ على صمته الجليديّ، أغلقت سمّاعة هاتفها. يوسف ما زال يحمل السمّاعة بيديه، ويضغطها على أذنه علّ معجزة تحدث، ويُفتح الخطّ من جديد فيستمع لتنفّس المرأة مثلًا أو لصوتها تدندن أغنية قديمة. لكنّ الصمت، ثم صوت الهاتف المفتوح، أيقظاه فوضع السمّاعة، وخرج من غرفة الهاتف العموميّ.

عاد يوسف إلى المزرعة مرورًا بحيّ الصفيح. كان الحيّ عند عَودته هادئًا تمامًا. لا أطفال يتراكضون، ولا أضواء في المنازل إلا القليل. الحيّ نامَ كعادته، يحلم بغد يأتي أقلّ قسوة. أغلق خلفه باب المزرعة بالمفتاح، ودخل الغرفة التي كانت في شبه ظلمة حقيقيّة. أشعل النور بمساعدة مصباح البطّاريّة، واستلقى على السرير. ينتظره عمل ربّما شاق في صباح الغد، وهو غير متشوّق إليه. لو أنّهُ يخبر صاحب المزرعة، أنّه لا حاجة له بالعمل، ولا قِبَل له به، فجسده الضعيف لن يساعده. لو أنّهُ يقول لصاحب المزرعة: عذرًا سيّدي صاحب المزرعة. تفضّل أيّها العامل. لا حاجة لي بالعمل في قطاف وتحميل البرتقال إلى الشاحنات، سأكتفي بحراسة المزرعة في الليل، وحتى إن كان العمل بالمجّان. ألا تريد نقودًا؟ لا يا سيّدي، فلا حاجة لي بها.

أنت شخص غرّيب الأطوار، ولا بدّ أن وراءك قصّة مثيرة. لو أنّهُ يستطيع التخلص من حمل الصناديق. أيّتها السماء الظالمة العادلة، ألا يجوز أن أجد مأوى بدون شقاء، مكانًا أنام فيه إلى الأبد؟

لقد مشى اليوم بكامله، ولم يأكل إلّا رغيفًا في الصباح، فخارت قواه، وغفا فوق السرير القديم كطفل رضيع بعد وجبة حليب أمومي دافئة. حلم حلمًا مزعجًا. رأى صاحب المزرعة، وفي يده بندقيّة يوجّهها نحوه، ويقول: لقد شككت في أمرك أيّها القاتل منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها. كانت ملامح الرجل القاسية حادّة جدًا، وواضحة جدًا، لذا ظهر شبهةُ المثير بالجنرال. يوسف واقف في مكانه، لا يتحرّك، ينظر في فوّهة البندقيّة. لم أقصد قتل الرجل، صدّقني، فهو من هاجمني. لكنّ الرجل اقترب منه أكثر، حتى إنّ يوسف كان يستطيع رؤية الخطّ الحلزونيّ الداخلي لسبطانة البندقيّة. وفجأة، بدأ يوسف يركض، والرجل وافر الصحّة يلاحقه والبندقيّة في يده. ثم انتبه يوسف، أنّ هناك قطيعًا من الكلاب البرّيّة تلاحقهُ هي الأخرى، كلاب ضخمة، بأسنان برز نصفها إلى الخارج. يركضُ يوسف في مقبرة البلدة، وتتبعهُ الكلاب، حتى يصل إلى غرفة الحارس، فيحسّ بالأمان. يدخل غرفة الحارس، ويغلق الباب خلفه، فتبقى الكلاب في الخارج. يتنفس الصعداء، ويستدير ليجلس على الكرسيّ الخشبيّ الذي طالما جلس عليه في ليالي العمل. يجد التاجر الميت

خلف الطاولة الخشبية، واقفا يبتسم. يقف يوسف مرعوبًا. فيقول له التاجر الميّت: أهلًا بك، لقد انتظرتك طويلًا.

استيقظ يوسف وطعمٌ مرّ في فمه. ذهب، وفتح الصنبور، وشرب ماءً باردًا. ثم عاد يستلقي على السرير. كان جائعًا، لكنّهُ لم يشعر برغبة في الطعام، مع أن الجبنة البيضاء التي اشتراها كانت على الطاولة الصغيرة القريبة منهُ. الجبنة البيضاء، التي دائمًا ما كان يفضّلها على أيّ وجبة أخرى. يكفيه أن يمدّ يده، ويتناول الكيس، ويمزّق الغلاف البلاستيكي للجبنة، وتكون مع الخبز وجبة محبّبة. لكنّهُ لم يتحرّك من السرير.

نظر إلى ساعته، إنّها الحادية عشرة والنصف ليلًا. ما زال الوقت طويلًا حتى السادسة صباحًا، حيث عليه أن يبدأ العمل في تحميل صناديق البرتقال إلى الشاحنة. لا شكّ أنّ الصناديق ثقيلة الوزن. خرج من الغرفة، وذهب نحو صناديق البرتقال عند زاوية السور، وجرّب أن يحمل أحدها، كان الصندوق ثقيلًا، لكنّهُ ليس بالدرجة التي تخيّلها يوسف، فأحسّ ببعض الراحة. يمكنني حملها، ومع العمّال الآخرين سيصبح الأمر أسهل. يوسف يأمل أنّه لن يواجه مصاعب في يومه الأوّل، في هذا العمل المتعب. إنّ طرده من العمل يعني أنّه سيجد نفسهُ مرّة أخرى بلا مأوى. أخذ ثمرة برتقال من أحد الصناديق، واشتمّ رائحتها، ثم أعادها إلى الصندوق.

خلف الطاولة الخشبية، واقفا يبتسم. يقف يوسف مرعوبًا. فيقول له التاجر الميّت: أهلًا بك، لقد انتظرتك طويلًا.

استيقظ يوسف وطعمٌ مرّ في فمه. ذهب، وفتح الصنبور، وشرب ماءً باردًا. ثم عاد يستلقي على السرير. كان جائعًا، لكنّهُ لم يشعر برغبة في الطعام، مع أن الجبنة البيضاء التي اشتراها كانت على الطاولة الصغيرة القريبة منهُ. الجبنة البيضاء، التي دائمًا ما كان يفضّلها على أيّ وجبة أخرى. يكفيه أن يمدّ يده، ويتناول الكيس، ويمزّق الغلاف البلاستيكي للجبنة، وتكون مع الخبز وجبة محبّبة. لكنّهُ لم يتحرّك من السرير.

نظر إلى ساعته، إنّها الحادية عشرة والنصف ليلًا. ما زال الوقت طويلًا حتى السادسة صباحًا، حيث عليه أن يبدأ العمل في تحميل صناديق البرتقال إلى الشاحنة. لا شكّ أنّ الصناديق ثقيلة الوزن. خرج من الغرفة، وذهب نحو صناديق البرتقال عند زاوية السور، وجرّب أن يحمل أحدها، كان الصندوق ثقيلًا، لكنّهُ ليس بالدرجة التي تخيّلها يوسف، فأحسّ ببعض الراحة. يمكنني حملها، ومع العمّال الآخرين سيصبح الأمر أسهل. يوسف يأمل أنّه لن يواجه مصاعب في يومه الأوّل، في هذا العمل المتعب. إنّ طرده من العمل يعني أنّه سيجد نفسهُ مرّة أخرى بلا مأوى. أخذ ثمرة برتقال من أحد الصناديق، واشتمّ رائحتها، ثم أعادها إلى الصندوق.

نظر إلى السماء الصافية، في ليلة الشتاء هذه. النجوم كما عرفها في البلدة، مزروعة بحرفيّة عالية في برج السماء. تمدّد على الأرض وبدأ يتعرّفها. لا بدّ أن أجدادنا الأوائل استلقوا هكذا مثل يوسف، وبدأوا ينظرون إلى السماء، ويتساءلون عن هذا البعد الخرافيّ العميق. أين تنتهي هذه اللانهاية الزرقاء، ومن يسكنها؟ ثم، وبعد الكوارث الأولى، من فيضانات وصواعق، تتبعها حرائق الغابات، اكتشفوا - كما ما زلنا نكتشف - أن السماء هي منازل الخالق. ثم بدأوا يحلمون ويتمنّون - كما ما زلنا نحلم ونتمنّى - أن ينزل الخالق إلى الأرض، أو يرسل أحد مفوّضيه ليساعد الإنسان الضعيف، الضعيف أمام الطبيعة الجبّارة، والكون العملاق. أن يرسلهُ ليُقيم العدل والدينونة الكبرى، فجاءت الديانات نسخًا متشابهة.

دخل يوسف الغرفة من جديد، وجلس على الكرسيّ شبه المكسور، ثم أخرج كيس الطعام، وقضم بعض الجبن الأبيض والخبز. لقمتان وأعاد الأشياء إلى الكيس. ثم وقف فجأة، وخرج من الغرفة جهة البوّابة، ففتحها، وغادر المزرعة بعد إغلاقه البوّابة بالمفتاح.

ذهب جهة حيّ الصفيح، الذي أصبح الآن خاليًا تمامًا من المارّة، وشبه مظلم. البلديّة هنا لا تنير الشوارع، كما في أحياء المدينة الراقية، فإن أراد أحدهم المسير، فعليه أن يراقب خطواته جيّدًا. لا أحد يضمن ألا تبتلّ قدماه بإحدى بقع الماء الصغيرة التي يشكلها المطر. وهذا ما حصل مع يوسف، فقد وصل الماء البارد في

قدمه اليمنى، حين داس إحدى البقع حتى غمر كامل حذائه. تابع يوسف سيره، وهو يحسّ بالبلل البارد يتسلل إلى نقي عظامه. لا يمكنهُ الوقوف هنا من أجل محاولة خلع جواربه على الأقلّ. لا، سيتابع سيره، فهي ليست المرّة الأولى التي يسير فيها مبتلا باردا، كلاجئ مطرود من جنة عدن.

خرج من حيّ الصفيح إلى أضواء المدينة. كان المقهى الشعبيّ ما زال عامرًا بالزبائن في هذه الساعة المتأخّرة من الليل. الزبائن احتلوا بكراسيهم جزءًا واسعًا من الرصيف، وقد غصّ بهم المقهى في الداخل، ما اضطرّ يوسف لعبور الشّارع إلى الرصيف المقابل. عندما مرّ بغرفة الهاتف العموميّ الشفافة، أحسّ بوخز في معدته. كان البلل قد فعل فعله، وجعل من قدمه قطعة جليد حمراء. يوسف سيعرف عندما يعود إلى غرفته، أنّ هذا الألم في قدمه لم يكن من البلل وحسب، بل إنّ القدم فقدت في موضع متوسّط الحجم، الطبقة الخارجيّة للجلد، وظهرت الأنسجة الورديّة المُدماة.

تابع طريقه نحو مركز المدينة. لقد تجاوزت الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل في شوارع شبه خالية. أن يستوقفه أحد حرّاس الأمن في المدينة فهي كارثة الآن. توقّف يا مواطن، ماذا تفعل في هذه الساعة المتأخّرة من الليل خارج منزلك؟ جئت أزور صديقًا يقطن قَريبًا من هنا. بطاقّتك الشخصيّة. ليس معي واحدة، سرقها مني اللصوص. وهل بلغت عنها في

مركز الأمن. لا، فمديريّة المحفوظات في بلديّة المدينة مغلقة اليوم، وفي يومي العطلة القادمين. هذا ليس سببًا مقنعًا لعدم حملكَ بطاقة شخصيّة، سنحتجزك حتى تفتح الدوائر الأمنيّة بعد غد، لننظر في أمرك.

أوقف يوسف سيّارة أجرة، وطلب من السائق أن يأخذه إلى المنطقة الفاصلة بين حيّ الأغنياء والمدينة الفقيرة. لا يمكنه أن يتابع طريقه ماشيا في هذا الليل الساكن. السائق، وخلافا للعادة، كان صامتًا، ما جعل يوسف المتوجّس يشعر بعدم الارتياح. مرّت الدقائق الخمس الأولى، والسائق صامتٌ وغارق في عالمه. لم يفتح فمه، إلا في البداية عندما سأل يوسف عن وجهته. مرّت عشر دقائق، والسائق محافظ على صمته، وممّا زاد من الإحساس بالفراغ والوحشة، أنّ مذياع السيّارة كان صامتًا هو الآخر. يوسف يفكر في أنّ الرجل يمكن أن يكون أحد رجال الأمن، وقد تخفّى في زيّ سائق سيّارة أجرة، ليصطاد المجرمين. كانت ملامحهُ الحادّة، وعيناه الساكنتان، تشبهان نسرًا يتفرّس النظر من عليائه، قبل أن يهوي منقضًا على فريستهِ.

أريدُ النزول هنا من فضلك. يكسر السائق صمته الجليديّ، ويجيب يوسف: لكنّنا لم نصل المكان الذي تريدُ الوصول إليه يا سيّدي. حسنًا، لقد تذكّرت شيئًا مهمًا، أريد النزول هنا من فضلك. حسنًا، كما تريد. وتوقّف السائق إلى جانب الطريق الخالي من السيّارات. يوسف نقدهُ بعض المال، ثم نزل من السيّارة. بقي

يوسف واقفًا على الرصيف حتى ابتعد السائق بسيّارته، وتابع طريقهُ ماشيًا. كان يتجنّب الشوارع الرئيسة، والتي يمكن أن يكون تواجد حرّاس الأمن فيها أكثر احتمالا إلى شوارع فرعيّة صغيرة، حتى خرج من المدينة إلى منطقة الأغنياء. ومرّة أخرى، أحسّ يوسف بكثافة الهواء تتغيّر، وتصبح أقلّ. وكأنّ الهواء الذي خصّصته الطبيعة لهذه الأماكن مختلف تمامًا عن الهواء في حيّ الصفيح. شيء هنا أكثر نقاءً، لكنّهُ أقلّ ألفة وإنسانيّة. شيءٌ يشبهُ الخضار التي تنمو في غير موعدها، في بيوت بلاستيكية، فتأتي شبيهة بشقيقاتها الطبيعيات، لكن طعمها المزيّف يكشفها على الفور.

دخل شارع القصر الذي تبدو فيه أضواء البلديّة أكثر ترفًا وأناقة. المصابيح فوق الأعمدة كانت تنير مساحات محدودة من الشارع، وتترك البقيّة في شبه ظلمة. لم ينتبه يوسف حين دخل القصر تلك الليلة إلى هذه الرومانسيّة المفرطة في الإنارة، ولم ينتبه إلى أن الأشجار، على جانبي الشارع، كانت محاطة بأطواق نحاسيّة، ترتفع لنصف متر وضعت فيها أحجار زينة ملوّنة.

وأمّا الأرصفة، فقد كانت تصلح لتكون لوحات فنّيّة. كان الحجر الملوّن الذي بنيت منهُ الأرصفة، يتدرّج باللون بين الرماديّ الفاتح، وصولا حتى الأسود. شيء يشبه الغرانيت الأسود أو المرمر، شيء يلمع بالضوء منعكسًا قليلًا جدًا، في إضافة شبه فنيّة. ينظرُ يوسفُ

في الرصيف، ويفكر كيف أن هذه الأنوار التي تستهلك من الكهرباء هي أضعاف ما يستهلكهُ الفقراء في حيّ الصفيح.

وصل بقرب ما يشبهُ نصبًا تذكاريًا. الكلمات غير واضحة في هذا الليل. منصّة حجريّة تصل لقامة إنسان، ارتفعت فوقها صخرة سوداء شذبت في إحدى جهاتها، وكُتب عليها بخطوط غير واضحة شيء يشبه أسماء أشخاص، ربّما أبطال حرب، أو شيء مشابه!

مشى يوسف على الخطّ المرسوم من تتابع بوّابات البيوت الفاخرة، والذي بدا لهُ الأقلّ إنارة في مساحات الطريق حتى وصل القصر. البوابة المغلقة غير منارة بالمصباح الفاخر الذي يعلوها، وكذلك نوافذ القصر التي يمكن رؤيتها من هنا كانت مُظلمة تمامًا. تحسّس مفاتيح القصر في جيب معطفه، وأخرجها. تردّد في فتح البوّابة بالمفتاح، ثم أعادها إلى جيبه. التفّ حول القصر، حتى وصل قرب الشجرة التي قفز منها في المرّة الأولى.

هل يدخل القصر كما دخلهُ في المرّة الأولى، أم يفتح البوّابة بالمفتاح، ويدخل ببساطة وسهولة؟ إنّ الصوت الذي قد تصدره البوّابة، أقلّ كثيرًا من صوت قفزة على الأرض العشبيّة في مؤخّرة القصر. لكنّ في خلفيّة القصر، يكون احتمال وجود عين تراقب أقلّ بكثير من البوّابة المواجهة لنوافذ القصر الرئيسة. اختيار صعب بينهما، فيما يتمثّل أسهل الحلول في العودة إلى المزرعة، دون ارتكاب حماقة قد تكلفه غاليًا جدًا.

وسيدرك يوسف فيما بعد أن هذه الحماقة، التي تنبعُ الحياة كلها من لاجدواها وعبثيّتها المُطلقة، سوف تكلّفهُ في النهاية شيئًا ثمينًا جدًا. تسلّق الشجرة، ومشى جهة الغصن الأكثر صلابة، وقفَز كما في المرّة الأولى حين انتصفت المسافة تحت قدميه. تعلق بالسور العالي، ودّفع جسده، ثم استدار ودفع بجسده مرّة أخرى، حتى أصبح معلقًا بيديه نحو الداخل. ركّز أنفاسهُ وقفز.

استقبلتهُ الأرض العشبيّة بارتطام لم يصدر صوتًا قويًا، وكأنّها تعرّفت عليه، فصمتت لتحميه. بقي في مكانهِ، لأكثر من عشر دقائق لم يسمع فيها أيّ صوت. ذهب وصعد الشرفة الخشبيّة بهدوء، وجلس قليلًا على الكرسيّ الخشبيّ، حتى يهدأ قلبه الذي كان ينبض بعنف. عنقود العنب في الصحن الخزفيّ ما زال على حاله منذ يومين، كما تركه يوسف. ستأتي الطير فيما بعد وتأكله، ربّما كان هذا حقّها. عاد يوسف وزحف حتى الباب الصغير تحت الشرفة، ففتحه ودخل، وعندما وصل إلى القبو، أضاء مصباح البطّاريّة، وحبس بعض الضوء الصادر منه بأصابعه. اتّجه إلى المكان الذي كانت فيه زجاجات الشرب الملوّنة. أحدهم قد شرب كأسًا هنا، كان في الكأس بقايا من الشراب البرتقاليّ قويّ الرائحة، كحول ربّما مع بعض عصير البرتقال. تذوّق يوسف بقيّة الكأس، فكان طعمها سيّئًا جدًا في فمه، سيّئًا لدرجة أنّ السائل حين لامس جدران معدتهِ، أحسّ بنار محرقة تلتهم أحشاءه.

وضع الكأس بهدوء في مكانه، وصعد الدرج، فوجد باب القبو نصف مفتوح. لم يضطرّ حتى لدفع الباب، فقد انسلّ جانبيًا، ودخل بجسده النحيل في المساحة الخالية بين الباب وإطاره. المساحة حيث الأرائك الجلديّة وشاشة العرض العملاقة مظلمة، فيما يغفو الممرّ الجانبيّ الذي يقود إلى غرفة نوم المرأة نصف العارية في ظلمة جزئيّة. من قمّة الدرج العريض، يأتي ضوء خافت. لا بدّ أنّهُ من غرفة النوم الملكيّة، أو قربها، فالضوء يأتي من عمق الممرّ، الذي يشكل امتدادًا مستقيمًا للدرج. بقي يوسف ينظرُ حولهُ لدقائق. لا صوت في القصر. فإمّا أنّ من فيه نائم، وإمّا أنّ القصر خالٍ. الساعة الآن هي الواحدة والنصف صباحًا. نظرَ يوسف في ساعته، ومشى في الممرّ المعتم جزئيًا، حتى اجتاز باب الحمّام الذي كان مضاءً. ثم عاد وفتح باب الحمّام، لا ضوء. الحمّام هنا، حمّام ملكيّ أيضًا، فيه الرخام العاتم اللون يفرش الأرضيّة، ويصل حتى السقف، في حين تبدو المرايا الفاخرة المزينة بالنحاس ربما، وربما بالذهب، لامعة في ضوء المصباح الصغير فوق المغسلة. المغسلة التي احتلت نصف الحائط كانت مصنوعة من حجر غريب، رخام بلون أزرق فاتح، أو ربّما حجر كريم. وأمّا حوض الاستحمام في العمق فكان ورديًا، بصنابير ذات لون ذهبيّ، ورسوم وزخارف. فوق المغسلة، الكثير من قطع المكياج والعطور. أخذ يوسف زجاجة عطر، وتشمّمها، العطرُ عينهُ الذي كان يسكن

فستان نوم زوجة التاجر الميّت، الثوب الحريريّ الأحمر.

بألم جديد في معدته، غادر يوسف الحمّام واتّجه إلى غرفة المرأة نصف العارية. لكنّ زجاج الأبواب هنا كله معتم، لا نور على الإطلاق. تقدّم يوسف في عمق الممرّ المعتم جزئيًا، علّهُ أخطأ في تقدير المسافة بين باب القبو وغرفة نوم المرأة نصف العارية. لكنّ الغرف على الجانبين كانت مظلمة. ربّما المرأة نصف العارية قرّرت أن تنام ليلتها هذه في الظلمة. هناك أشخاص يغيّرون عاداتهم باستمرار، حتى إنّه يقال، إنّ تغيير العادات باستمرار يعني تجديد الحياة. هذا صحيح، فربّما المرأة وجدت أنّ النوم في الظلمة يجعل الأحلام أكثر تركيزًا ووضوحًا! يذكر يوسف أنّهُ قرأ شيئًا شبيهًا بهذا. المرأة تنام خلف واحد من هذه الأبواب في ظلمة شبه كاملة، كالظلمة التي كانت فوق صفيح المياه قبل بدء الخليقة، وعليه أن يجدها الآن. بدأ يوسف يفتح الأبواب بهدوء، ويسلط ضوء مصباح البطّاريّة في عمق الغرف تباعًا. كانت الغرف مختلفة الاستعمال، فكانت إحداها تشبه غرفة مكتب، والأخريات غرف نوم. غرفة وحيدة كانت واسعة نسبيًا، وفي وسطها طاولة حمراء السطح عليها كرات ملونة، وبعض العصيّ الطويلة والرفيعة. لقد سمع يوسف بطاولات البلياردو، لكنّهُ لم يجرّبها إطلاقا. في عمق الغرفة خلف الطاولة، كان هناك طاولة صفت عليها زجاجات، طاولة شبيهة بتلك التي في القبو. دخل يوسف وأمسك بإحدى الكرات التي كانت ثقيلة نسبة

لحجمها، ثم تلمّس سطح الطاولة المخمليّ فكان ناعمًا جدًا. جلس على إحدى الأرائك في الصالة. شيئًا فشيئًا، بدأت عيناه تعتادان الظلمة الجزئيّة في الصالة، فانكشفت أبعادها الحقيقيّة. الصالة عملاقة، قد تصل أبعادها إلى أكثر من خمسة عشر مترًا في كلّ جانب، وربّما أكثر. ثم انتبه، أنّه في الجهة المقابلة يوجد برّاد بواجهة زجاجيّة، فيها بعض الضوء الذي يكشف زجاجات من مختلف الألوان. أخذ يوسف زجاجة ماء من البرّاد، وشربها. الماء البارد له طعم غريب، ماء لا يشبه الماء الطبيعيّ، إذ ربّما أضافوا له نكهة معيّنة، فبدا كماء حلو المذاق. وضع يوسف القنينة الفارغة في سلة مهملات كانت موضوعة جانبًا، وخرج من الصالة. تابع بحثه في كلّ الغرف، والمرأة نصف العارية غائبة عنها جميعًا.

عاد إلى الصالة الرئيسة على رؤوس أصابعهِ، حتى أصبح قرب باب القبو. قرّر أن يغادر بسرعة، فالمرأة نصف العارية ليست في القصر، ويبدو أنّ القصر خالٍ تمامًا. انسلّ بجسده النحيل من باب القبو نصف المفتوح، واستدار لينزل الدرج، عندما لمح مرّة أخرى ذاك الضوء الخفيف الذي يأتي من عمق الممرّ، حيث غرفة النوم الملكيّة.

عاد يوسف، واجتاز الباب من جديد جهة الصالة الرئيسة. ومنها صعد إلى الدرج العريض، ثم باتجاه الممرّ، الذي يشكل امتدادًا موازيًا للدرج. وصل باب

غرفة النوم الملكيّة، الذي كان مفتوحًا قليلا. الضوء الخافت يأتي من هنا، لكنّ المساحة التي يسمح الباب المفتوح قليلًا برؤيتها، لا تتعدّى اللوحة الكبيرة للزوجين، مع سرب حمام خلفهما في إحدى مدن الشمال. لا بدّ أنّ أحدهم ينام هنا. ربّما زوجة التاجر الميّت، تلك التي كانت تنظر في اللوحة جانبيًا إلى الحمام المتجمّع في الساحة، ونقطة سوداء زرعت أسفل التقاء شفتيها. أن يدفع الباب فيمكن أن يصدر صوتًا، ويوقظ النائم، الذي بدوره سيصرخ في ردّ فعل لاإرادي يحدث لنا جميعًا. فما الحلّ الآن؟ الحلّ الوحيد الآن، هو أن تستدير، وتخرج بهدوء، قبل أن ينتبه لوجودك ذلك النائم. لكنّ، كيف سأعرف من هو النائم هنا، إن لم أره؟ وماذا ستجني إن رأيتهُ، وعرفته؟ ما جنيتهُ في حياتي حتى اللحظة. دفع يوسف الباب بهدوء، فلم يصدر الباب ثقيل الحركة أيّ صوت. دخل يوسف بنصف جسده في المساحة المُتاحة، بين الباب وإطاره، ونظر إلى السرير: امرأة نائمة.

لم يحتج يوسف لأكثر من نظرة واحدة، ليُدرك أنّ المرأة النائمة هنا، في غرفة النوم الملكيّة، هي المرأة نصف العارية عينها. كانت المرأة ترقدُ مائلة قليلًا على جانبها الأيمنّ، تتمدّد رجلها اليمنى بالكامل، فيما تنحني اليسرى فوقها لتشكّلا مثلثًا قائمًا، تكون فيه الركبة اليسرى، زاوية رأس، فيما تشكل العانة والتقاء القدمين الزاويتين الحادّتين. ينسدل الشعر، ويغطّي كامل

الوسادة المزخرفة بالألوان، ويغطي جزءا من الكتف اليسرى، وكامل الرقبة. المرأة ترتدي ملابس داخليّة سوداء، كما رآها في المرّة الأولى، لكنّها هذه المرّة أكثر شفّافيّة، بحيث يمكن رؤية الزغب الرقيق، المختبئ في رأس المثلث الأعلى، تحت ضوء المصباح الخافت.

يبدو أنّها عندما استدارت، رمت الملاءة الحريريّة أرضًا، فتكوّرت جانب السرير، من جهة يوسف. ضوء القمر يدخل من النافذة، ويختلط في مشهد عجائبيّ بضوء المصباح الضعيف. يحتلّ ضوء القمر جزءًا من الصدر، المواجه للنافذة، وكامل البطن والركبتين، فيما يحتلّ ضوء المصباح المؤخّرة البضّة، والظهر، وجزءًا كبيرًا من الشعر الأسود. لو أنّني أستطيع أن أطفى المصباح، لرأيت شيئًا شبيهًا بالعذراء النائمة في أساطير الشعوب! لا بدّ أنّها تحلم الآن، لأن حركة صدرها وتنفسها، غير المنتظمين، يشيان بذلك. ربّما تحلمُ أنّها على شاطئ البحر، حيث كلّ شيء هادئ، إلّا من صخب الموج. الرمل، والشمس، والهواء، كلها تعمل من أجلها. من أجل قدميها، تمسّان الرمل، فيزداد دفئًا وحياة. من أجل شعرِها الأسود الغجريّ، يروّض الموج فيغدو أليفًا، لطيفًا كساقية صغيرة في الريف. تتحرّك المرأة، لتبدّل وضعيّة نومها، فينسحب يوسف بجسده خارج الغرفة، ويحتمي بالباب نصف المفتوح.

ينتظرُ قليلًا، حتى يلاحظ الفرق في صوت تنفّس المرأة، فيجده على حاله. ما زالت نائمة. كلّ خليّة في

جسدها نائمة.. كلّ غدّة وجذر شعرة ومنبت ظفر. المرأة نائمة كطفل بعد وجبة حليب دافئة. تتنفس بهدوء، فترتفع حمالة صدرها وتنخفض فوق بطنها العاري، في شكل موجيّ، يبدأ من صدرها دافع الحياة، حتى المثلث الحيّ الخصيب، مانحها. يقترب يوسف، ويلتقط الملاءة الملقاة قرب السرير، ويتشمّم رائحتها. العطر النسائيّ الخفيف مرّة أخرى. ينظر إلى المرأة، وقد استلقت على ظهرها الآن، فيرى بوضوح تلك النقطة السوداء أسفل التقاء الشفتين. رائحة العطر الخفيف كان لها فعل السحر. السهم الناريّ، اخترق أحشاء يوسف، وأضرم نارًا في معدته المتعبة. تراجع يوسف، وركع على ركبتيه في الممرّ. كان الألم الآن هو الأقوى في حياتهِ، الأكثر نقاءً والأكثر ساديّة. وكأنّهُ، جاء في هذا الليل إلى هنا، فقط حتى يتألم، كنبيّ يسلم نفسه لعدوّ، ولا يبدي أيّ مقاومة.

لامس بجبهته البلاط البارد، وانكمش في وضعيّة الجنينّ. حتى إنّهُ، إن يراهُ أحدهم سيحسبهُ يصلي. هو الآن يصلي. يصلي لسماءات بعيدة، لا تتقن لغتنا البشريّة. لسماءات قائمة في ذاتها، ولذاتها، ولا تدري عنّا شيئًا، نحن المرميّين على طرف المجرّة. يوسف لا يقوى على شيء الآن. وأقصى ما يتمنّاه هو مغادرة المكان إلى الهواء البارد، إلى مساحات مفتوحة، لا تهدأ فيها الريح، ولا تبقي رائحة. إلى مساحات لا يعود منها آخر المساء مكسورًا، جريحًا، بلا هويّة.

حاول يوسف الاستقامة بصعوبة بمساعدة الجدار القريب. ولو أن المرأة تفتح عينيها الآن، وتخرج إلى الممرّ قرب غرفة النوم الملكيّة، لرأت رجلًا يتكوّر على نفسه، في حالة ألم تشبه آلام القديسين ساعة احتضارهم. أو ربما آلام الصوفيين، حين يعتزلون، ويحاربون أجسادهم ليشاهدوا الحقّ. ولو أنّها تقترب منه أكثر، لسمعت صوت أنين خفيف. ماذا أصابك أيّها الغريب؟ الألم عينهُ يا سيّدتي، الألم الذي به أتطهّر من خطايا لم أرتكبها. هاتِ يدك أساعدك. وتمدّ المرأة يدها ليوسف. يرفع يوسف رأسهُ قليلًا، فيصبح «أصل العالم» كما رسمهُ غوستاف كوربيه، أمام عينيه. يرفع رأسه أكثر، فيجتاز مثلث الخصب نحو بطنها العاجيّ وسرّتها النحاسيّة. ثم يصل نظره لجزء من وجهها، يحجبهُ في استدارتين صدرها البضّ الحريريّ. هات يدك لتستقيم. لا أستحقّ هذا يا سيّدتي. لا أستحقّ أن ألمس حتى يدك، لا أستحقّ أن أعود من الألم مهزومًا، فيأتي في يديك بلسمي القاتل.

لكنّ المرأة نائمة في الداخل، ولا دليل على أنّها ستصحو قريبًا. ويوسف ما زال يصارع الألم وحيدًا في الممرّ. تماسك وانهض يا يوسف. هذا الألم كاف ليغسل بحارًا من دم، وحيوات من خطيئة، لا نعرف عنها شيئًا إلا اسمها. لا نعرف عنها شيئًا إلّا أنّهُ قيلَ لنا، في غفلة من عقولنا، إنّها خطيئة. هذي الخطايا يا يوسف، هي أكثر ما في الإنسان، من واقعيّة ووجود.

يستقيم يوسف بصعوبة، ويمشي الهوينا، بيد تستند إلى الجدار، حتى يصل الدرج العريض، فيقوده الدرابزين حتى الصالة الرئيسة. ثم عبر باب القبو، يخرج من الباب الضيّق إلى الحديقة، يفتح البوّابة الخارجيّة بهدوء، ويغادر.

١٣

وصل يوسف المزرعة في الخامسة صباحًا. عاد ماشيًا، وعندما فكّر أن يأخذ سيّارة أجرة، طرد الفكرة تمامًا من رأسه. سيّارة أجرة بعد منتصف الليل، لرجل تدلّ هيئتهُ على التعب والتشرّد، ربّما تثير شكوك السائق. توقّف مرّة واحدة في حديقة عامّة لم تكن مغلقة. ربّما نسي الحارس الليليّ أن يغلقها، قبل العودة إلى منزلِهِ. جلس قليلًا على المقعد الخشبيّ البارد، جانب الباب الرئيسيّ للحديقة الفارغة في هذه الساعة من الليل. هذا إحساس بالخروج عن الزمان، والمكان. تنام المدينة، وهو هنا وحيدٌ. لا شيء يدلّ على الحياة، في المكان، إلا مخلفات بشريّة واضحة متناثرة هنا وهناك. أكياس طعام فارغة، وزجاجات عصّير رُميت على عجل في سلة المهملات، فكان معظمها خارج السلة. لا شكّ أن روّاد الحديقة قد رموا مخلفاتهم، وهم يخرجون من الباب الرئيس للحديقة، حتى تكدّست أكوام منها هناك. مسكين حارس الحديقة، لقد نسي كل شيء، تنظيف الحديقة وإغلاق الأبواب. إنّ هذا سيكلفه الكثير، غدًا، عندما يمرّ مراقب البلديّة صباحًا. سنخصم من أجرك الشهريّ مقدار يوم واحد، بسبب تقصيرك في الخدمة. لكنّها المرّة الأولى يا سيّدي، التي أنسى فيها شيئًا كهذا. وبهذا ستكون المرّة الأخيرة أيّها العامل. لكنّي بحاجة إلى كلّ فلس أتقاضاه يا سيّدي، كي أطعمَ الأفواه الستّة التي تنتظرني في البيت. هذه ليست مشكلتنا.

استلقى على السرير وما زالت آثار النيران تحتضر في معدته. خلع جوربيه، فرأى تلك المساحة المُدماة في قدمه. عاد وارتدى جوربيه، بعد أن غسل الجرح قليلًا بالماء البارد. هناك ساعة واحدة تفصَلهُ عن بداية يوم عمله الأوَل. تناول قطعة خبز، وأكلها، علها تساعد معدته الممزّقة ألمًا.

نام قليلًا. وحلم بنفسه في البلدة القديمة، صغيرًا تمسكهُ جدّتهُ من يده، وتحثّهُ على الركض. كان الجميع يتراكضون، ويتصايحون، قائلين: إنّ الفيضان قادم، وإنّه ربّما سيكون أسوأ من أيّ عام. الفقراء كانوا يحملون ممتلكاتهم الحقيرة، ويهربون بها. سقط متاع، وأجهزة راديو قديمة، وأجهزة تلفاز لا تساوي الكثير، لكنّها كانت أغلى ما يملكون. ذهب الأهالي بعيدًا، واحتموا بتلة قريبة. لم تكن التلة عالية جدًا، لكنّهم كانوا يعتقدون أنّ الماء لن يرتفع لأكثر من ارتفاعها، وكانوا مخطئين. بدأت المياه تجتاح كلّ شيء في طريقها، الأشجار، والبيوت، وبعض السيّارات التعسة التي باتت ليلتها هنا، في البلدة القديمة. يوسف الصغير يرى تمدّد المياه، ولا يصدق عينيه. كان المنظر شبيهًا بامرأة تشطف حديقة بيتها بالماء، فتكشط أوراق الشجر، والأوساخ، وقصاصات الورق. الفارق الوحيد، أنّ الأوراق والأوساخ، هنا، كانت أسطح المنازل، وأبوابها، وكراسي خشبيّة، وفُرُش، وأغطية. باختصار، كلّ ما يمتلك الفقراء كانت تسوقه المياه بوحشيّة. رأى يوسف

قوّة المياه وجبرّوتها. كان يمسك بيد جدّته، حين بدأت المياه تغمر أسفل التلة، وترتفع تدريجيًا. السكّان الذين حاصرتهم المياه، كانوا يراقبون، وقد جمّدهم الرعب. ترتفع المياه بسرعة، وتبتلّ أقدام من كانوا في محيط الحلقة الخارجيّة، لهذه الكتلة البشريّة، والذين حاولوا الدخول في العمق ليحتموا من المياه. بدأ الصياح والتدافع. لكنّ المياه لم تمهلهم كثيرًا، ومنحت الجميع بالتساوي فرصة الغرق. ربّما المياه جبّارة، قاسية، لكنّها لا تميّز أحدًا، بل تمنح الجميع الغرق عينه. تمنح الجميع الموت عينهُ دون تمييز. أفلتت يد يوسف من يد جدّته في التدافع، وبدأت الكتلة البشريّة تتموّج مع المياه. ارتفعت المياه كثيرًا، فغمرت التلة كلها، ودفعت الكتلة البشريّة، وفتّتتها لأجزاء صغيرة. يوسف يصرخ، وجدّتهُ تصرخ وتناديه. صراخ في كلّ مكان.

افتح البوّابة، يا رجل. هل ما زلت نائمًا في يوم عملك الأوّل؟! صراخٌ في الخارج. استيقظ يوسف، وقد اختلط الأمر عليه، بين صراخ السكّان الذين على وشك الغرق، في البلدة القديمة، وهذا الصراخ الذي يأتي من الخارج. ثم استدرك أين هو، واستطاع بصعوبة الفصل بين الحلم وهذه الأصوات. افتح الباب يا رجل. ماذا حلّ بك في الداخل؟ إنّهم العمّال. فهم يوسف ما يجري نهاية، فالعمال جاؤوا، ووجدوا البوابة مغلقة، وها هم يتصايحون في الخارج. ركض، وفتح البوّابة، وبدأ يعتذر للعمّال الذين كانت وجوههمَ تدلّ على الضيق

والانزعاج. اعذروني، لم أكن نائمًا، لكني لم أنتبه أن الساعة تجاوزت السادسة. ينظر إليه العمّال الذين كانوا يدخلون البوّابة نصف نيام، بوجوه رسم فيها الجوع والبرد كثيرًا من صوره الأبديّة، ينظرون إليه، وعيونهم تكذب ادّعاءاته بعدم النوم. انكسرت نظرة يوسف، وهوت نحو الأرض، فعاد مطأطأ الرأس، يغلق البوّابة جزئيًا، ويسير خلف العمّال.

اقترب أحدهم منه. لا عليك يا أخي. هي ليست نهاية العالم، لكنْ في المرّات القادمة انتبه أكثر. وصرخ في العمّال، ويبدو أن لهُ فيهم كلمة. يا شباب، لن تخبروا صاحب المزرعة، بخطأ العامل الجديد، غير المقصود. لم يتلقّ ردًا، فرفع صوتهُ أكثر، لم أسمع جوابًا يا شباب. عندها قال الجميع: حسنًا، لن نخبره. ثم عاد الرجل، ووضع يده على كتف يوسف، الذي كان يحسّ برغبة عارمة بمغادرة المكان. لا عليك يا أخي، تعال ولنبدأ عمل يومنا الشاقّ. يوسف نظر في عيني الرجل، وابتسامة شكر ترتسم على شفتيه: شكرًا لك.

ترك الرجل يوسف، وبدأ يفصل العمّال إلى مجموعتين. لا بدّ أنّه رئيس العمّال، وكلمتهُ هنا مسموعة. أنتم ستحملون الصناديق الجاهزة إلى سيّارة الشحن، الواقفة خارج البوّابة؛ وأنتم ستذهبون في عمق المزرعة، وتباشرون بالقطاف. كان يوسف في المجموعة التي ستبدأ بقطاف البرتقال. لا بدّ أن الرجل أشفق على جسد يوسف الضعيف، فأرسله في العمل الأقل قسوة.. هذا

الرجل الطيّب!

كان سليمان، في المجموعة نفسها التي ذهبت في عمق المزرعة لتبدأ بقطاف الثمار. بدأ سليمان يعلمه كيف يقطف ثمرة البرتقال دون أن يكسر أغصانها، وكيف عليه ألا يرمي الثمار في الصناديق رميًا، حتى لا تتضرّر الثمرة، وتفقد بعضًا من قيمتها. عليه أن يملأ المئزر الملفوف حول خصره بالبرتقال، ثم يأخذه ويدليه قليلًا فوق الصندوق، فتتدحرج الثمار لتملأ الصندوق. هكذا ببساطة يقول سليمان. وكلما ملأت صندوقًا، ستنقله إلى طرف المزرعة قرب غرفة الحارس، غرفتك. حسنًا، سأفعل.

بدأ يوسف القطاف. رائحة الثمار الذكيّة بعثت في نفسه الانتعاش بداية، ثم، وبعدما تقدّم الوقت، بدأ يوسف يشعر بالتعب. لم يكن معتادًا على أعمال كهذه. لم يكن القطاف صعبًا، لكنّ نقل الصندوق الممتلئ حتى زاوية السور قرب البوّابة الخارجيّة كان عملًا شاقًا. حمل الصندوق هذه المسافة الطويلة جعل يوسف يشعر بالدوار أحيانًا، لكنْ لا خيار لديه، إن كان يريد أن يحتفظ بهذا المأوى، فعليه العمل، العمل دون تذمّر.

عندما حانت ساعة الغداء، كان يوسف شبه ميّت. خارت قواه جميعها، وأحسّ أنّ الطاقة - إن كان يمتلك بعدُ طاقة - في جسده، قد استُهلكت. خصوصًا أنّه في اليومين السابقين لم يأكل الكثير، لكنّهُ قرّر أن يأكل جيّدًا في ساعة الغداء حتى يستطيع العملَ مجدّدًا.

اقترب منه سليمان. هل ستذهب معّي إلى المدينة، أم أنك ستبقى ترتاح هنا؟ بل سأذهب معك، فإني أحسّ بجوع قاتل. حسنا، سأخبر رئيس العمال أننا سنغادر المزرعة في ساعة الغداء. ذهب سليمان، وعاد يصطحب يوسف معه إلى المدينة.

مرّا بحيّ الصفيح الذي كان، كما اليوم السابق في هذا الوقت، يعجّ بالحياة. كلّ شيء هنا حيّ، حيّ وحقيقيّ. كلّ شيء هنا صورة حقيقيّة لما ترى. الفقر والبؤس ووجوه الأطفال الضاحكة. قطعا حيّ الصفيح، ووصلا إلى المقهى الشعبيّ. تعال معي إلى بيتي، سنتناول طعام الغّداء سويًا ثم نعود. شكرًا لك يا صديقي، أنت شهم وكّريم، لكني أفضّل الذهاب إلى السوق. حسنًا، كما تريد، لكني أكرّر دعوتك لتناول الغداء معي في منزلي، سنأكل ممّا هو موجود. يوسف لا يريد أن يقتصّ لقمة واحدة من فم أحد أبنائه، فشكره على الدعوة، وذهب إلى السوق، بعد أن اتّفقا على اللقاء جانب المقهى الشعبيّ للعودة سويًا إلى المزرعة.

ذهب يوسف إلى مطعم شعبيّ قرب المقهى. طلب بيضًا مقليًا مع بعض اللحم، وخبزًا، وكأسًا من اللبن. أكل وشرب اللبن. كان اللبن يهدّئ معدته في ثوراتها الجامحة. جدّتهُ كانت قدّ أخبرته أنّ اللبن مفيدٌ جدًا للمعدة المتعبة، فبدأ يشرب اللبن كلما استطاع. طلب كأسًا آخر من اللبن فأحسّ بالامتلاء. ثم بدأ ينتظرُ صديقّه. وعندما نظر إلى ساعته، وجد أنّ هناك بعض

الوقت المتبقي لعودة صديقه. ذهب إلى كشك الجرائد، واشترى جريدتين وعاد ليتصفّحهما. لا شيء عن جريمة قتل في البلدة القديمة، أو عن جريمة تزوير في جثّة ميّت. هذا حسنٌ. لم يكتشفوا شيئًا، ولولا بطاقتي المفقودة لاستطعتُ العيش كملايين البشر. أرقام على سجلات الموت والولادة. اليوم يوم عطلة، وغدًا أيضًا، ثم بعد غد ستعود الحياة إلى المدينة. ستفتح دوائرها الرسميّة للمراجعين. ما زال يوسف يفكر جديًا بمراجعة دائرة المحفوظات في بلديّة المدينة علهُ يحصل على بطاقة شخصيّة تفتح له بابًا جديدًا في الحياة. ربّما السفر نحو دول الشمال.

عاد سليمان، واصطحب يوسف إلى المزرعة من جديد عند الثالثة ظهرًا. مرّا بحيّ الصفيح وهو في ذروة نشاطه. كان الأولاد بالعشرات يلعبون شبه عراة، يتضاحكون، ويقضمون خبزًا أسمر سميكًا، خبزته الأمّهات في اليوم السابق. يرسمون الحياة في واحدة من صورها الحقيقيّة القليلة. الحقيقيّة والفجّة. يفسحون المجال للمارّة حتى يمرّوا، ثم يعاودون الركض، والقفز بكرات صغيرة صنع معظمها بأيديهم الصغيرة، وأحيانًا بمساعدة الأمّهات وإبر خياطتهنّ، ومُزَق قماش يبقى من شيء ما. عند المرور في الساحة، رأى يوسف بعض الرجال يقفون عند الزاوية بين شارعين صغيرين، وكان من بينهم عامر، ذاك الذي سقا يَوسف بعض الحليب عند مروره الأوّل من هنا. ذهب

يوسف باتجاهه فورًا. مساء الخير يا أخي. أهلًا بك، كيف أصبحت معدتك. الحمد لله، أفضل.. لقد اعتدت هذا الألم، لكنّه يأتي أحيانًا بقسوة. عافاك الله يا أخي. شكرًا يا عامر. ماذا تعمل. بدأت العمل اليوم في مزرعة برتقال قريبة من هنا، وأنت؟ أنا أعمل في بلديّة المدينة عامل نظافة. يعمل الرجل في بلديّة المدينة. ربّما استطاع مساعدة يوسف في استصدار بطاقته الشخصيّة الجديدة. لكنّلا علاقة لعمّال النظافة بدائرة المحفوظات في بلديّة المدينة، فهما قسمان منفصلان. لكن، ربما الرجل يعرف أحدا هناك ويمكنه المساعدة. لا، هذا مجرّد كشف العري أكثر دون طائل. وهل عملّك جيّد، يقول يوسف؟ أعمل ليلًا في جمع القمامة مع اثنين. نتعلق بطرف الشاحنة، ونرمي القمامة فيها، ليس عملا عظيمًا، لكنْ لا خيار لي. يبتسم عامر بمرارة، شيء شبيه بتلك الابتسامة حين يخبرنا أحدهم بكياسة أنّنا فشلنا في امتحان معيّن، فنبتسمُ لنخفي أشياء أخرى. ليكن الله معك يا أخي. مع السلامة. مع السلامة. يغادر يوسف وسليمان، وقد تأخّرا قليلًا. أمامهما أربع ساعات لينتهي يوم العمل هذا. اجتازا حيّ الصفيح، ودخّلا المزرعة. كان العمّال يستعدّون للبدء بالعمل، وقد تحوّلوا كلهم إلى مجوعة واحدة تقوم بالقطاف، بعد أن انتهت المجموعة الأولى من تحميل الصناديق إلى الشاحنة. أخبره عامر أنّه في يوم الغد، سيكون عليهما أن يعملا في التحميل صباحًا. لأنّ رئيس العمّال يغيّر

المجموعات بالتناوب. كان هذا خبرًا غير سارّ ليوسف، وقد رأى كيف استمرّ العمّال بتحميل الشاحنة ما يقارب السبع ساعات. أيّتها السماء المباركة، كيف سيصمد يوسف غدًا لسبع ساعات في حمل هكذا صناديق!؟ ربّما من الأفضل أن يخبر صاحب العمل برغبته في الاحتفاظ بوظيفة الحارس الليليّ فقط. يمكنهُ أن يخبره بألم معدته، وعدم قدرته على العمل الشاقّ هذا.

كانا قد وصلا عمق المزرعة، عندما ظهر صاحب المزرعة، واقترب من مجموعة العمّال، وتوجّه بالسؤال لرئيسهم. كيف تسير الأعمال. بأحسن حال يا سيّدي. لقد انتهينا من تحميل الشاحنة التي انطلقت إلى سوق المدينة، والآن سنقطف الأشجار التي في الجزء الغربي من المزرعة. هل لديكم أي توجيهات معينة يا سيّدي؟ لا.. تابعوا العمل كالمعتاد. سأبقى قليلًا هنا أراجع بعض الفواتير، وأعود إلى المتجر في السوق. إن احتجت شيئًا يمكنك الاتّصال بي. حسنًا يا سيّدي، سأفعل. ثم نظر صاحب المزرعة إلى يوسف، نظرة كتلك التي تعرّي الشخص، وتجعلهُ يشعر بعدم الراحة. سأضيف اسمك إلى سجلّ أجور العمّال، وسأحتاج بطاقتك الشخصيّة غدًا عندما سأحضر في مثل هذا الوقت.

يوسف عاد إلى الدائرة المغلقة. يلتفّ فيها كجُرم صغير. فما إن تحملهُ أرضٌ لتأويه، تعود وتدفعهُ خارجها، كخروف ضالّ خارج القطيع. تدفعهُ خارج أرضها كطاعون أو وباء. يوسفلا يقول شيئًا. يبتسم

ابتسامة بلهاء، ويهزّ برأسه. وصاحب المزرعة الذي اعتقد أنّ ابتسامة يوسف تلك علامة على سعادته بتثبيته في العمل داخل المزرعة، ابتسم هو الآخر علامة على الرضا، وعلى كونه رجلًا صالحًا يعطي كلّ ذي حقّ حقّهُ. حتى العمال الطيّبون الذين فهموا في طلب صاحب المزرعة من يوسف بطاقته الشخصيّة علامة على تثبيته في العمل، واجتيازه الاختبار، ابتسموا هم أيضًا، وبدأوا ينظرون إلى يوسف في نظرة تواطؤ تقول مرحى، أو مبارك قبولك في العمل، أو ربّما هذا جيّد. ويوسف الذي لم يشأ أن يفهم أصدقاءه صمتهُ على أنّهُ تعالٍ، أو تجاهل، بدأ يبتسم هو الآخر. كم صعب أن نبتسم، ونحن على حافّة البكاء! كم صعب أن نغيّر ملامح وجهنا، فتعكس صورة هي العكس تمامًا لما نشعر! لمَ توجَب على البشريّة أن تكذب منذ طفولتها الأولى؟ نبتسم للآخر في الوقت الذي نريد أن نبكي. نبتسم لهُ في الوقت الذي نريد بكل كياننا أن نشتمهُ.

عليه أن يعمل هذه الساعات الأربع ليضمن له مأوى هذه الليلة، وفي الغد لن يجد مأوى. دع الغد يأتي بغدِهِ كما كانت تقول جدّتهُ، حين تضيقُ الأمور عليهم في البلدة القديمة. ها قد ضاقت حتى وصلت ذروتها أيّتها الجدّة، التي تسبحُ الآن في عمق السماء. ضاقت، حتى باتَ المأوى عزيزًا لا يطال. اقترب سليمان من يوسف وبدأ يهنئهُ. ويوسف الذي كان على وشك البكاء، شكر صديقهُ. تلك الازدواجيّة في حياتنا ما أصعبها! ذلك

التلوّن هو من جلب للبشريّة شقاءها وزيفها! تقدّمت المجموعة وبدأت بقطاف البرتقال. كان يوسف يعمل بصورة آليّة. غدًا سيكون اليوم الثالث للعطلة، وسيجد نفسهُ ليلًا بلا مأوى. لكنْ، ماذا لو أخبر صاحب المزرعة بقصّته التي اخترعها عن سرقة بطاقته الشخصيّة. سيطلب منه استصدار بدل عن ضائع للهويّة من دائرة المحفوظات في بلديّة المدينة. وإن هو فعل ذلك، وحصل على بطاقة شخصيّة جديدة، ستنتفي الحاجة للعمل الشاقّ في المزرعة. ببطاقة جديدة يمكنه العيش في أيّ نزل رخيص، ولا حاجة به لمثل هذا العمل. لقد كان سعيدًا في المزرعة لحصوله على مأوى دون الحاجة لبطاقة شخصيّة، وأمّا الآن، فقد عاد لنقطة البداية: الهويّة المفقودة. حسنًا، سيغادر في الصباح.

انتهى يوم العمل، وبدأ العمّال يغادرون المزرعة عند السابعة والنصف مساءً. اقترب سليمان من يوسف. استيقظ باكرًا في الغد، حتى لا يتكرّر ما حصل صباح اليوم. حسنًا، سأفعل. إني سعيد يا صديقي أن صاحب المزرعة سيستبقيك للعمل حتى نهاية الموسم. شكرًا لك وأنا سعيدٌ أيضًا. سأذهب معك إلى المدينة، عليّ الاتصال بالجنوب، لأرى كيف تسير الأوضاع هناك، وسأشتري شيئًا للعشاء، حسنًا.. هيّا بنا.

افترقا عند المقهى الشعبيّ. ذهب يوسف، واشترى من المطعم القريب فطيرتي جبن وزجاجة لبن، ثم عاد إلى المقهى الشعبيّ وطلب كأسًا من الشاي. لم يكن المقهى

مكتظًا كما رآه ليلة أمس. ربّما سيبدأ الروّاد يتوافدون كلما تأخّر الوقت. نظر إلى الهاتف العموميّ على الرصيف المقابل، فوجد الغرفة فارغة. قشور الأطعمة الجاهزة تتحرّك في الغرفة بفعل التيّار الهوائي الذي يمرّ أسفل الجدار الشفّاف. بعضها يخرج من الغرفة، ويتابع طريقه إلى الأرصفة القريبة، وبعضهُ الآخر يدخل الغرفة، فيختلط بقشور أطعمة قديمة وأوراق شجر. تفضّل يا سيّدي، هذا كأس الشاي. شكرًا لك، هل لي بسؤال؟ تفضّل يا سيّدي. هل تعرف أحدهم يريد تأجير غرفة صغيرة بأجر معقول، فأنا غريب قادم من الجنوب؟ سأستفسر لك من الزبائن يا سيّدي. مرّ بي غدًا عند الظهيرة، وسأخبرك بالنتيجة. حسنًا إلى الغد، شكرًا لك.

دخل يوسف غرفة الهاتف العمومي، وبدأ يضغط الأزرار البرتقاليّة. نسي الرقم الأخير، فأخرج الورقة من جيبه ونظر إليها. إنّهُ الرّقم سبعة. والقصر أيضًا رقمه سبعة. يقال إنّ الرقم سبعة مقدّس. بعض القديسين صعدوا حتى السماء السابعة في رحلاتهم الطقسيّة. طلب الرقم، وانتظر رنين الهاتف. رن الهاتف رنّتين، وجاء الصوت من الجهة الأخرى «ألو». صمت يوسف قليلًا، ثم قال: مساء الخير سيدتي. مساء الخير. يفكر يوسف أن المرأة نصف العارية تقف الآن قرب شاشة العرض العملاقة. تستند بيدها اليسرى إلى تلك المنحوتة السوداء التي تمثلّ ربّما آلهة الجمال، وتحمل بيدها الأخرى السمّاعة. منْ المتكلم؟ تنحني الآن قليلًا إلى

الأمام، لتستند بكوعها على الطاولة العاجيّة العالية، فيلامس طرف فستانها الأبيض الشجريّ صدر المنحوتة، وينحسرُ عن باطن الركبة. تقدّم قدمها اليمنى قليلًا، لتحافظ على توازنها، فتبدو كعدّاءة تستعدّ لسباق الماراثون. نحن هنا الشركة العامّة لتنظيم الحدائق، وتنسيقها. كنّا نتساءل إن كنتم بحاجة لجنائني يهتمّ بحديقة قصركم، ويعتني بالأشجار فيها. وكيف عرفتم أنّ من تتّصلون به يسكن قصرًا، وليس شقّة لا حديقة لها في بناء طابقي؟ تعتدل المرأة نصف العارية، وتستند بظهرها المتقوّس قليلًا إلى الحائط. تسحب يدها عن المنحوتة، وتضعها في شعرها السائبُ الأسود على كتفيها. يوسف لم يتوقّع جوابًا كهذا. هذا صحيح! كيف لشركة أن تعرف من رقم الهاتف أيّ شكل من المنازل يسكن الزبون. نحنُ نقدّر سيّدتي، فالمنازل في تلك المنطقة كلّها بيوت فاخرة وليست شققًا في أبنية. لستُ بحاجة لجنائنيّ. ببساطة، لأنّ في القصر جنائنيًا. تجلس المرأة الآن على أريكة جلديّة، وقد ثنت ركبتيها، وقرّبتهما من صدرها. ما زالت تمسك السمّاعة بيدها اليمنى فيما تلتفّ اليسرى حول ساقها. حسنًا، شكرًا لك، لكنْ ربّما تحتاجين لمن ينظف الحديقة من أوراق الشجر التي تساقطت في الخريف، وحملتها الريح من الجبل. لا شكّ أنّ يوسف أخطأ الآن. لقد حدّد الموقع الجغرافي للقصر، وإن لم يكن تماما، فقد ذكر منطقته، وجواره. والمرأة التي لم تفوّت الفرصة، قالت: يبدو أنّ الشركة

تعرف موقع القصر بالتحديد. يستدرك يوسف على غير عادتهِ. يا سيّدتي، نحن شركة كبيرة ندرس مواقع الزبائن قبل الاتصال بهم. على كلّ حال، أعتذر إن كنتُ قد أزعجتُكِ. المرأة نصف العارية تتناول الآن كأسًا من عصير البرتقال وضِعَ على الطاولة القريبة، ترشف رشفة خفيفة، وتقول: لا بأس، لم تزعجني إطلاقًا، لكنّني لست بحاجة لخدماتكم ببساطة. تعود المرأة تقف قرب المنحوتة السوداء. حسنًا، شكرًا لك سيّدتي، تصبحين على خير. مع السلامة.

يوسف لن يرى أبدًا المشهد على حقيقته في الجهة الأخرى من الهاتف. المرأة لم تكن ترتدي فستانًا أبيض شجريًا. كانت في غرفة نومها ترتدي بنطلونًا أسود وقميصًا أبيض بخطوط سوداء عريضة، ومعطفا من فرو أبيض. ثياب تدلّ على أنّها إمّا ستغادر المنزل عمّا قريب، أو أنها عادت للتوّ. ولن يدرك أن المرأة قارنت الرقمين المتّصلين مساء أمس واليوم، وطابقتهما. ثم لن يُدرك أبدًا أنّ المرأة اكتشفت بهاتفها المتطوّر أنّ الاتّصالين جاءا من هاتف عموميّ.

١٤

نام يوسف لدى عودته مباشرة. كان مرهقًا بعد يوم العمل الطويل. كان حزينًا لأنّه سيعود بلا مأوى في صباح الغد، فهرب إلى النوم حتى يؤجّل التفكير. غالبًا ما نهرب من مشاكلنا إلى النوم. النوم تلك الوصفة السحريّة التي تمسح كلّ شيء في لحظات. النوم ذلك الموت الصغير الذي يتساوى فيه الجميع كالموت والولادة. لا بدّ أنّهُ خلِقَ في اللحظة الأخيرة للتكوين كمخدّر للألم.

كانت أحلامهُ متقطّعة. رأى تلك القطّة الصغيرة التي كان يطعمها في الشتاءات تبكي، وتعاتبهُ. رأى صديقه الحارس في المقبرة، يخبرهُ أنّهم عيّنوا بديلًا عنهُ لحراسة المقبرة في الليل. وأنّهُ حزن كثيرًا لموته.

استيقظ عند الخامسة والنصف. كانت الغرفة باردة، فقد نسي تشغيل المدفأة الكهربائية في الليل. كان يرتجف بردا، في اللحظات الأولى بعد استيقاظه، أحسّ بالبرد يصل نقي عظامه. شغّل المدفأة، وجلس قربها علها تعطيه بعض الدفء، ثم اعتدل، ولبس حذاءه، وجمع بقايا الطعام الذي اشتراه في الليلتين الماضيتين في كيس استعدادًا للمغادرة. بدأ ينتظر قدوم العمّال.

عند السادسة، فتح البوّابة، وجلس على كرسيّ قديم قبالتها، حتى بدأ العمّال يتوافدون. صباح الخير يا يوسف. صباح الخير. مرّ العمّال، ودخلوا في عمق المزرعة. انتظر حتى جاء سليمان، فأخذه جانبًا. تلقّيت

أنباء غير سارّة من الجنوب، وعليّ المغادرة. أرجو أن تعتذر من صاحب المزرعة، وتشرح له سبب مغادرتي. آسف لسماع شيء كهذا، لكنّ هل ستعود قريبًا. لا، لن أعود إلى هنا، بل سأبقى في الجنوب. وأجرك عن يوم أمس، ألن تبقى حتى تأخذه من صاحب المزرعة؟ إن بقي ليأخذ الأجر الذي لن يتجاوز قروشًا قليلة، فهذا يعني أنّ عليه إبراز بطاقته الشخصيّة. لا أستطيع الانتظار، صدّقني، فالأمر مستعجل، ولا يحتمل انتظارًا. حسنًا، في أمان الله يا يوسف. شكرًا لك يا سليمان. لقد كنت صديقًا طيّبًا. اسمع، حاول أن تحصل على أجرتي عن يوم أمس. قل لصاحب المزرعة إنّك سترسلها لي بالبريد، واحتفظ بها. أنت أحقّ بها من صاحب المزرعة. شكرًا يا صديقي، سأحاول ذلك. تعانق الرجلان قليلًا ثم افترقا.

بكى يوسف وهو يعبر حيّ الصفيح الشبه خال من المارّة هذه الساعة. الأطفال لا زالوا نائمين في أسرّتهم الدافئة يحلمون بأيّام أجمل. يوسف ينظر جهة الأرض حتى لا يرى دمعه أي عابر، وربّما يسألهُ: هل أنت بخير يا أخي؟ لا يريد يوّسف الآن أن يحادث أحدًا، أو أن يشّرح نفسهُ لأحد. أبكي، لأني بلا مأوى. لماذا أنت بلا مأوى؟ لأني لا أملك بطاقة شخصيّة. وأين بطاقتك الشخصيّة. دفنتها مع التاجر الميّت. هذا الحديث العبثيّ الذي لن يغيّر شيئًا. أحيانًا، تكون أحاديثنا، رغم عبثيّتها وعدم قدرتها على تغيير الواقع، مريحة جدًا،

وأحيانًا تكون واجبًا ثقيلًا نتجنبهُ. ماذا سيتغيّر لو أنّ يوسف أوقف أوّل عابر سبيل وروى لهُ قصّتهُ كاملة؟ سيهزّ الرجل برأسهِ قليلًا، في تأثّر بقصّة يوسف الحزينة ربّما، ثم يقول: مسكين أنت يا أخي، كان الله في عونك.. ولا شيء غير ذلك. لا أحد يمتلك تلك العُصي السحريّة، التي قرأنا عنها، وهي تشقّ البحار، وتغيّر القدر. لا أحد يستطيع تغيير شيء حدث في الماضي. لماذا نعرض ألامنا على الملأ؟ لكنّ الحال هنا في حيّ الصفيح ما زال بخير قليلًا. لو أنّ يوسف ذهب في عمق المدينة واستوقف رجلًا. ليس عابر سبيل بل رجلًا يعرفه، صديقًا أو جارًا أو ما شابه، وحاول أن يروي لهُ قصّتهُ التعسة. يا صديقي، لقد قتلت رجلًا عن غير قصد. عذرًا منك يا صديقي، لا أستطيع مواصلة الحديث معك. لقد تأخّرت عن عملي. لن يستمع أحدٌ لشكوى يوسف، لن يجد أحدًا يمنحهُ بضع دقائق من وقته ليستمع لهُ فقط، لا لأن يمنحهُ حلولًا معقولة لمشكلته. فلِمَ المحاولة؟ كان تشيخوف قد حمّلَ أحد أبطال قصصه «الحوذيّ بوتابوف» على إخبار الفرسَ بموت ابنه.. بعد أن رفض الجميع سماع شكوى الأب المتألم. فلِمَ المحاولة؟ يمكن ليوسف أن يختار شجرة أو نهرا، ويبدأ.. اسمع يا أخي، لقد قتلت رجلا.

وصل يوسف قبالة المقهى الشعبيّ الذي كان مغلقًا في هذه الساعة. صفّت الكراسي فوق الطاولات في زاوية المقهى، فيما يبدو بعض الأشخاص يقومون بتنظيف

المكان بعد ليلة الأمس. المدينة ما زالت في عطلتها، واليوم هو العيد الوطني. لا يدري يوسف شيئًا عن هذا العيد. كانوا في المدرسة يحتفلون بهذا العيد في اليوم الذي يسبقهُ. يصطفّ الطلاب في ساحة المدرسة، ويبدأ المدير أو أحد المدرّسين يقرأ في ورقة مكتوبة سلفًا، فيتغنّى بهذا العيد. مرّ على يوسف أعياد وطنيّة بعدد سنين عمره، وهولا يدري شيئًا عن ماهيّة العيد الوطني.

أمامهُ يومٌ طويل وعليه أن يقتل الوقت. نقتلُ الوقت عمومًا حين ننتظرُ شيئًا قادمًا وغالبًا ما يكون مفرِحًا، لكنّ يوسفلا ينتظرُ شيئًا، بل إنّهُ يريد للوقت أن يمرّ ولا يريدهُ أن يمرّ في الوقت عينه، فحلول الليل سيحمل إليه ليلًا بلا مأوى.

ذهب يوسف إلى الحديقة العامّة التي رأى فيها الأمّ وابنها الصغير. الحديقة خالية تمامًا في هذه الساعة المبكرة من يوم العطلة. وضع يوسف كيس الطعام على المقعد وأسند ظهره. لو أنّ اليوم لم يصادف العيد الوطنيّ، لذهب إلى دائرة المحفوظات في بلديّة المدينة، وحاول الحصول على بطاقة شخصيّة جديدة. لكنّهُ، والحال هذه، عليه أن يقضي يومًا كاملًا قبل الذهاب. لعلّ عامل المقهى يجد لهُ غرفة للإيجار عند عائلة فقيرة، فهؤلاءلا يطلبون بطاقات شخصيّة. لكن إن لم يجد عامل المقهى غرفة، فما العمل؟ لا يمكنه أن يبقى يوما كاملا في الخارج وخصوصا في الليل. أحسّ يوسف برأسه يكاد ينفجر، فقرّر ألّا يفكر في شيء. دخل

في هذه الأثناء رجل عجوز يجرّ كلبًا صغيرًا خلفهُ إلى الحديقة، وجلس على مقعد قريب. حرّر الرجل الكلب الذي بدأ يركضُ في كلّ الجهات كطفل يلعب. بدأ يوسف يأكل فطيرة الجبن التي اشتراها ليلة أمس حين اقترب الكلب منهُ، وبدأ يقفز حولهُ. يوسف الذي اعتقد أنّ الكلب يفعل هذا لأنّهُ يريد بعض الطعام، مدّ يده بقطعة من الفطيرة للكلب. جاء الكلب، وأخذها من يده، وبقي قربه. بدأ يوسف يلاطف الكلب الذي دلّت هيئته على صغر سنّهِ، قدّر يوسف عمره بشهرين أو ثلاثة أشهر. كان أبيض اللون، مع بقعة داكنة على جنبه الأيمن. ينظرُ يوسف إلى الكلب الممتلئ نشاطًا، ويذكر تلك القطّة في البلدة القديمة. اقترب العجوز من يوسف. صباح الخير. صباح الخير يا سيّدي. أرجو ألّا يكون إطعامي للكلب قد سبّب لكم أيّ إزعاج. على العكس، هذا لطف منك. جلس الرجل العجوز قرب يوسف. أسكنُ قريبًا من هنا، وآتي كلّ صباح إلى هنا مع هذا الكلب الصغير. هو صديقي الوحيد بعد أن بلغت من العمر عتيًا. كم عمره؟ أربعة أشهر. أعطاني إيّاه أحد أصدقائي، ليؤنس وحدتي، بعد أن سافر ابني الوحيد للعمل في دول الشمال. هل تسكن قريبًا من هنا؟ لا يا سيّدي أنا غريب عن هذه المدينة، جئت من الجنوب، والآن أبحث عن عمل هنا. وهل وجدت عملًا؟ ليس بعد، ما زلت أبحث. وهل وجدت مكانًا تقيم فيه، ليس بعد، فقد وصلت هذا الصباح. يكذب يوسف من جديد، وهو

يجاهدُ أن لا تنحدر دمعة باردة من عينه. لن يشرح للعجوز قصته في المدينة، فذلك لن يغيّر شيئًا. لا شكّ أنّك تبحثُ عن غرفة للإيجار، فالغرف في الفنادق الشعبيّة مرتفعة السعر بعض الشيء. نعم، يا سيّدي، أبحث عن غرفة صغيرة للإيجار، فليس لي طاقة بأجر الفنادق. اسمع يا بني. أسكن وحدي في بيت كبير، وفيه غرفة منفصلة تمامًا، ولها بابها الخاصّ إلى الخارج. كنت قد فصلت تلك الغرفة عن البيت من أجل ابني، ليشعر بحرّيّته ويبقى قريبًا منّي، لكنّهُ فضّل السفر للعمل. إن شئت أعطيتك إيّاها بأجر معقول، علّ وجودك يشعرني ببعض الألفة.

يوسف لا يصدّق ما يسمع. ها هو المأوى يأتيه مرّة أخرى دون عناء، لكنّهُ سيخذلهُ كما في السابق. ربّما هذا العجوز الطيّب لن يطلب منه بطاقة شخصيّة لتوقيع عقد وما شابه. لا بأس إن هو وافق العجوز ليرى نهاية هذا الطريق. هذا يا سيّدي كرم منك، وإنّهُ لمن دواعي سروري العيش في جوارك. حسنًا يا بني، سنذهب بعد قليل لترى الغرفة، فإن أعجبتك بقيت فيها، وبدأت تبحثُ عن عمل. لا داعي لأن تدفع الأجر لي مباشرة، يمكّنني الانتظار حتى تجد عملًا في المدينة. هذا العجوز الطيّب، عله لن يطلب بطاقتي الشخصيّة.

ذهب يوسف صحبة العجوز إلى البيت. لم يكن البيت بعيدًا عن المقهى الشعبيّ، في الجهة المقابلة لسوق السمك. كان البيت واسعًا، فيه حديقة تحيطها الغرف

من كافّة الجوانب. تعال يا بني، سأريك الغرفة. كانت الغرفة واسعة قليلًا، فيها سرير وكرسي وطاولة، ولها باب يفضي إلى الخارج. المرحاض والحمّام والمطبخ ستكون مشتركة بيننا. هذا حسن جدّا يا عمّ. هل أعجبتك؟ إنّها ممتازة. حسنًا، سأتركك الآن ترتاح قليلًا من وعثاء السفر، وأراك ربّما في المساء. عاد العجوز بعد أن خطا خطوتين. يمكنك أن تستحمّ قبل أن تخلد إلى الراحة إن أحببت. نعم، سيكون هذا مناسبًا جدّا. فأخذه العجوز، وقاده إلى الحمّام.

كان للحمّام الساخن بالصابون فعل السحر على جسد يوسف. أحسّ أنّهُ يولدُ من جديد في الماء. نظّف رأسهُ وجسدهُ جيّدًا، فهو ليس يدري متى ستُتاحُ له الفرصة من جديد بأخذ حمّامٍ ساخنٍ كهذا. نشّف جسده عندما انتهى، وعاد إلى الغرفة.

الغرفة كانت جيّدة ونظيفة، فيها برّاد صغير وأريكة لم ينتبه لها يوسف عند دخوله. خلع يوسف حذاءه وتمدّد على السرير، ونام. لم يستيقظ إلّا على طرق الباب. تفضّل. أرجو ألّا أكون قد أزعجتك. لا، بالعكس فقد سرّني حضورك. نظر يوسف إلى ساعته، الخامسة بعد الظهر. لقد نمت طويلًا. شكرًا، لأنّك أيقظتني. لا بدّ أنّك كنت متعبًا بعد هذا السفر الطويل. كان العجوز قد أحضر معهُ إبريق شاي مع كأسين صغيرين، لقد حضّرت بعض الشاي، أرجو أن يعجبك. شكرًا لك يا عمّ. صبّ العجوز الشاي في الكأسين، وتناول كلّ منهما كأسًا.

شرب يوسف كأسه، ووضعهُ في الصينيّة، وملأهُ من جديد. أتعلم، لقد نسينا أن نشتري نسخة من عقد إيجار لنملأها. يصمت يوسف.

اسمع يا بني. اذهب إلى المكتبة القريبة، واشتر واحدا لنكتبه الليلة، وتكون بذلك قد استأجرت الغرفة رسميًا. أو ربّما أذهب أنا. لا عليك يا عمّ، سأذهب بنفسي. حتى هذا العجوز الطيّب يطلب من يوسف بطاقته الشخصيّة. شكر يوسف الآلهة أنهم لا يطلبون بطاقة شخصيّة عند شراء الخبز، أو مجرّد عبور الشارع. في عقد الإيجار بند يطلب فيه الرقم المتسلسل للبطاقة الشخصيّة. لا يمكن ليوسف مثلًا أن يكتب أيّ رقم، خصوصًا أنّ الأرقام قد تصل لمرتبة العشرة ملايين. عليه أن يبرز بطاقته الشخصيّة، لأنّ المؤجّر عمومًا هو من سيملأ الاستمارة، والمستأجر عليه التوقيع فقط.

خرج يوسف من المنزل، وقد وعد الرجل بالعودة سريعًا. لم يعد هناك من حاجة للمرور بعامل المقهى وسؤاله. إن كان هذا العجوز الطيّب، قد طلب إبرام عقد إيجار، فالجميع سيحذون حذوه، وبالتالي، تصبح محاولات يوسف في إيجاد غرفة للإيجار هراء بحتًا. هذا يكفي، ولن يحاول من جديد. ذهب يوسف إلى المكتبة، واشترى خريطة للمدينة، وعاد إلى الحديقة. كان الليل يطبقُ بهدوء فوق وجه المدينة، والشوارع بدأت تنارُ أضواؤها الصفراء. جلس يوسف على مقعد قريب من البوّابة الرئيسة، وفتح الخريطة. بحث عن

أكبر حديقة عامّة في المدينة، فوجدها تقعُ في الطرف الشمالي للمدينة، غير بعيدة كثيرًا عن منطقة الأغنياء. طوى يوسف الخريطة، ووضعها في جيبه، وذهب ليستقلّ الحافلة المتّجهة إلى مركز المدينة. تذكّر أن عليه أن يمرّ بالسوق في منتصف الطريق. ركب الحافلة التي كانت شبه خالية، لكنّهُ لاحظ أن الحياة في هذه الساعة بدأت تعود إلى المدينة. كانت حركة السيّارات قد زادت كثافة، والمشاة بدأوا يزدادون كلما اقتربت الحافلة من مركز المدينة. غادر يوسف الحافلة في نقطة معيّنة، وانعطف يسارًا إلى السوق الكبير، ذلك السوق الذي قد زاره عدّة مرّات لدى زياراته المتقطّعة للمدينة. بدا ينظرُ في واجهات المتاجر، حتى دخل متجرًا لبيع الألبسة المستعملة. مساء الخير يا سيّدي، كيف نستطيعُ مساعدتك؟ أودّ شراء طقمًا داخليًا من الصوف. أيّ لون تفضّل؟ اللون غير مهمّ بالنسبة لي، لكنّ الأهمّ هو أن يكون دافئًا. غاب البائع، وعاد بكنزة وبنطلون صوفيّين داخليّين. يمكنك أن تجرّبهما يا سيّدي. حسنًا، شكرًا لك، وذهب يوسف ليجرّبهما في غرفة القياس. كانا مناسبين لقياسه، فخلعهما وعاد إلى البائع. اتّفقا على السعر الذي وجده يوسف رخيصًا مقارنة بجودة القطعتين، فدفع النقود وخرج. ثم مرّ بمتجر لبيع المعجّنات، واشترى بعض فطائر الجبن وزجاجة حليب.

تابع يوسف طريقه نحو الحديقة العامّة الكبيرة في

مركز المدينة، حتى وصلها. كانت الشوارع قد بدأت تمتلئ بالمارّة في هذه الساعة من المساء. المدينة تعودُ للحياة عشيّة العودة إلى العمل. لا بدّ أنّ سكّان المدينة عادوا من إجازاتهم اليوم، ليبدأوا في الغد يومَ شقاء جديد.

دخل يوسف الحديقة الكبيرة. هذه ليست حديقة بل مدينة صغيرة. عند دخوله، لم يميّز يوسف نهاية للحديقة، أو يرى السور في الجهة الأخرى. مساحات عشبيّة تمتدّ بعيدًا، تتخللها مقاعد وطاولات، وتجمعات صغيرة لألعاب الأطفال، ثم مقاعد طوليّة على ضفّة النهر الذي يحاذي المدينة شمالا. مشى يوسف في عمق الحديقة، حتى توقف أمام لافتة كتب عليها التعليمات الواجب اتباعها من قبَل الزوّار. عدم رمي الأوساخ، وعدم السباحة في النهر، ثم موعد إغلاق الحديقة. لن تغلق الحديقة أبوابها قبل الحادية عشرة ليلًا، أي بعد ما يقارب الخمس ساعات. على يوسف أن يبقى عاريًا أمام نظرات الفضوليّين لخمس ساعات. هذا وقت طويل جدًا لمن ينشد الوحدة. تابع يوسف السير في عمق الحديقة، فبدأ الروّاد في هذا المكان بالتناقص تدريجيًا حتى أصبحوا نادرين في العمق التامّ للحديقة. جلس يوسف على مقعد طوليّ قرب ضفّة النهر. هناك جسر غير بعيد يبدو أنّهُ ينتهي بمخرج، لكنّ هذا المخرج لا بدّ أنّهُ يفضي ليس خارج الحديقة فقط، بل خارج المدينة أيضًا. فتح يوسف الخريطة ليتأكّد. نعم هذا صحيح،

فالمخرج عبر النهر يقود إلى الطريق العام في نهايتهِ.

مرّ رجل وامرأة بيوسف، وجلسا على المقعد القريب. كان يوسف، من مكانه، يستطيع سماع ما يشبه الهمس في حوارهما شبه الصامت. العاشقان لم ينتبها لوجود يوسف، واعتقدا أنّ المكان خالٍ تمامًا، فجلسا غير عابئين بشيء. نظر يوسف إليهما مرّتين اثنتين، ثم عاد ينظرُ إلى النهر أمامه. هذا النهر هو النهر عينهُ، الذي يمرّ في البلدة القديمة. وبحسب ما يذكر من الجغرافيا في المدرسة أن النهر ينبعُ من الجبل خلف البلدة القديمة، فيمرّ بها جانبيًا، ثم يتابع طريقهُ إلى المدينة، فالبحر نهاية في الغرب.

هذه المياه قد مرت في طريقها بالبلدة القديمة، ولا شك أنها لامست بعض أغصان الذرة، قرب مقبرة البلدة. لا شكّ أنّها تعرف أخبار البلدة بعد مرورها من هناك. تقدّم يوسفَ نحو المياه، فأحسّ العاشقان بوجوده، وعندما اقترب من الضفة كانا قد غادرا المكان.

أخبريني أيّتها المياه الأزليّة، كيف تركت البلدة القديمة؟ هل بكت البلدة يوسف الفقير، أم أنّها كعادتها، رمتهُ في النسيان مع شروق شمس اليوم التالي؟ كيف هي الطرقات والأشجار ومنازل الفقراء؟ كيف هو الزرع والطيرُ وندى الصباح؟ أخبريني أيّتها المياه، كيف هي رائحةُ الخبز في صباحات البيوت الصامتات عند الفجر؟ كيف السماء والشمس والتراب؟ أيّتها المياه الأزليّة، أنا قد فقدتُ روحًا حين فقدتُ البلدة القديمة.

انحدرت دمعة على خدّ يوسف، وامتزجت بالمياه التي استقبلتها، وضمّتها إليها. مدّ يوسف يديه ولامس المياه. كانت المياه باردة جدًا، فأحسّ بوخزة في جسده الضعيف. ملأ راحتيه، وغسل وجهه ورقبته، ثم شرب من مياه النهر، فشعر بنفسه يعود إلى البلدة القديمة.

استحسن يوسف اختياره للمكان. من موقعه هنا، يمكنه بسهولة عبور الجسر في أيّ لحظة، والقفز فوق السور غير المرتفع كثيرًا. غيّر مقعده حتى صار في مواجهة الجسر تمامًا، حيث كان الغطاء الشجريّ كثيفا أكثر. بدأ يوسف يتناول فطائر الجبن، فيما احتفظ بالحليب لأيّ ألم طارئ في معدتهِ.

اقتربت الساعة من الحادية عشرة ليلا. رأى يوسف عندها ضوءًا قادمًا من بعيد، فذهب، واختبأ عند ضفّة النهر تحت الجسر تمامًا. كان الجسر يرتفع فوق النهر، ويستطيل من الجانبين بمسافة تصل إلى ثلاثة أمتار، ممّا يتيح المرور من تحته. التصق يوسف بإحدى دعامات الجسر، حين بدأ الضوء الأصفر يقترب. رأى يوسفًا ما يشبه السيّارة الصغيرة، تسير ببطء. كان يقودها شابّ في مقتبل العمر. السائق ينظر إلى الجهتين، ويتوقّف تباعًا. التصق يوسف بالدعامة حتى مرّت السيّارة. لا شكّ أنّ السائق كان يذكّر الروّاد أنّ موعد مغادرة الحديقة قد حان. اختفى الضوء تمامًا، فعاد يوسف إلى مقعده، وقد بدأ الجوّ يبرد أكثر قرب ضفّة النهر، ويوسف ينتظر حتى ينتصف الليل، ويتأكّد

أنّ الحديقة قد أغلقت أبوابها. لا يمكن التحكّم بمكان كبير كهذا، فيه الكثير من المَداخل. يحتاج الأمر لجيش من العمّال حتى يفتّشوا الحديقة كلها. هذا ما يحدث أحيانًا حين نتأكّد من أنّنا غير قادرين على إتمام عمل معيّن، فنقوم بجزء صغير منه، وحتى إن كان هذا الجزء لن يغيّر في النتيجة النهائيّة شيئًا. نقوم بذلك فقط لنتجنّب الإحساس بالذنب.

الثانية عشرة ليلًا. ذهب يوسف أسفل الجسر، ولبس طقم الصوف الذي اشتراه تحت ملابسه، فأحسّ ببعض الدفء، ثم عاد، وحاول النوم جالسًا على المقعد الخشبيّ. لم يستطع النوم. استلقى على المقعد وأعاد المحاولة من جديد، لكنّ النوم لم يأتِ. المقعد غير المخصّص للّنوم، ثم هذا البرد قرب ضفة النهر، جعلا النوم مهمّة صعبة. إن النوم هنا، كان سيكون ممكنًا لو أن يوسف كان مرهقا تماما، ولم ينم لفترة طويلة. لكنه بعد أن نام اليوم في بيت العجوز قرابة الأربع ساعات، فإنّ النوم جالسًا على مقعد خشبيّ بارد في حديقة بدا شبه مستحيل.

حرّر يوسف يديه من جيوب المعطف، وبدأ يراقب المياه، التي انعكست عليها بعض الأضواء الصفراء القادمة من الطريق العام. أصوات السيّارات كانت تأتي بعيدة من الطريق العامّ، وكأنّها قادمة من عالم آخر. بقي يوسف هكذا حتى اقتربت الساعة من الرابعة صباحًا، حين غفا وهو جالس. لم يصحُ إلا حين بدأت الطير

يومها الجديد مغرّدة، تبحث عن طعام الصباح لها ولصغارها في الأعشاش المتناثرة في أعالي الشجر. طير من كلّ شكل ولون تنتقل ذهابًا وإيابًا في حركة محمومة، وكأنّها في عيدٍ أو مهرجان. نظر يوسف إلى هذا الاحتفال الطبيعيّ، وفكّر أن الطير تمتلك الحرّيّة، وتمتلك حياتها.

إنها السادسة صباحًا. سينتظرُ حتى السابعة، ليخرج ماشيًا إلى دائرة المحفوظات في بلديّة المدينة. ستفتح الدائرة أبوابها عند الثامنة. شرب الحليب، فأحسّ ببعض النشاط يعود إليه بعد هذه الليلة في العراء. لم تشرق الشمس بعدُ بكامل قرصها البرتقاليّ، بل كان ضوؤها هو الدالّ الوحيد على وجودها. تأتي الطير قرب الماء، وتشرب هي وصغارها. الصغار الذين ما زالوا بحاجة للأمّهات، كانوا يلتصقون بهنّ في صفٍّ طولي لعبور النهر إلى الضفة الأخرى. الحياة هنا ما زالت قريبة من الطبيعيّة، لم تلوّث جنباتها الآلة والإسمنت. الأشجارُ والطيرُ وهذا الهواء النقيّ، هذا المكان الآن يشبه الجنة الموعودة.

بدأ بعض الروّاد العجائز يصلون الحديقة، ويجلسون على مقاعد قرب الضفّة. بعض العجائز اصطحب كلبًا، والبعض جاء وحيدًا. كانت الساعة تقترب من السابعة، حين غادر يوسف الحديقة. دخل منطقة الأغنياء من الجهة الشماليّة. المكان هنا هادئ تمامًا، والسكّان، لا شكّ، ما زالوا نائمين. مرّ أمام القصر الذي بدا ساكنًا هو

الآخر، لكنّ النافذة في غرفة النوم الملكيّة كانت مغلقة هذا الصباح. تابع طريقه حتى وصل البناء العملاق.

كان العشرات من الناس قد شكّلوا صفًا أمام الباب. تقدّم يوسف ووقف في الصفّ. انتظر المراجعون قليلًا حتى فتِحَت البوّابة الرئيسة، فدخلوا، وتفرّقوا. رؤية البناء من الداخل أشدّ بشاعة من رؤياه من الخارج بدرجات. الأرض المحيطة بالبناء، والتي اعتقد يوسف أنّها ستكون ما يشبه الحديقة العامّة، كانت أرضًا جرداء. المكان يغصب بعض الأعشاب الطفيليّة التي نمت وتكاثرت. وتناثرت في المكان بعض الأوراق، والكثير من قشور الطعام المعلب. الجدران الخارجيّة بلونها الرماديّ القاتم كانت تبدو عدائيّة. تتخلل الجدران بانتظام نوافذ بقضبان مطليّة بالأسود كتلك التي نراها في نوافذ السجون.

دخل يوسف إلى البناء العملاق. مشى في الطابق الأرضيّ، فوجد ممرًا طويلًا جدًا كان مطليًا باللون الأبيض في زمن ما، لكنّهُ الآن أقرب إلى السواد منهُ إلى أيّ شيء آخر.

اصطفّت على جانبي الممرّ عشرات الأبواب المغلقة والمفتوحة ونصف المفتوحة. مئات الأشخاص كانوا يدخلون، ويخرجون من وإلى الغرفٍ، حتى أصيب يوسف بالدوار. تقدّم يوسف، وسأل أحدَ الموظفين عن دائرة المحفوظات في بلديّة المدينة، فقيل لهُ، إنها في الطابق السابع. وقف ينتظر المصعد مع بعض المراجعين

حتى وصل، فصعدوا، وبدأت أزرار الطوابق تُضاء. أحدهم كان قد ضغط على الزرّ رقم سبعة، فلم يعد من حاجة ليوسف أن يتحرّك. خرج يوسف من المصعد في الطابق السابع. وقف يقرأ اللوحات المثبّتة جانب الأبواب. من فضلك يا سيّد. نعم، ماذا تريد أيّها المواطن؟ أين أجد دائرة المحفوظات في بلديّة المدينة؟ نظر الرجل مستغربًا سؤال يوسف، ثم قال له: إنّك فيها الآن، كلّ هذا الطابق هو دائرة المحفوظات في بلديّة المدينة. شكرًا لكَ. نظر يوسف حوله، ثم دخل في أوّل غرفة واجهتهُ، فوجد ثلاثة رجال.

الرجال كانوا يجلسون خلف مكاتب حديديّة، وقد اصطفّت خلفهم آلاف المصنّفات والأوراق. بعض المصنّفات قد برزت خارج النسق لضيق المكان، وسقطت منها أوراق كثيرة، وبعضها قد سقط بكل ما فيه على الأرض. نظر أحد الرجال إلى يوسف، وقد بدا عليه الضيق والنعاس الشديد. أين هو ملفّك، الذي تودّ تسجيله أيّها المواطن؟ عذرًا يا سيّدي، فليس لديّ ملفّ بعد، إنّما جئت للحصول على بدل ضائع لبطاقتي الشخصيّة. الغرفة رقم عشرين. وعاد الرجل يقرأ في جريدتهِ. باقي الرجال، لم يرفعوا رؤوسهم أبدًا لرؤية الزائر، بل ظلوا يقرأون في أشياء وضعت على مكاتبهم الحديديّة.

خرج يوسف من الغرفة، وهو يحس أنه في مكان لا ينتمي لكوكبنا هذا. في مكان يشبهُ تلك الأحلام

المزعجة التي تأتينا وكأنّها قادمة من حيوات سابقة عشناها.

عاد إلى الممرّ الطويل، وبدأ يقرأ الأرقام على أبواب الغرف، حتى وصل الغرفة رقم عشرين، فدخلها. كانت الغرفة تشبه سابقتها، لكنّ الأوراق هنا كانت جبلًا حقيقيًا غطّى كلّ مساحة خالية في الغرفة. الرجلان الموجودان خلف مكتبيهما لم ينتبها لدخّول يوسف بل بقيا مشغولينَ. أحدهما يتحدّث بالهاتف، ويبدوَ أن الحديث كان جديًا، لأن يوسف سمعه يصرخ في المتحدث على الجهة الأخرى من الهاتف. هذا غير معقول، ولن أسكت. أمّا الآخر فقد كان يأكل شيئًا. صباح الخير يا سيّدي. وجّه يوسف حديثه للرجل الذي كان يمضغ شيئًا في فمه. بلع الرجل لقمتهُ على عجل، وقال وقد بان عليه الضيق من هذا الإزعاج الصباحيّ: نعم، ماذا تريد؟ اللهجة القاسية جعلت يوسف يشعر بالضيق هو الآخر، فبقي يحدّق في الرجل للحظات. أعاد الرجل العبارة وقد ضاق صبرًا، حتى بات كلامه يشبهُ الصراخ. ماذا تريد يا هذا؟ نعم، يا سيّدي لقد فقدت بطاقتي الشخصيّة. أقصد أني أضعت بطاقتي الشخصيّة. قاطعه الرجل مباشرة قائلًا، نعم هذا مفهوم. أين ضبط الحادثة المستخرج من دائرة الأمن؟ كانت كلمة دائرة الأمن كفيلة أن تجعل يوسف يتراجع هاربًا من المكانَ. عفوًا يا سيّدي، فأنتم أوّل دائرة حكوميّة أراجعها، بما أن الجميع كان في عطلة رسميّة لثلاثة

أيّام. هذا مفهوم، لكن حتى تحصل على بدل ضائع عن بطاقتك الشخصية، عليك أن تنظم محضرا في دائرة الأمن، وعندما يتأكد عناصر الأمن من هويّتك ببعض التحرّيات، سيرسلون إلينا كتابًا باستصدار بطاقة شخصيّة جديدة. عنّدها ستستلم بطاقتك من هنا. عليك الذهاب إلى دائرة الأمن. إنها في الطابق السادس، أي طابق واحد للأسفل. عاد الموظّف يتابع وجبتهُ الصباحيّة. شكرًا لك يا سيّدي. بقي الموظّف صامتًا.

خرج يوسف، وهو يقاوم الرغبة في الركض خارج المبنى العملاق. كان يوسف مشوّشًا تمامًا، ولا يتمنّى في هذه اللحظة إلا مغادرة هذا البناء العملاق. مشى في الممرّ الطويل، وبدلا من انتظار المصعد الذي يمكن أن يأخذه مباشرة إلى الطابق الأرضي، ومنهُ إلى خارج المبنى، نزل يوسف الدرج، فوجد نفسهُ في الطابق السادس، دائرة الأمن.

يوسف الآن في دائرة الأمن، آخر مكان يتمنّى التواجد فيه. وقف في زاوية الممرّ، ولم يكن يمتلك أيّة فكرة فيما يجب عليه فعله. ما زاد الأمر سوءًا أنّهُ مشى قليلًا حتى يبدو طبيعيًا ككلّ المارّة في هذا الطابق، ففقد مكان الدرجّ الذي قد يخلصه من الورطة. كان يوسف ينظر في الجدران عله يجد مكان المصعد، لكنّهُ لم يجدهُ. المكان يغصّ بحرّاس الأمن الذين وقفوا في ملابسهم الرسميّة في غير مكان، أو ساروا من وإلى الأبواب. كان يوسف يتجنّب النظر في أعين الحرّاس.

قد يكون هؤلاء الحرّاس قد درّبوا ليقرأوا ما يدور في فكر الشخص المقابل، أفكاره وانتماءه وحتى أحلامه وأمانيه. تخيّل مثلًا أن يقترب أحد رجال الأمن المدرّبين تدريبًا عاليًا، وينظر في عينيه مباشرة. أنت أيها المواطن قتلت رجلا قبل بضعة أيام، وقمت بتزوير في جثة ميّت. هذا، سيكون الكارثة الأخيرة ليوسف، وهو يفضّل الموت قبل حدوثها.

أتبحث عن شيء هنا أيّها المواطن؟ انتفض يوسف وقد سمع صوتًا غليظا خلفهُ. التفت يوسف جهة الصوت، فوجد نفسه وجهًا لوجه مع حارسٍ للأمن. الحارس العملاق ينظر في عيني يوسف مباشرة. يوسف الذي أرعبتهُ نظرة الرجل في عينيه مباشرة، تجمّد، ولم ينبس ببنت شفة. الحارس ينظرُ في عيني يوسف، ويوسف لا يمتلك أن يسحب نظرته للجهة الأخرى. قد يعتبرها الحارس إهانة، وهذا أسوأ.

بات متأكّدًا أنّ الحارس قد قرأ أفكاره، وعرف أنّهُ مجرم هارب من العدالة. استجمع يوسف قواه، وقال، كنتُ أبحث عن مديريّة... وتوقّف عند هذه الكلمة. عن أيّة مديريّة أيّها المواطن؟ حبس يوسف أنفاسهُ، واستجمع قواه مرّة أخرى، وقال، عن مديريّة المحفوظات في بلديّة المدينة. لم تسعف الكلمات يوسف لأبعد من هذا. قال الكلمات، وأحسّ أنّها غريبة عنهُ، وأنّ من قالها كان منفصلًا عنهُ، ولا علاقة لهُ به. من نطق الكلمات شخص يحمل الصوت نفسه والجسد

نفسه، لكنّهُ ليس يوسف. في الطابق السابع، أيّ طابقًا واحدًا للأعلى. يمكنك أخذ المصعد، أو صعود الدرج، وأشار حارس الأمن العملاق إلى الخلف، حيث كان الدرج. شكرًا يا سيّدي، هذا لطف منك.

التفتَ يوسف، وذهب باتّجاه الدرج، وهو غير مصدّق أنّهُ قد نجا، وأن حارس الأمن لم يقرأ أفكاره، أو أقلهُ لم يلاحظ اضطرابه وخوفه. نزل الدرج سريعا حتى وصل الطابق الأرضي، ثم غادر البناء.

كان يمشي سريعًا، مخلّفًا وراءه المبنى العملاق، غير مصدّق أنّه خرج من ذاك الجحيم. لم ينظر خلفه مرّة واحدة، حتى وصل إلى المقعد نفسه في الحديقة العامّة. جلس وقد غطّى العرق وجهه وصدره، وكان طقم الصوف الذي نسي أنّ يخلعهُ قد زاد في إحساسه بالحرارة. مرّت ساعة وجسده كلهُ ينتفض كسمكة أخرِجت من المياه. لم يبدِ أيّ حركة تدلّ على الحياة، ولم ينتبه لأيّ شيء حوله. المبنى العملاق كان ماثلًا أمامهُ، يتموّجُ كأفعى استوائيّة فوق صفيح المياه. كيف يمكن لشيء كهذا أنّ يكون موجودًا، ولا تحرقهُ السماء بصاعقة؟ كيف يمكن للسماء ألا ترمي المبنى العملاق بكبريت، أو أن تغمرهُ بطوفان من مياه في ساعة غضبها!؟ لو يعطى يوسف السلطة على الأرض لساعات، لأمر بتدمير المبنى العملاق دون أدنى إحساس بالذنب.

زاد عدد روّاد الحديقة العامّة. لقد تجاوزت الساعة العاشرة والنصف صباحًا، حتى بدأ المرور على جانبي

الطريق خلف يوسف يبدو شبه منتظم. عجائز وعشّاق، وطلّاب مدارس، لا شك أنّهم هربوا من مدارسهم في مثل هذه الساعة، ونساء ورجال بملابس رياضيّة. لقد أصبحت الحديقة العامّة الكبرى في طرف المدينة خليّة نحل، وقد فقدت هدوءها الذي كانت عليه مساء أمس. استعدّ يوسف للخروج. في تلك اللحظة، رأى امرأة بملابس رياضيّة، تعبر أمامهُ جهة الباب الرئيس. كانت قد ربطت شعرها الأسود الطويل الذي وصل قبل خصرها بقليل. المرأة نصف العارية. لا شك أنها هي. مشى يوسف خلفها، لكنها كانت تجري، فتجاوزتهُ بمسافة كانت تزداد باطّراد. لا يمكن ليوسف أن يبدأ بالجري الآن، فبملابسه وهيئته سيعتقد من يراه يجري أنهُ إمّا هارب من شيء معيّن، أو أنهُ فقد عقله. بدأ يمشي بسرعة، لكن هذا لم يغيّر شيئًا. فعندما وصل إلى منتصف الحديقة، كانت المرأة قد اختفت تمامًا. ربّما تكون هي المرأة نصف العارية، وربّما لا تكون. ليست كلّ امرأة بشعر أسود طويل وقامة رياضيّة في هذه المدينة الكبيرة هي المرأة نصف العارية. ربّما تكون قد استراحت على أحد المقاعد، أو غادرت الحديقة تمامًا. يمكنها مثلًا أن تدخل أحد المتاجر، وتشتري شرابًا باردًا بعد هذا الجري، أو أن تذهب إلى نادٍ رياضي، وتخضع لجلسة تدليك. كلّ شيء وارد، في الحياة يمكن لأيّ شخص أن يفعل أيّ شيء يريده.. أن يعود إلى منزله مثلًا، أو أن يسافر في إجازة، أو حتى أن يقتل رجلًا،

ويهرب. تذكّر يوسف الرجل الذي قتله في البلدة القديمة. سيكون أهلوه قد حزنوا عليه كثيرًا، إن كان لهُ أهل، أو ربّما قالوا: لقد أحسن صنعًا من قتله، فقد كان عبئًا كبيرًا علينا بمشاكله التي لا تنتهي. يقولون هذا في الوقت الذي يتباكى الرجال، وتندُب النساء في مجلس عزاء فقيدهم الغالي. الإنسان شيء معقّد جدًا. والغوص في أوحال النفس البشريّة لم ينجح بعد بشكل كامل، ويبدو أنّهُ لن يكتمل في المستقبل القريب.

وصل يوسف إلى باب الحديقة، وقد فقد الأمل برؤيّة المرأة نصف العارية ترتاح على مقعد، وهي تشرب ماء مثلجًا من زجاجتها البلاستيكية. غادر الحديقة، وقد قرر أن يسلك طريقا آخر للعودة إلى حيّ الفقراء. كان يمكنهُ أن يفعل أيّ شيء حتى لا يمرّ بالمبنى العملاق مجدّدًا. وجد موقفا للحافلات، فاستقلّ واحدة وهو لا يدري إلى أين ستأخذه. هذا ليس مهمًا، فليس لديه ما يفعلهُ، وقد أصبح مرور الوقت عذابًا حقيقيًا. وجد مقعدًا فارغًا في وسط الحافلة، فجلس وبدأ ينظر من النافذة. كانت الأبنية الإسمنتيّة تتداخل في عينيه مع الأشجار والأشخاص، يُغمضُ عينيهِ، ويفتحهما، فتُعادُ المشاهد بألوان وأشكال مختلفة.

استيقظ يا هذا. فتح يوسف عينيه، فرأى رجلًا أمامهُ. لم يستوعب حقيقة ما حدث. لقد وصلنا نهاية خطّ سير الحافلة، وعليك النزول الآن. هزّ يوسف برأسه، وفهم أنّهُ قد نام، وهذا سائق الحافلة يوقظه للنزول. نعم، شكرًا

لك، فهنا المكان الذي أريد النزول فيه. وقف يوسف، وغادر الحافلة، وما زال النوم يضرب فوق عينيهِ حجابًا كثيفًا. الشمس تتوسّط كبد السماء، والشارع خالٍ تمامًا. لا يدري أين أخذته الحافلة، لكنّ لا بدّ أنّهُ نام لفترة ليست بالقصيرة. إنّها الواحدة ظهرًا. لقد نام في الحافلة قرابة الساعتين، وليس لديه أيّة فكرة عن مكان تواجده الآن، في أيّ جحيم هو الآن. مشى قليلًا في الشارع الخالي ليرى معلمًا يستدلّ منهُ عن مكانهِ على هذه الأرض. المكان هنا شبهُ صحراويّ، ولا أبنية في المستوى القريب للنظر. بدأ يلتفت قليلًا للخلف، حتى لا يلفت النظر في كونه تائهًا. وجد بناء في الجهة الخلفيّة للحافلة التي نزل منها، البناء الوحيد في هذه المساحة الجرداء. لا خيار أمامهُ غير السير. الحياة هنا معدومة، وكأن أحدهم قذفه إلى كوكب آخر. عاد يوسف إلى الحافلة التي نزل منها، بعد أن فقد الأمل بمرور أيّ كائن بشريّ هنا. صعد الحافلة، فرأى السائق يشرب الشاي على أحد المقاعد. عذرًا يا سيّدي، يبدو أني ركبتُ عن طريق الخطأ في هذه الحافلة. لقد كنتُ أريد الذهاب إلى سوق السمك. بدأ السائق يضحك، وكأنّ أحدهم قد روى طرفة مسلّية أمامه. سوق السمك يا رجل! أنت خارج المدينة على مسافة تقارب المائة وخمسين كيلومترًا. صمت يوسف، وقد أحسّ بسخرية السائق. هذا مجمّع عمّالي خارج المدينة. أترى ذاك البناء، وقد أشار السائق إلى البناء خلف الحافلة. هناك بناء آخر

خلفه، وهما مجمّعان اختباريّان لتجارب الجيش. كان لكلمة الجيش وقعٌ يشابهُ كلمة أمن في أذن يوسف. أيّ جحيم قادني إلى هنا! مختبرات للجيش يا ربّ السماء! مكان غاية في السرّيّة، لذلك أقاموه هنا خارج المدينة فيما يشبه الصحراء. على يوسف أن يتصرّف بحذر الآن. عذرًا يا سيّدي، لم أنتبه لرّقم الحافلة، فارتكبت ذلك الخطأ غير المقصود. لا عليك، كلنا نخطئ. وكيف السبيل للعودة إلى المدينة. سأعود إلى المدينة في السادسة مساءً، أي بعد خمس ساعات. يوسفلا يصدّق ما يسمع. عليه الانتظار لخمس ساعات هنا! لا، هذا مستحيل. سيغادر المكان، ويعود إلى المدينة، حتى وإن كان سيرًا على قدميه. أخبرني يا سيّدي من فضلك، أما من طريقة أخرى للعودة قبل السادسة. الطريقة الوحيدة هي الذهاب مشيًا إلى الطريق العام، ومحاولة إيقاف سيّارة عابرة تأخذك معها إلى المدينة. وأين الطريق العام؟ من هناك، وأشار السائق إلى الطريق الذي سلكه يوسف بداية. عليك السير لمدة تقارب النصف ساعة، أو أقلّ قليلًا. حسنًا، شكرًا لك. حظا موفّقًا.

سار يوسف لمدّة خمس دقائق، ثم رأى الطريق العام إلى يساره. لكنْ لا طريق معبّدة تأخذه إليها، بل مساحات جرداء فيها غطاء شجريّ متوسّط الحجم في منتصفها. إن تابع يوسف السير على الطريق المعبّدة، فستلتقي الطريقان كما قال السائق بعد نصف ساعة. أمّا إن التفّ يسارًا فسيصل بعد عشر دقائق في أبعد تقدير.

انعطف يوسف يسارًا، وسار في المنطقة الجرداء حتى وصل الغطاء الشجريّ، ثم اجتازه، فوصل الطريق العام بعدها بقليل. كانت السيّارات تمرّ مسرعة، ولا تنتبه حتى ليد يوسف الممتدّة في محاولته اليائسة لإيقاف أيّ سيّارة. مرّت أكثر من عشر دقائق، ويوسف واقف يشير إلى السيّارات العابرة، حتى توقفت شاحنة صغيرة. من فضلك يا سيّدي! هل أنت ذاهب إلى المدينة؟ نعم. هل تأخذني معك، وسأدفع لك ما تطلب. تعال يا رجل، لا أريد منك مالًا، فأنا ذاهب إلى المدينة على أيّ حال.

لم يرَ يوسف السيّارة السوداء التي انطلقت تبحث عنهُ عندما كان يجتاز الغطاء الشجريّ. فالسائق الذي لم يهتمّ لأمر يوسف بداية، بدأ يشكّ في أمره بعد أن غادر بقليل. ماذا يفعل هذا المتطفل في مكان عالي الخصوصيّة والسرّيّة هنا. ماذا لو أنّهُ التقط بكاميرته المتطوّرة صورًا ليرسلها فيما بعد خارج الحدود. ماذا لو كان جاسوسًا. انتفض السائق، وبدأ يجري جهة بوّابة المبنى الاختباري للجيش، وأخبر الحرّاس بقصّة هذا الغريب المتطفل الذي أخطأ في القدوم إلى هنا.

لم ينتظر المسؤولون في المبنى كثيرا حتى أرسلوا سيارة سوداء تقتفي أثره، لكنّها لم تجده، لأنّهُ كان يجتاز الغطاء الشجريّ. بحثت السيّارة على طول الطريق المؤدّي إلى الطريق العام ذهابًا وإيابا. عندما لم تجد السيّارة السوداء بطاقمها الرباعيّ المسلّح أيّ أثر

لهذا الجاسوس الخطير، ساد الاعتقاد أنّ سيّارة كانت تنتظرهُ ربّما في منتصف الطريق، لتأخذهُ بعد أن أدّى مهمّته بنجاح. فريق قال إنها لم تكن سيّارة، بل مروحيّة أرسلتها إحدى الدول المجاورة، لتأخذ جاسوسها بعد أن التقط صورًا حسّاسة للموقع. ربّما صوّر أشياءً أكثر حساسيّة في عمق الموقع بأجهزة متطوّرة. ساد الهرج والمرج في البناء، ثم استدعوا السائق للتحقيق معه، ولأخذ مواصفات ذاك الجاسوس. السائق لم يغطِ مواصفات حاسمة ليوسف. ذكر ألوان ملابسهِ، لكنّهُ أخطأ في لون المعطف الرمادي القاتم، فجعلهُ أخضر. كما جعل يوسف يبدو أكثر شبابًا ورشاقة. ثم تمّ تعميم مواصفات الجاسوس المفترض على دوائر الأمن في المدينة، وفي مراكز الحدود. كلّ هذا، ويوسفُ في الشاحنة التي ستأخذه إلى المدينة، ولا يدري أيّ جحيم خلف وراءه.

لم يتكلّم يوسف كثيرًا مع السائق. قال لهُ إنّهُ كان في طريقه إلى المدينة صحبة أحدهم، لكنّ الأخير نسي شيئًا في البلدة، فقرّر العودة لإحضاره. يوسف الذي لديه موعد للعمل في المدينة، قرّر أن يتابع الطريق بإيقاف أيّ سيّارة عابرة. تحدّث السائق قليلًا عن صعوبات الحياة التي تواجهُ ربّ أسرة كبيرة، وكيف أنّهُ سيزوّج ابنته البكر، ولا يمتلك مالا كافيًا لتجهيزها.

يوسف كان يستمع، ويعلق أحيانا باقتضاب. أوصله السائق قريبا من سوق السمك في حيّ الفقراء، فهو

سيتابع طريقهُ إلى أحد المعامل في الجهة الشرقيّة. قبل نزوله، حاول يوسف أن يدفع بعض النقود للسائق، فرفض مجدّدا. حظا موفّقًا في موعد العمل الذي ينتظرك. شكرًا لك أيّها الرجل الطيّب، يقول يوسف، ويغادر السيّارة.

١٥

وصل يوسف المدينة عند الرابعة ظهرًا. كان سوق السمك مكتظًا بالمارّة. زبائن يمرّون بين الشوادر، التي نصِبَت خلف طاولات عرض عليها السمك من كلّ شكل ولون. رائحة السوق كانت كثيفة كعادتها. لا بدّ أنّ الباعة هنا يصلون بيوتهم برائحة ثقيلة سكنت ثيابهم، بل ربّما دخلت تحت مسامّ جلودهم. الزوجات المسكينات هنّ أوّل من يتلقّى الرائحة. يا رجل، ادخل استحمّ أوّلا قبل أن تلمسني. يا امرأة لقد قضيت يومي واقفًا أصرخُ في السمك، حتى بعتهُ كلهُ، أفلا أستحقّ شيئًا جميلًا الآن؟ نعم، لكنْ لتستحمّ أوّلا.

مرّ يوسف بالمقهى الشعبيّ، وجلس على كرسيّ في العمق. النادل الذي جاء يسأل يوسف عن طلبه كان شخصًا مختلفًا، لم يره يوسف من قبل. ماذا تطلب يا سيّدي؟ كأسًا من الشاي الثقيل، لكنْ عذرًا للسؤال من فضلك. تفضّل يا سيّدي. أين ذهب الصبي الآخر، أهو في إجازة؟ لا يا سيدي، لقد طرده صاحب العمل. ولماذا طردهُ. قال إنّهُ رآه يأخذ القليل من السكّر، وعندما سألهُ صاحب المَقهى عنّ السبب. قال إنّها المرّة الأولى التي يفعل شيئًا كهذا، وأنهُ لا سكر لديهم في البيت. قال إنّ أخوته الصغار طلبوا منهُ، أن يشربوا الشاي المُحلّى لدى عودته مساءً. طلب الصفح من صاحب المقهى، لكنّ الأخير لم يسامحهُ. وهل حالهم سيّئ لهذه الدرجة؟ نعم يا سيّدي، والداه ماتا قبل سنتين، وهو يعمل ليعيل

أخوته الصغار. وهل هم كثر؟ خمسة أخوة، جميعهم أصغر منهُ. مسكين هذا الشابّ. نعم، مسكين وفقير!

ذهب يوسف إلى المخبز القريب. اشترى رغيف خبز ساخن وفطيرة جبن، وعاد ليأكلهما مع الشاي. كان المقهى قد بدأ يكتظّ بالزبائن. الساعة تقترب من الخامسة. أكل يوسف الرغيف والفطيرة مع الشاي، حتى أحسّ بالامتلاء. بدأ يلاحظ أنّ أحد الأشخاص ينظر إليه بطّريقة غريبة. في البداية، لم يهتمّ يوسف كثيرًا للرجل، لكنّ كلما نظر يوسف نحو الرجل كانت نظرات الرجل موجّهةً إليه تمامًا. لم يحاول الرجل أن يخفي نظراته بالالتفات هنا وهنا، كلّ حين وآخر، بل ركّز نظره على يوسف، ممّا زاد في شعور يوسف بالضيق بداية، ثم بالخطر. يمكن أن يكون الرجل عنصر أمن جاء هنا ليقبض على يوسف. كلّ شيء وارد في الحياة. واحتمال أن يصبح المرء قديسًا يساوي احتمال ضربه بصاعقة وهو عائد إلى منزله، بعد ليلة حمراء. كلّ شيء وارد في الحياة. يمكن أن يكون الرجل ينظرُ جهة يوسف بدون سبب حقيقي، هذا احتمال آخر. ربما شرد وهو يفكر أن جارتهم البضّة الجميلة تغسل الثياب، وقد كشفت عن ساقين رخاميّتين. كلّ شيء وارد. لكنّ يوسف زاد إحساسه بالخطر كثيرًا، استوقف النادل عند مروره، ونقده ثمن المشروب. ثم سأله أن يقوده إلى دورة المياه. وفي الطريق، سأل يوسف النادل إن كان هناك باب خلفيّ للمقهى. استغرب النادل سؤاله. هناك

شخص دخل المقهى، ولا أودّ رؤيته، صديق قديم سيسبّب لي بعض الضيق والإحراج. هزّ النادل رأسهُ، وأخذه إلى باب خلفيّ يستعملهُ العمّال في دخولهم وخروجهم، ففتح له الباب، وغادر يوسف المقهى.

دار يوسف حول المقهى، وسلك طريقًا فرعيًا. كان يحثّ الخطى كلمّا فكّر في ذلك الرجل. نظراتهُ الوقحة وعيناه الثاقبتان لا يمكن إلا أن تكونا لرجل أمن. أيمكن أن يكونوا قد اكتشفوا إحدى الجريمتين. إن كانوا يبحثون عنه، فلا بدّ أنّهم اكتشفوا الجريمة الثانية أقلّهُ. التزوير في جثّة التاجر. لأنّهم لو اكتشفوا أنّ يوسف قتل رجلًا، ثم مات في غرفة الحارس في المقبرة لما بحثوا عنهُ. لأنّنا عادة لا نبحث عن ميّت. وأمّا إن اكتشفوا التزوير في جثّة التاجر، فهنا المصيبة. لكنّ، يمكن ألّا يكون الرجل حارس أمن. يمكن أن يكون رجلًا وجد شبهًا بين يوسف ورجل آخر يشبهه، صديق أو جار، أو حتى ممثّل سينمائي، أو ربّما طابق صورة يوسف بصورة قدّيس في إحدى الأيقونات. نعم، هذا ممكن. لكنّ نظرات الرجل الناريّة كانت تقول الكثير. تابع يوسف طريقهُ، وهو لن يدري أبدًا أنّ ذلك الرجل ذا النظرات النارية، الذي اعتقد أنه أحد رجال الأمن إنما هو سائق الشاحنة التي أخذتهُ من البلدة القديمة إلى المدينة، بعد تلك الليلة البيضاء في المقبّرة. ذلك السائق الثرثار الذي أعطاه ورقة باسمه ورقم هاتفه، لأنه صدّق أن يوسف الفقير صاحب شركة كبيرة. ذاك الذي كان

اسمهُ عامر.

مشى حتى أحسّ بالتعب، وبأنّ قدميه باتت جزءًا منفصلًا عن جسده، له إرادتهُ الخاصّة، لهُ كيانهُ ومزاجهُ وثوراتهُ. كانت القدمان تقولان لقد تعبنا اليوم، ولن نتابع العمل أبدًا. كعمّال استُنزفوا، وباتوا على وشك الإضراب. حاول يوسفُ إقناع قدميه أنّ عليهما متابعة المسير من أجل سلامة الجسد كله، وبالتالي سلامتهما، لكنّ القدمين كانتا قد قالتا كلمتهما وانتهى الأمر، فلم يجد يوسف بدًا من ركوب الحافلة. لقدّ بدأ يحسّ بالضيق والتوتّر كلما ركب حافلة. تكون الحافلات مكتظة في هذه الساعة بعد يوم عمل، وعليه أن يرى الكثير من الوجوه التي ربّما ستنظر باتّجاهه بالنظرات الناريّة نفسها لحارس الأمن. لا خيار لديه في ذلك، فقدماه قرّرتا.

ركب الحافلة. كانت كما توقّع يوسف شبه مكتظّة بالركّاب، فلم يجد يوسف مقعدًا شاغرًا. كان الكثير من الركّابِ وقوفًا. سار يوسف نحو نهاية الحافلة، واستند على عمود جانبيّ. هذه الحافلة ستمرّ في السوق، ثم تحاذي منطقة الأغنياء باتجاه الحديقة الكبيرة. نزل يوسف قبل أن تجتاز الحافلة السوق، ليشتري شيئًا يأكله في الليل. مرّ بمطعم يبيع اللحم المشوي والكفتة، لكنّهُ تجاوزه مسرعًا. لا يريد شيئًا من هذا. دخل متجرا، واشترى فطائر محلاة مع زجاجة حليب. عندما تابع طريقهُ باتجاه الحديقة العامّة، حاولت قدماه مرّة أخرى التمنّع، لكنّهُ أقنعهما بقرب المسافة، ووعدهما بالراحة

حتى الصباح.

الحديقة هذا المساء كانت شبه ممتلئة. آباء وأمّهات مع أطفالهم وعجائز وعشّاق صغار يختارون الزوايا الأقلّ إنارة. اجتاز الحديقة مسرعًا نحو العمق، وهو يأمل أن الروّاد هناك أقلّ. تفاجأ بالعدد الوفير من الزوّار هنا أيضًا، فتابع السير، واجتاز الجسر في طرف الحديقة حيث يوجد بعض المقاعد. ابتعد عن الضوضاء قليلًا، واختار مقعدًا خاليًا، ثم جلس.

المنظر من هنا مختلف تمامًا. كان باستطاعة يوسف أن يرى معظم أجزاء الحديقة بزوّارها من موقعه الجديد، فيما لا يراه هنا إلّا من اقترب من الجسر، أو اجتازه. هذا موقع ممتاز لقضاء ليلتي. لقد تجاوزت الساعة السادسة والنصف مساء. التفت يوسف حوله، ليستكشف المكان أكثر، فوجد على يمينه غطاءً شجريًا كثيفًا. انتبه أنّ الأرض هنا ليست مستوية، بل ترتفع، وتنخفضُ قليلًا حتى السور الذي يفصلها عن غطاء شجريّ آخر، فالطريق العام. غيّر يوسف مقعده إلى مقعد خلفهُ، فبات يرى جزءًا كبيرًا من الحديقة، فيما لا يراه أيّ شخص في الجهة الأخرى من الجسر.

المكان هنا هادئ كصحراء عند الفجر. فيما عدا بعض الأصوات البعيدة القادمة من الطريق العامّ، يكاد يكون الصمت مطلقًا. ذهب يوسف نحو الخلف في وهدة طبيعيّة خضراء، واستلقى. كانت أغصان الأشجار تمرّر بعض الضوء من الشمس المائلة للغروب. الشمس قد

اختفت تماما، وبقي منها بعض أضواء تتكسّر هنا وهناك. لا رغبة لديه في الطعام رغم أنّهُ بدأ يحسّ بالجوع. أغمض عينيه للحظات، ثم فتحهما. لو أن هناك غطاء صوفيًا سميكا بعض الشيء لكان النوم هنا متعة خالصة. متعة لمن نذرت في حياته المُتَع. العُشب النديّ أرسل برودته الشتائيّة في جسد يوسف، فارتجف قليلًا، ثم عاد واستقام في جلسته. المقعد أكثر جفافًا ودفئًا من العشب، لكنّهُ أكثر قساوة.

أين هو فراشه الدافئ في البلدة القديمة، حيث كان ينام في العاشرة صباحًا؟ يلتفّ بالغطاء حول كامل جسده حتى يشعر أنّ الدّفء وصل نقي العظام، فينامُ لساعات قبل أن يصحو أحيانًا مبللًا بعرقهِ. أين تلك الغرفة في المقبرة، حيث دفء السخّان وكأس الشاي وكتابٌ يقرأه؟ نحن لا نشعرُ بقيمة الأشياء حتى نفقدها.

عاد يوسف واستلقى على العشب خلف المقعد. يا عشبُ يا نديّ، كن دفئًا وجفافًا تحت جسد يوسف الشقيّ. كن أمانًا وسلامًا في عالم وحشيّ يركضُ فيه الجميع دون أن يدركوا السبب. كن ملجأ ليوسف، بعد أن أشاحت الحياة بوجهها عنهُ وقذفتهُ خارج دورتها..

عاد يوسف يحسّ بالبرد، وكأنّ نهاية العالم باتت وشيكة، والشمس التي أنارتْ الكوكب لمليارات السنين على وشك الذبول. البرد يخترق كلّ خليّة في جسده مهما فعل. تكوّر على نفسهِ في وضعيّة الجنين، لكنّ البرد والبلل ما زالا ماردين جبّارين. كيف كانت البشريّة

تعيش قبل آلاف السنين في مناطق يكسوها الثلج لنصف العام؟! كيف كانت الجنود تجتاز آلاف الأميال في الشتاء لتقاتل جيوشًا أخرى لسبب لم ندركهُ حتى اللحظة؟! نام يوسف فوق بلل الشتاء كعصفور أجرب أبعده القطيع، وقضى ليلته في العراء.

يوسف يمشي في شوارع البلدة، مقيّدًا يخفره الحرس. كان ممزّق الثياب يدوس بقدميه العاريتين حصى الطريق، حتى بات يتبعَهُ خيط من دم رفيع. تقدّم مدير المدرسة منهُ وقال: أيّها العاق، لقد أعطتك البلدة من مائها وهوائها، فماذا أعطيتها. ثم ساطهُ بما يشبه السوط على ظهره، فانفتح جرح طوليّ، وبدأ الدم الدافئ يقطرُ مبللًا قدميه، ثم التراب. الألم كان قدسيًا، شيئًا يشبهُ النشوة التي تسبقُ الموت. أراد يوسف أن يصرخ، لكنّهُ كتم صرختهُ خجلًا، وقد رأى في الجمع فتيات كنّ معهُ في مدرسة البلدة. فهم يوسف من حركات الجند أنّ عليه متابعة المسير، فسار خلفهم. قدّر يوسف أنّهم يأخذونه جهة الساحة العامّة. كان الإعياء قد ذهب بآخر طاقة في جسده، فبدأ يجرّ نفسهُ جرًا. مشى للحظات، قبل أن يخرج من الجمع الجنرال في زيّه الحربيّ. كان رعبُ يوسف مطلقًا. كان يفضّل العذاب والموت على التقاء نظراته بنظرات الجنرال. رمى يوسف نظراته أرضًا. اقترب الجنرال منهُ، وأمسك بشعره ورفعهُ، ثم قال له: أنت تشبهني، لكنّك كنت تحاول دائمًا أن تلغي عن نفسك هذه الصفة. كنتَ تعتبر

مجرّد التشبّه بي جريمة، أو محرّمًا. أنت في اختلافك عني تشبهني. ثم ساطَهُ كما فعل المدير، لكنّ هذه المرّة على يده اليمنى، فانفتح جرح آخر في الجسد الضعيف، وتدفّق الدم الدافئ يروي تراب البلدة. تابع يوسف السير وهو على وشك السقوط، حتى وصل ساحة البلدة. رأى يوسف أنّ محرقة قد أعدت لهُ. كانوا قد جمعوا خشبًا كثيرًا تحتها، ففكّر يوسف لو أنّهم أعطوا هذا الخشب الذي سيُحرِق جسده للفقراء في ليالي الشتاء، وقتلوه بسكين أو بطلق ناريّ.

سحبهُ الحرس نحو المحرقة. كان ينظرُ في الخشب المُعدّ لحرقه، ويفكر بليَلة «سافونا رولا» الأخيرة مع رفيقيه قبل أن يُحرقوا. بماذا يفكر الإنسان وهو ذاهب إلى النار التي ستعيدهُ ترابًا. مسكين «سافونا رولا»، ذاك الذي وضع حجر الزاوية لُنهضة أمّة. ذاك الذي - إن صدّقنا محاضر اعترافاته وزملائه - أحرق مرّتين. مرّة أحرقهُ البشر بتهمة الهرطقة، ومرّة أحرقته السماء بنارها الأبديّة للتهمة نفسها.

خرجت من الجمع المرأة نصف العارية، وبدأت تقترب منهُ. مشت نحوه حتى بات بإمكانهِ أن يرى النقطة السوداء أسفل التقاء شفتيها بوضوح كامل. كانت صامتةً. تتقدّم وسط الجموع وكأنّ وجهها في تلك اللحظات قد قدّ من حجر. حين باتت المسافة بينهما كافية ليحتضن أحدهما الآخر، طعنتهُ بسكين في خاصرتهِ. تنظرُ في عينيه والسكين في يدها ما زال

يخترق اللحم الدافئ. تنظرُ في عينيه مباشرة وهو ينتظرها أن تقول شيئًا، لكنّها تبقى صامتةً. لم يصرخ يوسف من ألمه خجلًا هذه المرّة أيضًا، بل ينظرُ في النقطة السوداء أسفل التقاء شفتيها. تمرّ لحظّاتٌ ثم تبتسم المرأة نصف العارية نصف ابتسامة، وتسحب السكين من جسد يوسف، وتلتفت نحو الجموع لتغادر. يوسف الغارق في دمه القاني يصرخ بصوت مجلجل. صوت كتلك الأصوات التي قرأنا عنها في لحظات مصيريّة في الكتب المقدّسة. يصرخُ، ويصمتُ الجمعُ عن آخره. أستحلفك بالله لا ترحلي صامتة هكذا. لا بأس إن تقتليني، لكنْ قولي أيّ شيء قبل أن تغادري. أيّ كلمة بحقّ السماء. لكنّ المرأة تتابع طريقهما بين الجمع. لا تقول شيئًا، ولا تلتفت لترى منْ قتَلت.

استيقظ يوسف. لقد بلّلهُ العُشب، وجمّدهُ البرد. نظرَ في قمم الأشجار وهو مستلقٍ على ظهره، فرأى أجزاءً من القمر تحجبها أغصان عارية. هذه ليلة قمراء، ليلة كتلك الليلة الأخيرة في مقبرة البلدة. لقد تجاوز الوقت منتصف الليل بقليل. نام يوسف وقتًا لا بأس به فوق العشب الرطب، وعليه أن يَحصل الآن على بعض الدفء. جلس على المقّعد الذي كان مبللًا هو الآخر، فوقف ينظرُ إلى النهر. لا بدّ أن حارس الحديقة قد مرّ بسيّارته الصغيرة عندما كان يوسف نائمًا والحديقة الآن خالية. عاد وجلس على المقعد، وشرب القليل من الحليب. نهض مرتجفًا، وسار باتجاه الباب القريب من

الجسر. وجد الباب مغلقًا فقفز عن السور غير المرتفع.

سيدور حول الحديقة من الخارج ليصل إلى الطريق الرئيس. الهدوء مطلق هنا، حتى إنّ خطى يوسف فوق أوراق الشجر الساقطة كانت تشكل خرقًا لهذه السكينة. وصل الباب الرئيس الذي كان مغلقًا، وتابع طريقه غربًا، حتى وصل منطقة الأغنياء. الجوّ هنا أشدّ برودة منهُ في الحديقة. ربّما هي الضريبة التي تفرضها الطبيعة هنا. مشى بمحاذاة البوّابات الفاخرة، حيث يكون الضوء قليلا، حتى وصل القصر.

الواحدة صباحًا. نوافذُ القصر معتمة، ولا يوجد أيّ أثر لضوء في الداخل. لا بدّ أنّ المرأة نصف العارية نائمة الآن. ربّما تكون قد رأت حلم يوسف نفسه. لو أنّ يوسف يستطيعُ أن يسألها، لا أريد أن أعرف السبب الذي قتلتني من أجله، لكنْ لماذا بقيتِ صامتة. الصمتُ طريقةٌ أخرى في الكلام، حين تصبحُ الكلمات جوفاء.

اقترب يوسف من الشجرة، وتسلّقها، ثم قفز كما في المرّتين السابقتين. دخل من الباب الصغير ووصل إلى القبو، وكعادتهِ ذهب ليرى الزجاجات الملوّنة. بعض الزجاجات كانت في غير أماكنها مرصوفة على الطاولة القريبة. بقايا كأس هذه المرّة أيضًا. كان على الكأس في موضعين اثنين لون أحمر في الأعلى، لا بدّ أنّ المرأة نصف العارية قد شربت منها، وهذا أحمرُ شفاهها قد صبغَ الكأس. رفع يوسف الكأس، وتجرّع ما تبقّى من مكان أحمر الشفاه نفسه. طعم الشراب كان قويًا حتى

إنّ يوسف بصقهُ. ووضع الكأس في مكانهِ.

صعد الدرج، فكان باب القبو مفتوحًا على مصراعيه هذه المرّة. لا بدّ أنّ المرأة نصف العارية قد نسيتهُ مفتوحًا هكذا، بعد كأس الشراب القويّ ذاك. الصالة الرئيسة حيث الشاشة العملاقة مظلمة تمامًا، وخيط من ضوء ضعيف يأتي من عمق الممرّ أعلى الدرج، من غرفة النوم الملكيّة. صعد يوسف الدرج بهدوء حتى نهايته، حيث تتفرّع ثلاثة ممرّات. عندها انتبه للوحة المعلقة في بداية الممرّ على اليمين. يدّ بأربعة أصابع تخترق ما يشبه الحاجز المعدني، والماء الأزرق يحتل خلفية الصورة. ما هذا الفن الغريب!؟ لكنّ شيئًا فيه يداعب الروح. شيئًا كالأحاسيس في الأحلام نحياها، ولا نستطيع وصفها. نحاولَ أن نرويها، ولا تسعفنا الكلماتتابع طريقهُ في الممرّ الذي يشكل امتدادًا موازيًا للدرج العريض، حتى وصل غرفة النوم الملكيّة. كان باب الغرفة مفتوحًا قليلًا، تمامًا كما في المرّة السابقة، لكنّ الغرفة خالية. النافذة على غير عادتها مغلقة، وكذلك الستائر البيضاء التي يمرّ ضوء المصباح في قماشها الشفّاف، فينعكس أسفل النافذة منثورًا كنجوم في ليلة غائمة. المرأة نصف العارية ليست نائمة هنا، أو ربّما استيقظت لتذهب إلى الحمّام قليلًا، وستعود في أيّ لحظة. تابع يوسف طريقهُ حتى نهاية الممرّ، والتصق بالجدار حتى لا تراه عند عودتها. مرّ بعض الوقت، ولم تظهر المرأة نصف العارية. المرأة ليست هنا. لا بدّ أنّها

تنام في تلك الغرفة في الطابق الأرضيّ.

نزل يوسف الدرج، واتّجه نحو الممرّ خلف شاشة العرض العملاقة. مرّ بالحمّام الذي كان منارًا قليلًا بمصباح أبيض، ثم تابع طريقه حتى وصل غرفة النوم الأخرى. الغرفة مظلمة، ولا أحد هنا أيضًا. يبدو أنّ المرأة نصف العارية قرّرت قضاء ليلتها في الخارج. ربّما ذهبت لتشاهد مسرحيّة صحبة أحدهم. مسرحيّة «الكراسي» مثلًا ليونسكو. ربّما في هذه اللحظة يدخل الخطيب خشبة المسرح، ليبدأ بشرح رسالة الزوج الخالدة للجمهور الوهميّ وسط حماس الزوجين العجوزين الذي وصل ذروتهُ. والمرأة نصف العارية تشاهد المسرحيّة، وهي تعلم أن لحظة انتحار العجوزين باتت قريبة. ربما ستخبئ وجهها في صدر من معها حتى لا ترى لحظة الانتحار. أو ربّما هي الآن في أحد مطاعم المدينة، تتناول وجبة من المحار البحريّ الفاخر مع كأس من نبيذ «بوردو»، وهي تقول: دع عنك هذا يا رجل. شربتُ كثيرًا، لكني ما زلت أعي أفعالي. يوسف يستطيعُ الآن تخيّلها تستندُ بيدها اليمنى على حافّة الكرسيّ، وقد مال العقدُ الأحمر في جيدها عن المنطقة الوسطى في الصدر الأبيض. استرسل شعرها الطويل يلامس الستارة التي لا بدّ اشتعلت دفئًا. تبتسمُ وهي تهزّ سبابتها في وجه الرجل الذي ينتظرُ أن تمطرهُ السماء ليلة حمراء.

كنت متأكّدة أنّك ستأتي مرّة أخرى. الصوتُ يأتي

يوسف من الخلف. صوت امرأة يشي أنّها نصف عارية. يوسف الذي تجمّد في مكانهِ، وقف معه الزمن في تلك اللحظة عن الانسياب. يوسف يحسّ الآن أنّهُ يشبهُ صورة آنيّة لا تتحرّك. لا يمكنها أن تتحرّك. لا يمكنها متابعة المشهد، لأنّها الثُقِطَت وانتهى الأمر. يوسف ليس قادرًا أن يلتفت، أو أن يجري خارجًا أو أن يموت. يتمنّى أنّ ثقبًا ينفتح في بلاط الممرّ يصلهُ بمركز الأرض. نفقٌ عملاق يسحبهُ إلى تلك الحمم المنصهرة ذات درجات الحرارة الخياليّة، وهي كفيلة أن تجعل من وجوده المادّي بخارًا أو غبارًا حتى قبْل أن يلامسها. يوسف عاجزٌ تمامًا عن أيّ فعل، كأرنب برّي سلط نور مبهر في عينيه في عتمة الليل. أحسّ يوسف بعد الصمت الحجريّ الذي استمرّ لدقائق، أنّ المرأة خلفهُ تمدّ يدها في شعرها لتجلبهُ للخلف. ولو أنّهُ التفت في هذه اللحظة، لرأى المرأة العارية مشتتّة مثلهُ تمامًا، لكن لأسباب مختلفة. ماذا تفعل هنا؟ المرأة تسأله مرة أخرى، وقد بدا في نبرة صوتها ما يشبه الضيق ونفاد الصبر. يستجمع يوسف ما تبقّى من شجاعة، ويلتفتُ، فيرى المرأة نصف العارية في ملابس داخليّة سوداء، تمامًا كتلك التي رآها فيها، وهي تعبر الممرّ لتطفئ النور في تلك الليلة. ينظرُ يوسف في وجهها للحظات، ثم تنكسرُ نظراتهُ فوق الرخام البارد. النقطة السوداء تحت التقاء شفتيها الآن أوضح ما تكون، وتبدو أجمل هنا من صورتها مع الميّت وخلفهما البحر الأزرق. ولو أنّ المرأة

ارتدت عباءة قاتمة اللون - كتلك التي يرتديها القدّيسون في أيقوناتهم - لبدت كما كانت عليه في الحلم. كصورة مطابقة تمامًا للمرأة التي طعنتهُ في خاصرته. لا بدّ أنّ في يدها سكينًا. نظر يوسف في يديها، وتراجع إلى الخلف. لا يمكن الحُكم تمامًا في سبب تراجعهِ للخلف حين التفت ورأى المرأة نصف العارية. فهو ردّ فعل طبيعيّ للسكين المزعوم في يدّها، وربّما تراجع ليثبت للمرأة أنّه يحتفظ بمسافة أمان، ولا يفكر إطلاقًا في إيذائها. نحنّ نتصرّف هكذا في بعض اللحظات، فقط لنثبت للآخر أنّنا لا نفكر في أيّ تواصل جسديّ معهُ، وحتى إن كان الموقف لا يحتمل أيّ اتّصال جسديّ. ذاك لا شكّ يقفزُ إلى عقولنا من الوعي الجمعيّ الذي حكمنا بداية، حين كان الاتّصال الجسديّ بأنواعه - قبل النغم والصوت - هو وسيلة الاتّصال الوحيدة.

المرأة ما زالت تنظرُ في عينيه مباشرة. تعرّيه وتجهض كلّ محاولاته الفاشلة ليرفع رأسه ويراها. تمنعهُ بصمتها من فعل الشيء الوحيد الذي أراد أن يفعلهُ حين قدِم إلى المدينة. حاول مرتين، لكن نظراتها النارية أجهضت كل شيء. صدقيني، أنا لستُ لصًا، ولا أريد إيذاءك أبدًا، قال يوسف بعد أن استجمع ما بقي في حلقه الجافّ من كلمات. المرأة صامتة لا تنبس ببنت شفة، ترى الشبه المثير بين زوجها الميّت ويوسف، ولا تستطيع أن تشيح بنظرها عنهُ. يوسف بدأ يحسّ بالضيق والحزن. حزن كذاك الذي يأتي بعد أن تأتي وترحل الأشياء الجميلة

التي انتظرناها طويلًا. ترحل مسرعة، ولا تترك لنا الوقت لنسرق منها بعض ذكريات. لستُ لصًا.. صدّقيني، لم أسرق شيئًا، ولا أريد أن أسرق شيئًا. يكرّر يوسف نفسهُ مؤكدًا في وجه المرأة الصامت. يفكر يوسف لو أنّها تقول أيّ شيء، لتحرّكت النقطة السوداء أسفل التقاء شفتيها، ولربّما يمكنهُ لحظتها أن يمدّ أصبعهُ ليرى ملمسها. مفاتيح القصر، تقول المرأة نصف العارية أخيرًا. لكني لم أسرق النقود التي كانت هناك أيضًا. أخذت المفاتيح فقط لأخرج من البوّابة. ماذا تريد؟ تقول المرأة بصوت محايد، وتكاد الكلمات تكون غير مسموعة. ولو أنّ يوسف يفتحُ صدره للريح كشجرة عارية، لكان قال لها: جئت هنا فقط حتى أراكِ. وربّما أنّني ارتكبت الجريمة وما تبعها، فقط حتى أراكِ. كنتِ في أحلامي منذ سنين طويلة زائرًا منتظمًا، أنت والجنرال. وأنا بينكما كمنطقة وسطى بين متنافرين. لا أستطيعُ انتماءً هنا، ولا أستطيعُ حياةً هناك!

المرأة نصف العارية هي زوجة الميّت. يفكّر يوسف وقد تزاحمت الرؤى في خياله. لم تنم ليلتها تلك في البلدة القديمة، بل عادت في الليل إلى المدينة.

ما زال يوسف ينظر في الرخام البارد، وقد حار جوابا، ثم قال في النهاية: يمكنني المغادرة الآن إن شئتِ. المرأة تقترب منهُ أكثر، وتنظرُ في عينيه مباشرة. يشتمّ يوسف رائحة العطر النسائيّ الخفيف، فيولدُ صليب من نار في معدته. يضغطُ يوسف يده فوق معدته، ولا يريد

للمرأة أن تلاحظ ألمهُ. لكنّ الألم وصل في لحظات معدودة قمّة، لم يرها يوسف قبل ذلك. حمم من نار كتلك التي أطلقتها السماء فوق المدن الخاطئة تنصبّ في أحشائه. ما زال ينتصبُ مكابرًا حتى خارت قواه. سمعتْ المرأة نصف العارية صوتًا يشبهُ الأنينَ، حين ركع يوسف متألمًا على الرخام البارد أمامها. يوسف يتألم، ويرى قدميها العاريتين أمامه. يكفيه أن يمدّ يده قليلًا ليرى الملمس الحريريّ للساقين المرمريّتين. المرأة حافية القدمين، تباعد بين قدميها قليلًا، ثم تقرّب إحداهما من الأخرى، وتسندها عليها. يوسف يتكوّر كجنين في بطن أمّه، يصارع من أجل الخروج إلى الحياة. من أجل الخروج إلى الألم. هل أنت بخير؟ تقول المرأة، وقد أحسّ يوسف بيد المرأة على كتفهِ، فسقطت دمعة باردة فوق الرخام. يرفعُ يوسف عينيه حتى يصل نظرهُ منطقة المثلّث الحيّ الخصيب. لو أنّ غوستاف كوربيه كان هنا، لغيّر رأيهُ في أصل العالم، ولكان رسم لوحتهُ تلك بامرأة نصف عارية. يرتفع بنظره حتى يمرّ بالبطن العاجيّ، ويرى العينين شبه مغطّاتين بالصدر الأبيض. الضوءُ القادم من الحمّام خلف المرأة نصف العارية، رسم دائرتين للظلّ حول حوضها الملكيّ. تنحني المرأة لتهمس شيئًا، فيعود العطر يعبثُ بيوسف، كما تعبث الريح في يوم عاصف بجثّة مشنوق.

سأغادر الآن سيدتي، يقول يوسف، وقد انتصب بعد محاولتين، والألم يضربهُ كموج هائج في دفّة سفينة.

المرأة ما زالت صامتة. تقدّم خطوتين، ثم عاد، وأخرج المفاتيح من جيب معطفه ومدّها للمرأة نصف العارية لتأخذها. هذه مفاتيح القصر. المرأة ما زالت تنظرُ في عينيه مباشرة، وتقول: حين التقت أعيننا في المقبرة عرفت أنّك ستدخّل القصر. قالت، وقد استدارت هي الأخرى لتغادر المكان. يفكر يوسف أن يعيد إليها ثمن الساعة الذهبيّة، لكنّهُ بذلك سيكشف لها كلّ شيء.

وقفت المرأة نصف العارية جانب أريكة جلديّة، واستدارت. كان يوسف قد وصل باب القبو، فنظر إليها. كان الجانب الأيمن من جسدها منارًا قليلًا بفعل الضوء القادم من الحمّام، أمّا شعرها الأسود الطويل، فكان في شبه عتم، عدا بعض أجزاء سقطت فيها بقايا الضوء القادم من غرفة النوم الملكيّة. سأفتح البوّابة وأترك المفتاح معلّقًا من الداخل قبل أن أغادر، يقول يوسف، فيما المرأة نصف العارية صامتةٌ تمامًا.

ولو أنّ يوسف امتلك الجرأة الكافية لقال لها: هل لي أن ألمس النقطة السوداء أسفل التقاء شفتيك؟ لك ذلك يا يوسف. ولاقترب منها، ومدّ يده يلامس البقعة السوداء، ولوجد أنّها ملساء تمامًا، وأنّ لونها فقط هو ما يعطيها الحياة. ولقال لها: هل لي أن أعانقك قليلًا، فأشتمّ العطر الخفيف من منابعهِ؟ لك ذلك يا يوسف. لن يسقُطَ نجم في برج المجرّة إن أنت يا يوسف عانقتني.. ولن يصلب الشهداء في روما مرّتين، إن أنت عانقتني.. لن يهتزّ العرش النحاسيّ تحت أقدام الإله، ولن تسبى

أورشليم مرتين.. تعال، وعانقني كما في الحلم، حين تسقط الأميرة الحسناء في مدخنة الكوخ الحقير. ولاقترب يوسف منها، وأحاط خصرها بيديه المرتجفتين، ودفن رأسهُ فيَ شلَالُ شعرها الأسود، لاشتمّ العطر من منبعهِ، ولقال: إني الليلة حيّ أبعَث.

لكنّ يوسف في مكانهِ. والمرأة نصف العارية في مكانها. والصمتُ بينهما ثقيل.

تتقدّم المرأة نصف العارية، ويفهم يوسف أنّ عليه أن يتبعها. تجتازُ الشاشة العملاقة، وتلتفّ يسارًا نحو بوّابة القصر الداخليّة، فتفتحها. يوسف على بعد متر واحد منها، أن يحتضنها ويشبك يديه الآن فوق بطنها العاجيّ، ويُغرق وجههُ في شعرها، فماذا عساه يحدث؟ أن يحتضنها، ثم تميتهُ السماء كما أماتت أهل نينوى، فماذا سيحدث؟ هو ميّت على أيّ حال. لا بأس فقط بيديه تلمس خصرها، أو ظهرها! أيّتها السماء الظالمة، أن ألمسها لن تنهار أبراج الكون، ولن يفيض بحر الجليل دمًا!

تفتح المرأة الباب، فيتبعها يوسف إلى البوّابة الخارجيّة. نور القمر الآن يضيء شعرها وجانب من خصرها. تسير ومؤخّرتها البضّة تكشف شيئًا من الزغب الأشقر، فيرفع يوسف عينيه إلى رقبتها، ثم ينظرُ في الأرض العشبيّة الباردة. ولو أنّ المرأة نصف العارية تلتفتُ إلى يوسف الآن، لرأى دمعة استقرّت على طرف خدّها، هناك حيث تلتقي الشفتان فوق النقطة السوداء.

وصلت المرأة نصف العارية إلى البوّابة الخارجيّة للقصر، ووقفت جانبًا. مرّ يوسف بجانبها، وكاد أن يلمس بذراعه حمّالة صدرها السوداء، فارتعش. فتح البوابة بالمفتاح، ومد يده يعطيها المفتاح. بقيت المرأة ساكنة للحظات، ثم مدّت يدها تأخذ المفتاح، فلامست يدهُ يدها. لامس يوسف الرطوبة في يدها، وعاد الزمن به إلى الحُلم، حين كان يمسك يدها قبل أن يظهر الجنرال.

لو أنّ الزمن. الزمن السائل منذ بدء الخليقة يقفُ هنا في يد يوسف تلامس يد المرأة نصفَ العارية. لو أنّ الحياة، حياة يوسف هي في هذه اللحظة. كلها في هذه اللحظة تتوقّف. يلمس فيها يد المرأة، ثم يموت. لو أنّهُ يتحوّل مع المرأة نصف العارية لحجرين متلاصقين، كما في بعض قصص الشعوب.

يسقط المفتاح من يدها على الحجارة الفاخرة في الممرّ نحو البوّابة. يوسف ينظرُ إلى المرأة، فتنحني لتأخذ المفتاح. يناز صدرها أبيض للحظات قبل أن يغطّيه شعرها السائبّ فوق كامل المشهد. يناز صدرها أبيض كسماء أبرقت ليلة قتل قديس.

تعتدل المرأة، ويفهم يوسف أنّهُ وقت الرحيل. إنّ الرحيل الأخير قد حان. سامحيني إن أكون قد سبّبت لكِ أيّ أذى، يقول يوسف، فتبتسم المرأة نصف ابتسامة، تمامًا كنصف ابتسامتها حين طعنتهُ في الحلم.

يغادر يوسف البوّابة نحو الطريق. ولو أنّ يوسف التفت، لرأى المرأة باقية أمام البوّابة تنظرُ إليه حتى

يختفي، ولرأى دمعة أخرى تستقرّ فوق النقطة السوداء أسفل التقاء شفتيها.

يوسف يبكي في شوارع الليل. يبكي حياةً قتلها في رجل فقير قرب سوق البلدة القديمة، وحياة لم يحيها في جسد امرأة. يبكي حياةً بقي فيها طوباويّا حتى اللحظة الأخيرة. حياة مرّت، وغابت فوق سطح هذا الكوكب، ولم تترك أثرًا وإن فوق الرمال. يبكي تفاحًا لم يقضُمهُ في الجنّة صحبة المرأة والخطيئة والأفعى.

وصلَ يوسف إلى حيّ الصفيح عند الرابعة صباحًا. هذا الانتقال بين عالمين: عالم الجوع وعالم التخمة. هذا الفصلُ بين البشر في صفوف، تحت عين السماء. هذا الذي يخالفُ تعاليم السماء بالعدل، وسوف تعاقبنا هي إن نحن تجاوزناه، فيما تتجاوزهُ السماء عينها منذ بدء الكون. تأمرنا بالعدل والإنصاف، ولا تأتمر. تأمرنا، أو نحن من نأمر أنفسنا بعد أن سلمنا زمام عقولنا - في غفلة منها - للمجهول. الحيّ الهادئ نائمٌ خلف بطون خاوية. أسقف تنتظرُ المطر والشتاء، وشوارع عارية إلا من الشقاء واللاجدوى!

وصل يوسف أمام منزل الرجل الذي سقاه حليبًا عند مروره الأوّل من هنا. وقف يوسف ينظرُ إلى البيت. ثم أخرج النقود من جيبه المخفيّ. النقود التي حصل عليها من بيع ساعة الميّت الذهبيّة. أخذ منها ورقتين، ولفّ الباقي في كيس من أكياس الطعام التي اشتراها في المدينة، ولم يأكل نصفها. رمى المال في فناء بيت

الرجل الفقير. سيراه عادل في الصباح، عندما يعود من عمله في جمع القمامة. سيصرخ، ويقول: لقد أمطر ربّ الفقراء المنّ والسلوى على الشعب التائه في البريّة.

عاد يوسف نحو سوق السمك، ثم انعطف إلى مركز تجمّع سيّارات الأجرة القريب منهُ. كان المركز شبه خال إلا من سيارتين اثنتين، فاقترب يوسف من الأولى. كان السائق نائما، لكنّهُ استيقظ على خطى يوسف. السائق وفير الصحّة يكاد ينحشرُ حشرًا خلف المقود. صباح الخير يا سيّدي السائق. صباح الخير. هناك أمر طارئ حدث في البلدة القديمة، هل لك أن تأخذني إلى هناك، وسأعطيك ما تطلب؟ ينظرُ السائق في يوسف، يتفحّصهُ بنظرة كتلك التي يتقنها رجال الأمن، ثم يقول: حسنًا. اتّفقا على السعر، وانطلقت السيّارة.

١٦

وصل يوسف البلدة القديمة عند الخامسة صباحًا. طلب من السائق أن يوصله في أوّل الطريق، الداخل البلدة من جهة المقبرة. نقد السائق الورقتين النقديّتين المتبقيتين معه، وغادر السيّارة. مشى يوسف حتى اجتاز المقبرة. نظر جهة غرفة الحارس، فرأى الغرفة معتمة. لا بدّ أنّهم لم يعيّنوا من يخلفهُ في حراسة المقبرة ليلًا. تابع سيره حتى وصل مفترق الطرق. السوق على يمينه. فانعطف يسارًا في الطريق التي ستلتفّ دائريًا حول البلدة. عندما بدأ مسار الطريق يبتعد عن مسار النهر، تابع سيره، خارجًا عن الطريق محاذيًا النهر. وصل الجسر الحجريّ القديم. هذا الجسر الذي يروي عنهُ الأهالي قصصًا غريبة. يقولون إنّهُ بنيَ قبل أكثر من أربعة قرون، صمد فيها في وجه كلّ فيضان وكلّ عاصفة. دعاماته الحجريّة العملاقة ما زالت تسبّب الرهبة في قلب من يجتازه. وقف يوسفُ في منتصف الجسر، ينظرُ إلى المياه الجارية.

أيتها المياه القدسية، أين هي المنابع الأخرى، تلك التي يولدُ فيها الإنسان حرًا مشاعًا، كالغابة والقطيع والأشجار، تلك التي لا يفني الإنسان حياتهُ يبحثُ فيها عن الحقيقة، والحقيقة أقرب إليهِ من جفنهِ، وأبعدُ عنهُ من نهر المجرّة؟

ولو أنّ أحدهم ينظرُ إلى الجسر من بعيد، لرأى رجلًا يقفُ في قلب الريح، رجلًا يقف في المنطقة الفاصلة

بين حياتين، بين وجود وفناء. رجلًا يتوسّط الجسر بجسد هشّ كأجساد الرهبان في الصحراء. ولرأى قلبًا يرتجفُ وصورًا تتلاحقُ بين عينيه الغائمتين.

أيّتها المياه الأزليّة. هذا القادم إليك ليس نبيًا سيمشي فوق الصفيح الأزرق، ولا يطالهُ البلل. وليس بطلًا أسطوريًا من أولئك الذين تخرّ أمامهم أسوار المدن، فقط إن ضربوا المزمار. أيّتها المياه.. هذا القادمُ إليك، إن جاءك متعبًا فاحتضنيه، أعدّي طرُقه التي لم تفرشها الحياة بأغصان النخل. إن جاءك حاملًا صقيع الكون في قلبه، فامنحيه الدفء الذي غاب عن هذا الكوكب. أيّتها المياه القدسيّة.. كوني دفئًا وخلاصًا.

رفع يوسف رأسهُ، وبدأ يمسح البلدة بعينيه الدامعتين، الغائمتين. البلدة التي كانت خيوط الفجر الأولى تكشف بعض معالمها. المدرسة هناك في الغرب لاح بابها الأسود. المدرسة التي كان يدخلها يوسف صغيرًا، بيدين متجمّدتين محايدتين، وبحقيبة مدرسيّة خالية من السكّر. وهذا السوق هناك، وقد تركت طاولات الباعة في الخارج، تنتظرُ يومًا جديدًا. تنتظرُ لاجدوى جديدة، وعبثًا جديدًا. وهذه الطريقُ المؤدّية للسوق، هناك حيث قتل يوسف رجلا. وهذه هنا مرآة الكون الخازنة، تمتصّ كلّ شيء، وتعكسه في قوانين أبدية لاأخلاقية ما زلنا نجلها. وهناك في المدينة، امرأة نصف عارية، تنامُ وقد تركت نورًا صغيرًا في غرفتها. تنامُ على ظهرها. تباعدُ ما بين ساقيها الرخامّيتين. يدٌ ترتاحُ على الصدر المُكمّل

الحياة، ويدٌ تغطّي المثلث الحيّ الخصيب، أصل الحياة، أصل العالم.

لو أنّك تنظر خلفك، اللحظة يا يوسف. هناك على الجهة اليسرى من الجسر. سترى شبحًا يخرج من العدم في هذه الساعة من فجرك الأخير. يمشي جهة الجسر، ليعبرهُ. سترى وجهًا تعرفه، وجهًا رأيتهُ مرّة واحدة في الطريق بين البلدة القديمة والسوق، يمشي بين أغصان الذرة، ولا يدري أنّهُ هو من قتلك يا يوسف.

لو أنّ الزمن، ذاك المخلوق السائل، ذاك الخالق الإله، يمنحك بضع دقائق، بضع دقائق فقط يا يوسف، لألتقيهُ في ذروة مستحيلة. صباح الخير يا يوسف. صباح الخير، لكنّني قتلتك ذاك اليوم عندما هاجمتني. اعتقدت أنّك قتلتني، لكنّي لم أمت. نهضتُ بعد غيابك، وتابعتُ طريقي بجرح في وجهي. أوَ ربّما هكذا.. نعم قتلتني، لكنّني قمت من بين الأموات. لا أصدقكَ. هات يدك تلمسُ موضع الحربة. كلّ شيء جائز. ومن قال إنّ أصواتنا منذ آلاف السنين، منذ بدء الخليقة، تتلاشى في الفراغ الكوني، وتموت، كما تتباعد ذرات البخار في مرجل يفلي، أو ربّما كما تختفي ذرّات الغبار إن تهدأ العاصفة، لهو جدّ واهم. إنّ الحياة تكرّر ذاتها.

ستدفعُ حياتك يا يوسف ثمنًا لجرمٍ لم تقترفهُ يداك. تلك هي الحياة يا يوسف.. عبث يكمله لا جدوى، لا خلاص. يوسف لا ينظرُ في الجهة اليسرى من الجسر، وقد غطّى الدمع عينيه وحجب الرؤيا. غامت عيناهُ،

وبدأ يرى الأشكال، تواجدها فقط، تمامًا كمن يفتح عينيه في ماء عكر. كما أنّ الزمن لا يمنحهُ بضع دقائق. هذا ليس فارسًا في قصص مقدّس، يمنحهُ الزمن زمنًا كافيًا فقط حتى ينقذ العذراء من فم التنّين، ويذهب في معابد الشرق أيقونة. هذا يوسف الفقير، الحارس الليليّ لمقبرة البلدة.

رمى يوسف نفسه في النهر، فاستقبلتهُ المياه الباردة كصديق قديم. أرسلتهُ في العمق، قبل أن تدفعهُ إلى حياة أخرى. إلى الفناء النهائيّ الأخير. ولو أنّنا نفهم لغة المياه والنهر لسمعنا شيئًا كهذا. لقد جاءنا زائرٌ جديد. مسافرٌ جديد في الرحلة نحو اللاشيء. في الرحلة العبثيّة الدائريّة التي لا تنتهي. مسكين هذا الكائن، مسكين!

سيرى الأطفال الذاهبون إلى مدارسهم صباحًا جثّة رجل تطفو فوق صفيح الماء الأزرق. تطفو على ظهرها وعيناها نحو السماء. نحو سماء خلقتهُ مشاعًا حرًا في أزمنة سعيدة، قبل أن تدجّنهُ الحياة، وتدفعهُ رقمًا في القطيع. ٩/١/٢٠١٦